

العلاقات الموريتانية - الفرنسية

(قراءة في المسار والتأثير والتأثر)

د. جمال غدور

تقديم البروفيسور

محمد المختار سيدي محمد الهادي

الكتاب: العلاقات الموريتانية- الفرنسية (قراءة في المسار والتأثير والتأثر)

المؤلف: د. جمال غدور

ردمك: ISBN 978-9959-915-12-2

رقم الإيداع القانوني: 29/2022

الطبعة الأولى: 2022

منشورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية/ ليبيا

العلاقات الموريتانية- الفرنسية
(قراءة في المسار والتأثير والتأثر)

د. جمال غدور

تقديم

ينتزل كتاب العلاقات الموريتانية- الفرنسية لمؤلفه الدكتور جمال ولد غدور في سياق سعي جيل المؤرخين الشباب للمساهمة في كتابة التاريخ الوطني بعد عقود من استقلال موريتانيا وقيام الدولة المركزية فيها، وفي مرحلة شهدت بعض الاهتمام الخجول بتاريخ المقاومة الشعبية وبواكير الحركة الوطنية بعد سنوات طويلة من التجاهل والتشكيك في قادتها ورموزها، بل وفي بعض وقائعها.

ولا مرأ في أن التأريخ للمجتمعات القبلية المسكونة باستحضار الأمجاد والبطولات، ونفيها عن الخصوم، وتداول الرواية الشفهية للأحداث طبقا لمحددات المزاج القبلي، كلها أمور تجعل الباحث في تاريخ هذه البنيات التقليدية يواجه مصاعب نفسية بالغة، ويبدل جهدا مضاعفا في محاولة التوفيق بين "المقدسات الاجتماعية" والحقيقة التاريخية التي ينشدها متسلحا بأدوات منهجية وضوابط علمية لا تطوع الانتظارات المجتمعية ولا تستجيب في الغالب لتفسيرهم للوقائع التاريخية، وقد تنسف بعض الأساطير المؤسسة لتاريخ المجتمع البيضاني موضوع البحث.

ولا يبدو زمان الدراسة أقل إشكالا من سياقاتها المعرفية السابقة الذكر فقد عرفت البلاد منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من تاليه، موازاة مع مراحل الاحتلال، جدالا فقهما بين نخبة البلاد من العلماء والمتصوفة حول الموقف الشرعي من النازلة الاستعمارية، حيث عدها البعض وسيلة للخلاص من الصراع الاجتماعي والفوضى العارمة والسلب والنهب، وفرصة لفرض السلم والسكينة وتعمير الأرض، في حين رآها آخرون شرا مستطيروا وخطرا جاثما على البلاد والعباد يستوجب الجهاد أو الهجرة، وبين الفسطاطين تمايزت نخب القبول والرفض في مشهد فكري وسياسي مازالت بعض تجلياته ماثلة في التدوين التاريخي الموريتاني المعاصر.

وفي واقع كهذا يبدو عمل الدكتور جمال ولد غدور مساهمة جيدة في التاريخ الموريتاني المعاصر سعى من خلالها إلى تتبع مسارات تكوين الإمارات ورصد علاقات أمرائها وكبرائها بالقوى الأوربية المتنافسة على الموانئ البحرية والمحطات النهرية، في محاولة جادة لفهم تأثير تلك العلاقة وما أسفرت عنه من تحولات عميقة طالت البنيات التقليدية والأنساق السياسية والحرف والأقوات، ولم يهمل الباحث ردود الفعل المحلية على السياسية الاستعمارية، لاسيما الفرنسية منها، حيث أبرز أشكالا من الممانعة الشعبية والمقاومة المسلحة في العديد من المناطق

الموريتانية رغم وجاهة بعض الفتاوى المسالمة ومكانة أصحابها العلمية والاجتماعية.

ومن الجوانب المضيئة في الكتاب ما أبان عنه الباحث من حس تاريخي مرهف، وصرامة منهجية مهدت له سبل البحث في سياقات اجتماعية ومعرفية غير سالكة في أغلب الأحيان، ومكنته من الخروج بخلاصات واضحة ورؤى قد لا تكون محل إجماع لكنها في المقابل لا تخلو من الوجيهة العلمية، كما يحسب له حسن تدبير هندسة البحث وسلامة اللغة وتجنب العيوب التاريخية من قبيل أساليب المدح والقدح والمبالغة والتعميم، مما يجعلنا نعتقد جازمين أن العمل في مجمله يمثل إضافة هامة للمكتبة التاريخية الموريتانية والعربية.

راجين للباحث التوفيق والسداد

الأستاذ الدكتور

محمد المختار سيد محمد الهادي

أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة انواكشوط

المقدمة:

لقد لاحظ - قبلنا - الشيخ سيدي بابيه¹ بحس تاريخي مرهف عزوف أهل البلد عن التأليف في مجال التاريخ، رغم ما أبدوه من اهتمام وما شيدوا من إبداع في شتى فنون المعارف الإسلامية العربية الأخرى فقال: "... وكنت أتعجب من علماء هذه البلاد البيضاوية الصحرواية المغربية وأدبائها على فضلهم ونبلهم كيف لم يعتنوا بتاريخها في كتاب معتبر من أول الزمان إلى الآن، مع كثرة ما وقع فيها من الأمور الكبار التي ينبغي الاعتناء بكتابتها وكثرة من كان بها من الأكابر من كل صنف، الذين لا ينبغي أن تترك أخبارهم نسيا منسيا على جلالته..."².

¹ - سنعرض لترجمته في الفصول القادمة.

² - سيدي بابيه بن سيدي محمد: تاريخ إمارتي إدوعيش ومشطوف (51 صفحة) مخطوط بحوزتنا نسخة منه، ص:2.

وقد اعتنى بتحقيق هذا المخطوط، إزيد بيه بن محمد محمود، وصدرت منه طبعتين، الأولى صادرة عن المطبعة الوطنية 1993 والثانية عن المعهد التربوي الوطني سنة 1994.

وسنضرب صفحا عن الإجابة على هذا الإشكال الهام، الذي أثاره بوعي حاد سيدي بابه، لعدم إلتصاقه بموضوع البحث، وإن كنا نعتقد أن البنية القبلية للمجتمع، وطبيعة نمط عيشه الذي فرض الترحال، إلى جانب غياب تجربة السلطة المركزية في إطار موحد، هي المسؤولة إلى حد كبير عن اقتقادنا لأثر الكتابة التاريخية في النظام المعرفي المحلي¹.

¹ - اهتم أهل البلد بعلم الفقه واللغة والشعر دراسة وتدريسا وتعاطيا وإنتاجا، لكنهم لم يعيروا كبير اهتمام لمجال التاريخ، رغم وجود قلة اهتمت بالأنساب وسير الأعلام، وحوادث السنين، لكن أغلب تاريخ البلد ظل يعتمد فيه على الروايات الشفوية التي عادة ما ينقص النسيان من أطرافها، أو تتألفها العاطفة - حسب الموالات، والعداوة تضخيما أو تقليلا، وحسبنا أن مدينتي شنقيط ووادان اللتان تعتبران حضرتي علم ومنازة رباط، لم يهتم علماءهما بتدوين تاريخهما، بينما تعتبر ولايته، وتيشيت، والنعمة نشازا من هذه القاعدة، حيث كان أهالي هذه المدن يكتبون حوادث السنين في حوليات تبقى مرقونة في المساجد، وفي الجنوب الغربي (الترارزه) اهتم العلماء والشعراء بتدوين الأحداث على شكل أنظمة لتسهيل حفظها على الناس، فظهرت منظومات الوالد بن خالنا، وبابا بن أحمد بيبه، والمختار بن الجكني، ومحمد بن البراء، وتعد موسوعة "ابن خلدون موريتانيا" المختار بن حامد المرقونة في المعهد الموريتاني للبحث العلمي أهم وأشمل مؤلف اعتنى بتاريخ السكان، وسير الرجال ووقائع الأيام، وأنساب القبائل، وعادات الناس، ونمط حياتهم الاجتماعية والثقافية وهي موسوعة ضخمة تتكون من 48 جزء لم يرى النور منها إلا الجزء الجغرافي، والجزء الثقافي، والسياسي، وحوادث السنين.

إذن فمعظم ما ألف حول تاريخ المنطقة عبارة عن شجرات أنساب، وتراجم أعلام، ووقائع حروب وأحداث سنين، أو في أحسن الأحوال تدوين نوازل فقهية، ومراسلات علمية، ونشير هنا إلى العمل الهام الذي ألفه:

- هارون بن الشيخ سيدي: كتاب الأخبار، وهو موسوعة ضخمة تتخذ من سيرة الشيخ سيدي الكبير، وإشعاعه الثقافي ومواقفه السياسية في غرب إفريقيا موضوعا لها، لكنه مع ذلك تطرق للكليات السياسية والمجموعات القبلية، وطريقة عيش السكان، وهذه الموسوعة تقع في قرابة 6000 صفحة ولم ينشر منها إلا الجزءين الأول والثاني وقد أمدني بهما ابن المؤلف - مشكورا - باب بن هارون وهو المشرف على نشرهما.

ونلاحظ أن أغلب التأليف في مجال التاريخ جاء لرفع الغبن الحاصل في ذهنية الأخوة العرب حول ماضي البلد وعروبة أهله وانتمائهم الحضاري، فأحمد بن الأمين الشنقيطي ما ألف كتابه الوسيط في تراجم أدياء شنقيط إلا لما أنكر عليه بعض المصريين جيد الشعر الذي يرويه عن قومه فحملته العصبية إلى "نشر ذلك البز الدفين لينتشر في المشرقين والمغربيين" راجع: (أحمد بن الأمين الوسيط في تراجم أدياء شنقيط القاهرة الطبعة الثانية 1989 ص: 11).

ونفس الشيء ينطبق على المؤرخ الموريتاني المختار بن حامد الذي حملته على تأليف موسوعة موريتانيا، دعوة تاجر لبناني مقيم في السنغال له، ووبعد أن تبدل معه الحديث حول تاريخ البلد، خرج من عنده عازما على كتابة مؤلف يعرف فيه بتاريخ بني جلدته، ويجلي فيه الصورة الحقيقية الناصعة للشناقطة، فكان ثمرة ذلك كتاب موسوعة تاريخ موريتانيا.

وقبل ذلك جاء تأليف محمد بن عبد الوهاب للحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، وسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم لصحيفة النقل في علوية يدعلي وبكرية محمد قلي، وسيدي المختار الكنتي للرسالة الغلاوية، ردا على منع المشاركة لأهل البلد من الاستفادة من "الوقف الحجازي" باعتبارهم سودانيون وليسو مغاربة، وهو ما لم يستسغه القوم، فحاولوا رفع التحدي من خلال الكتابة في الأنساب، وإثبات عروبتهم، ولأن الموضوع لا يسمح بالإطالة في هذا المجال، فإننا نجمل القول فنقول إن السكان لم يعتنوا بكتابة التاريخ وتدوينه، وهو ما انعكس على كتابات المهتمين بالمجال، ونحيل هنا لمن يريد الاطلاع على هذه المؤلفات أو مسألة الوقف الحجازي وما يتعلق بها إلى:

- محمد بن صالح بن عبد الوهاب: الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، تحقيق إزيد بيه بن محمد محمود، وسيدي أحمد بن محمد سالم، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط 1998.
- حماد الله بن سالم: الاتصال الثقافي بين موريتانيا والمشرق العربي، أطروحة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، معهد الدراسات والبحوث العربية، القاهرة 1994.
- المختار الكنتي: الرسالة الغلاوية، تحقيق حماد الله بن سالم، منشورات امرييه ربه، الرباط 2006.

ولم يغيب عن ذهن الكاتب الخليل النحوي – أثناء تقديمه لكتاب ابن حامد – المشقة المترتبة على خوض غمار الكتابة التاريخية، في مجتمع لا زال يتعلق برموزه القبلية، ومجالها الترابي، فصور بأسلوب لا يخلو من دقة وجمال بعض معوقات البحث التاريخي، "لذا كانت كتابة التاريخ في هذا المحيط ضربا من الجهاد، والمخاطرة، ففيها من عناء البحث في المجهول، ومظنة التعرض للخطأ، وعت الاستهداف والمواجهة ما يتطلب علاوة على العلم والدراية، قدرا غير يسير من الجراءة والصبر والمصابرة والمرابطة..."¹.

ونفس الشعور نجده ينتاب الفرنسي "فليب مارشزين Philips Marchesian" حين تحدث عن القصور الحاصل في البحث العلمي عند أهل البلد، "أما الأعمال المنجزة في مؤسسات التعليم العالي وهي في الأساس رسائل تخرج، فكثيرا ما لا تشفي غليل القارئ، وفيما عدا استثناءات نادرة يبقى الصمت مطبقا حول كل ما يمت بصلة لواقع الحياة الاجتماعية، لأن تناول القضايا السياسية شبه معدوم، وباستثناء حالات معزولة ومميزة لقلتها، فإن الباحثين الموريتانيين معروفون بعدم الإنتاج، لأن مهمة البحث لا تجلب لصاحبها التقدير ولا التثمين، وعليه فإن الحرص على متابعة وظيفة هامة يفرض على الباحثين انتهاج حياد مسالم، ليس إزاء السلطات فحسب، وإنما أيضا إزاء كل شخصية نافذة قد يعرضها البحث للأضواء والنقد، فالسمعة قيمة أساسية في هذا المجتمع الذي فيه كل الناس يعرف بعضهم بعضا، والكتابة عن الآخر ليست عملا سهلا، خاصة أن الإحساس إلى الكتابة يبقى ضعيفا بالنظر إلى نقاش الصالونات، وإذاعات الرصيف التي تعوض عن ذلك بجدارة"².

وبعد خروج فرنسا لم تتجه أنظار الباحثين المحليين – على غرار إخوانهم الأفارقة – إلى دراسة الاستعمار، وتجليات سياساته، فربما من نافلة القول إن دول

¹ - المختار بن حامد: موسوعة حياة موريتانيا، جزء التاريخ السياسي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 2000 ص (أ) من التقديم.

² - فيليب مارشزين: القبائل والإثنيات والسلطة في موريتانيا، ترجمة محمد بن بوعليبة، دار جسور، 2013 ص:105.

العالم الثالث بعد إعلان استقلالها عن المستعمر، انصبت جهود معظم مؤرخيها على التأليف حول الظاهرة الاستعمارية وتأثيراتها، وتمجيد بطولات المقاومة في التصدي للغازي الأجنبي، وهو ما لم يعره الباحثون الموريتانيون كبير اهتمام، إذا ما استثنينا النزر القليل، الذي سنعرض له في محله.

من هنا جاء اهتمامنا بموضوع "العلاقات الموريتانية- الفرنسية وتأثيرها على المجتمع (1899-1946)¹" في محاولة لإعادة ترتيب بعض أوراق التاريخ الموريتاني، ونفض غبار النسيان عنه، بعيد عن أهداف وتوجهات دارسين غربيين جاؤوا إلى هذه البلاد إما بحثا عن الغرابة وركوب خطر الأسفار، أو إرضاء لنوازع تلميها تطلعات بلدانهم الإستعمارية، وبعيدا كذلك عما سطره مؤلفون محليون أعمت نظرهم كراهية الإرث الاستعماري، فجاءت كتابات هؤلاء جميعا - في أغلبها - متأثرة بالأحكام الجاهزة تجاه الذات، وتجاه الآخر.

ولإختيار الإطار الزمني (1899-1946) ما يبرره من الناحية المنهجية، فسنة 1899 تحيلنا إلى بداية تسمية المنطقة باسم موريتانيا على يد الإداري الفرنسي "كزافي كبولاني Xavier coppolani" في حين شكلت سنة 1946 ظهور دستور 27 أكتوبر القاضي بتأسيس الاتحاد الفرنسي الذي ضم:

- الجمهورية الفرنسية (فرنسا، وأقاليم ما وراء البحار)
- الأراضي المشتركة (الأقاليم الموجودة تحت الانتداب)
- الدول المشتركة².

وبالنسبة لموريتانيا، فقد اعتبرت إقليما من أقاليم ما وراء البحار المسماة بمجموعة إفريقيا الغربية الفرنسية، وبموجب هذا الدستور أصبح بإمكانها انتخاب

¹ - أطلقت تسميات عديدة على البلاد، تطرقنا لها في مكان من هذا العمل، أما تسمية موريتانيا فقد أقرت رسميا من قبل فرنسا، بواسطة قرار وزاري صادر عن وزارة المستعمرات في 27 ديسمبر 1899.

للمزيد حول هذا الموضوع راجع:
- محبو بن محمد: وثائق من التاريخ الموريتاني (نصوص فرنسية غير منشورة) المطبعة الجديدة، 2000 ص: 41 وما بعدها.

² - سيدي إبراهيم بن محمد أحمد: الحزب الواحد، وتطور الحياة السياسية في موريتانيا، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في العلوم السياسية، جامعة محمد الخامس، كلية العلوم القانونية والاقتصادية، الرباط 1989 ص: 19.

مجلس إقليمي، يعين نائبا عن السكان في الجمعية الوطنية الفرنسية، وعضوا في مجلس الشيوخ، ومستشارا لدى إدارة إفريقيا الغربية الفرنسية، وهذا ما جعلنا نعتمد سنة 1946 كحد لنهاية هذا العمل، باعتبار أن الفترة اللاحقة عليها تشكل مرحلة تاريخية أخرى لها خصوصيتها المنفردة.

وقد قادتنا دوافع ذاتية وأخرى موضوعية إلى تناول هذا الموضوع في مقدمتها شغفي بالتاريخ السياسي¹، ليس لكونه مجالا خصبا للتحليل والتفسير، وإنما أيضا لأهميته في فهم التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي طرأت على المجتمع محل البحث، أما من الناحية الموضوعية فإن الحقبة الاستعمارية بما تتوفر عليه من أحداث، ومواضيع حية لم تطرق بعد، تمثل مصدر استقطاب للباحثين الجادين، وبقدر ما يمثل ذلك من عوامل الإغراء، فإنه في جانبه الآخر يشكل مصدر صعوبة قصوى، نظرا لتباين مصادر المرحلة في الطرح واختلاف وجهات نظر أصحابها، وتناثرها في المكان والزمان، وهذا ما دفعنا إلى البحث في هذا الموضوع لعلنا نضع لبنة تزيد من غناء، وثراء، وعطاء البحث التاريخي المحلي.

تطمح هذه الدراسة إذن إلى المساهمة في تقديم الإجابة من زاوية تاريخية مدعومة – قدر الإمكان – بالمصادر والمراجع عن إشكال أساسي وهو: كيف تدرج الحضور الفرنسي خلال المرحلة المدروسة من حضور تجاري محض، إلى عسكري، وسياسي، وثقافي، ابتداء من القرن العشرين؟ وتستعدي منا الإجابة على هذا الاشكال الإجابة على أسئلة متفرعة عنه:

¹ - قمت بتقديم بحوث أثناء دراساتي الجامعية كلها تصب في التاريخ السياسي للبلد:
- العلاقات الموريتانية – الإفريقية والعربية في عهد الرئيس المختار بن داداه، بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط 2006.
- العلاقات الموريتانية – المغربية (1956-1978) بحث لنيل شهادة ماستر في التاريخ، جامعة ابن طفيل، المغرب 2008.
- الحزب الواحد (حزب الشعب) بحث لنيل شهادة المتريز في القانون، كلية العلوم القانونية والاقتصادية، جامعة نواكشوط، 2008.

كيف أحكم الفرنسيون قبضتهم على البلاد؟ وكيف كان موقف المجتمع المحلي ممثلاً في أرسطراطيته "القلم" و"السيف"؟ وهل كان للوجود الفرنسي تأثير على البلاد وساكنيها؟.

أما المنهج الذي اتبعنا للإجابة على إشكالات الدراسة، فقد أملته نوعية الموضوع نفسه، فلما كان الموضوع يتعلق "بالوجود الفرنسي في البلاد" اقتضى منا ذلك تتبع الخطوات التالية:

- عرض لمسيرة دخول فرنسا إلى المنطقة.
- دراسة مختلف ردود الفعل على الوجود الفرنسي.
- دراسة تأثيرات الوجود الفرنسي على البنيات المحلية "السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية".

ووفق هذه الكيفية تمكنا من الإمساك بمختلف جوانب الموضوع، خلال الفترة المدروسة، وإبراز الحقائق التاريخية المرتبطة بها، وقد قادنا ذلك إلى تتبع النفوذ الفرنسي في البلاد، والسياسات الاستعمارية المطبقة على السكان، وردود الفعل المحلي عليها، وإن كانت السيادة الفرنسية على المجال والسكان حرة الزاوية في ذلك كله، خصوصاً في بلد "تعتبر فيه هبة السلاح أساس السلطة الفرنسية" على حد تعبير الرائد جليبي¹.

ووفق الرؤية السابقة، تمت الاستعانة بمزايا "المنهج النسقي"، الذي يوفر كشفاً أعمق وأشمل لمختلف أبعاد الوجود الفرنسي، ودمجاً أكثر مرونة لمجمل عناصر تحليله، ذلك أن الفرضية التي قادت عملية البحث تنطلق من وجود فرنسا كقوة مهيمنة على البلاد بحيث يتم تقصي طبيعة وحجم تأثيراتها على مجمل التطور الحاصل للبنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للسكان.

¹ - جليبي: التوغل في موريتانيا اكتشاف استكشاف، تعريب: محمد بن حمينا، دار البيضاء، ط1، الكويت 2007، ص:263.

وبالفعل استجابت خطة العمل إلى مقاصد المنهج السابق، حيث قمنا في قسم أول بدراسة الحالة السياسية للنظام الأميري، والحالة الاقتصادية والاجتماعية للسكان، وفي قسم ثاني عملنا على دراسة الوجود الفرنسي، ومقاومة السكان له، قبل أن نتعرض لتأثيراته المختلفة، وكان من الواضح أن هذا المنهج الذي تم اصطفاؤه ساهم في توضيح الرؤية، والإجابة على الأسئلة المثارة، وإن كنا نعترف بأننا سلطنا في هذه الدراسة مسلكا يقوم على "الوصف" أحيانا، أكثر من التحليل مخافة المبالغة في الاستنتاجات، وتحميل النصوص أكثر من طاقتها.

لم تعرف البلاد على مدى تاريخها الطويل الدولة المركزية، وإنما وجدت بها إمارات في شكل جنيني للدولة مارست بمعايير متعددة مفهوم السلطة، وظلت تتقاسم المكانة السياسية، وتتبادل السلم والحرب مع الأطراف المحلية والخارجية، ولأن هذه الإمارات قامت في فترة متقاربة، واتسمت تطوراتها الداخلية بتشابه كبير، وربطتها علاقات مع الوافد الأجنبي، فإننا خصصنا الحديث لكل إمارة بقدر ما يتطلبه المقام من الشرح والتفصيل.

وقد طرأت تحولات عميقة مطلع القرن التاسع عشر على علاقة فرنسا بمنطقة غرب إفريقيا عموما - بما في ذلك ما يعرف اليوم بموريتانيا- إثر استعادتها سان لوي وتوابعها من الإنجليز سنة 1817، في مقابل إنهاء تجارة الرقيق عبر المحيطات¹، ولم يثن الفرنسيين عن تدعيم وجودهم في السنغال وملحقاته النفوذ المتزايد للإمارات البيضانية في الحوض الأسفل لنهر السنغال ولا أقول تجارة الرقيق، أمام مبادلات العلك²، بوصفها مادة الإغراء الاقتصادي الوحيدة في المنطقة. وهكذا بدأ الفرنسيون ينسجون علاقات تجارية مع المجموعات المحلية، لكنها سرعان ما تسلل إليها البعد الإستعماري التوسعي منذ النصف الثاني من القرن التاسع

¹ - راجع الفصل الثاني.

² - سنتحدث عن أهمية هذه المادة لاحقا.

عشر، فلم يتحمل التجار الفرنسيون الإتاوات التي يفرضها عليهم أمراء البيضان، فقاموا بتقديم عريضة يشكون فيها للإدارة الفرنسية وضعية المستعمرة، وقد شجع ذلك فرنسا على التدخل العسكري على يد الوالي "فيدرب Faidherbe" بدافع تقليص نفوذ البيضان داخل الممالك السودانية - خصوصا "الو" - ووضع شروط جديدة للتبادل التجاري (إلغاء المواسم، ومحطات التبادل التقليدية، والقضاء على الإتاوات العرفية).

أدى التناقض الحاصل بين الطرفين، (الطرف المحلي، والطرف الفرنسي) إلى نشوب حرب (1855-1858)¹ التي كانت مملكة "الو" أولى ساحاتها بوصفها حجر الأساس للنظام السياسي الفرنسي في المنطقة وأبرز أوجه السياسة التوسعية الفرنسية، بدءا بإحكام السيطرة عليها، وانتهاء بتغيير شروط التبادل على النهر، ومن ثم انتقل الصراع إلى باقي مناطق النهر، وأسفر في النهاية عن سيطرة فرنسا على المنطقة وفرضها لشروط الصلح.

ورغم قدم احتكاك الأوروبيين بموريتانيا، والتدرج في حضورهم من حضور تجاري إلى توسعي احتلالي، فإن التدخل العسكري المباشر لم يتم إلا مع مطلع القرن العشرين، ولعل السبب في ذلك هو أن الدول الأوروبية أعطت أولية لمناطق أخرى أكثر أهمية من موريتانيا.

ومع تسارع أحداث استعمار القارة السمراء، لم تلبث موريتانيا أن أصبحت - بداية القرن العشرين- بلدا يمتاز بكل المعطيات الإستراتيجية، الكفيلة باحتلاله، فموريتانيا من جهة هي البلد الوحيد الذي بقي في غرب إفريقيا بدون احتلال أو حماية، ومن جهة ثانية سيشكل احتلالها تجسيدا عمليا لمشروع الربط بين المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا وغربها، والهادف إلى بناء إمبراطورية

¹ - أفضت هذه الحرب التي استمرت من فبراير 1855 وحتى مايو 1858 إلى توقيع اتفاقية 20 مايو المجففة بالطرف المحلي فقد اعترف هذا الأخير بحق فرنسا في "الو" وتنازل على الإتاوات العرفية، في مقابل ضرائب محدودة يدفعها الجانب الفرنسي... كما سنفصل مستقبلا.

استعمارية متكاملة جغرافيا، وأمنيا، وإداريا، وهو ما من شأنه أن يبعد مخاطر سقوط الإقليم، تحت النفوذ الإسباني أو البريطاني، المخيمين على مقربة من البلاد. وفي الوقت الذي التزمت فيه فرنسا خلال الفترة السابقة على تعيين فيدربر على السنغال - (قبل 1854) - سياسة السلم والتهدئة، دون التورط في عمليات غزو ضد السكان، شهدت سياستها انقلابا مفاجئا مع قدوم الوالي الجديد (فيدربر)، تنبني على الترغيب والترهيب، واستعمال القوة مع الأطراف المعارضة، وهو ما كان له الأثر البالغ على توسعات فرنسا، وفرض هيمنتها على المنطقة خلال الفترات اللاحقة.

تباينت مواقف الفقهاء من الاستعمار مع أنها انطلقت من استدلالات فقهية مشتركة تتعلق بشروح الآيات والأحاديث وعمل السلف المرتبطة كلها بقضايا من قبيل (التولية، مودة الكفار، والولاء والبراء، والجهاد، والهجرة) وعموما فإن استدلالات كلا الطرفين -القابل للوجود الفرنسي، والرافض له- ظلت تنبع من منطلقات واحدة رغم اختلافها في النتائج، فقد اعتمدوا على النصوص الشرعية الواردة في الأصول (الكتاب، السنة)، ومن أقوال العلماء استنبطوا الأحكام التي تدعم آراءهم مع ربطها بمبدأ المصلحة، وإن تباينت نظرة الطرفين لتكييف المصلحة وتقدير المنافع والمفاسد، ففي حين ربط أصحاب "الرفض" تكييف المصلحة بمصلحة الدين معتبرين أن مصلحة الدين مقدمة على المصالح الأخرى ومستندين في ذلك على النص وتقليد السلف، نجد أن فريق "القبول" ربطها بحفظ النفس والأعراض وصيانة بيضة المسلمين، مستثمرين الأصول المالكية المعروفة (كسد الذريعة، وجلب المصلحة، وارتكاب أخف الضررين).

إن تصنيف الفقهاء في مواقفهم من الظاهرة الاستعمارية بين قابل ورافض، تعكسه معطيات المادة المعاينة، والتي أدركنا من خلالها تموقع الفقيه داخل الخارطة السياسية، وفهمه للأمور التي تجري من حوله عن طريق تحليل وتفكيك نصوص

وقتاوى هؤلاء الفقهاء، وتقصي مواقفهم المتبانية من التوغل الأجنبي رغم صدورها من مرجعية دينية، وثقافية واجتماعية واحدة.

ولم تكن فرنسا في الواقع تحتاج إلى الكثير من التمهيدي لاحتلالها البلاد، فهذه الأخيرة لا تتوفر على سلطة سياسية موحدة، وقبائلها متناحرة، وقاعدتها الاقتصادية مهترزة وخاضعة لتقلبات المناخ وتأثير التجارة مع الأطراف الخارجية، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن الإدارة الاستعمارية حرصت على أن تحف بدايات دخولها البلاد بقدر من ترويض السكان وخاصة رجال الدين ورجال السياسة.

ولإن كانت قد استطاعت السيطرة على رجال السلطة السياسة من خلال تعميق الانشقاقات في صفوفها ودعم الأطراف المعارضة للأمير، فإن المدهش هو سرعة انقياد بعض الفقهاء وقبولهم للاحتلال الأجنبي واستعدادهم للتضحية من أجله إلى درجة أن كبولاني صاحب المشروع روادته الشكوك في صدق نيتهم، وهذا ما عبرت عنه Vuillemin بقولها: "إن تعاون هؤلاء الشيوخ ملفت، بل إنه غريب حيث إن كبولاني نفسه ما كان ليصدق ولم يثق بهؤلاء المشايخ... لكنه سلم بأن عليه أن يكون انتهازيا ويفرق ليسود"¹.

ومهما يكن من أمر فإن كبولاني استطاع بسط النفوذ الفرنسي على "الترارزة" و"البراكنة" و"تكانت" في أقصر مدة وبأقل التكاليف، مما أغراه في متابعة مشروعه واحتلال مرتفعات آدرار، إلا أن مجموعة من المقاومة أوقفت شريط أحلامه الاستعمارية عندما تمكنت من الهجوم على معسكر "تجكجة" واغتياله ليلة 12 من مايو 1905 مخلصين بذلك سابقة في تاريخ مقاومة غرب إفريقيا².

وعموما يمكننا القول إن المقاومة وقفت بقوة في وجه التغلغل الاستعماري في البلاد، وتمكنت بفضل هجماتها المتكررة من تكبيد القوات الفرنسية خسائر فادحة في العدد والعتاد وهو ما أرغمها في حالات كثيرة على تغيير خططها وسياساتها العسكرية، وعلى الدفاع عن نفسها بدل الهجوم والتوسع إلا أن ظروفًا طبيعية وبشرية، ودولية – سنعرض لها – تضافرت على هذه المقاومة وحدث من أداؤها

¹- Vuilleman (desire) contribution a l'histoire de la mauritanie, 1900-1934, edition calairafrique Dakar, 1962,p : 77.

² - حسب علمنا لم تتمكن المقاومة في أي دولة من دول غرب إفريقيا من الوصول إلى رأس حرية الاستعمار والعقل المدبر لمشروع الاحتلال وبذلك تكون موبتانيا استثناء من هذه القاعدة من خلال نجاح المقاومة في هذه العمية الجريئة.

وأرغمتها في النهاية - بعد مسيرة طويلة من الكفاح (من 1903-1934) - على وضع السلاح والانقياد للاحتلال الفرنسي.

وعلى الصعيد الإداري فإن موريتانيا تدرجت من نظام الحماية (1903-1905)، إلى إقليم مدني (1905-1920)، ثم أسندت إليها بعد ذلك صفة "مستعمرة مستقلة" تابعة للحكومة العامة لإفريقيا الغربية الفرنسية (1920-1946)، وقد حولتها هذه الوضعية الأخيرة أن أصبحت مستعمرة مستقلة إداريا وماليا ولها والي يدير شؤونها الداخلية خاضع بدوره لسلطة الوالي العام لإفريقيا الغربية.

كما اتجهت السياسة الاستعمارية في تعاملها مع الأهالي خلال هذه المراحل الإدارية إلى تقريب فئة "الزوايا" وإبعاد مجموعة "حسان" سعيا للحد من سلطة هؤلاء الأخيرين، ثم العدول عن ذلك - في مرحلة لاحقة- إلى التنسيق مع الزعامات التقليدية عن طرق مهادنتهم وخطب ودهم وتفعيل مراكزهم السلطوية ولكن بقدر ما يخدم المصالح الفرنسية.

إن هذا العمل يجد أهميته من خلال سبره التاريخي - مع انفتاحه على نتائج العلوم الأخرى (علم الاجتماع، الأدب، جداول اقتصادية)- لمجتمع ما قبل الاستعمار الفرنسي وتتبعه لمراحل تغلغل الوجود الفرنسي وتأثراته المختلفة، ورصده لطبيعة العلاقة التي ربطت الإدارة الاستعمارية بالأهالي وما اعترى تلك العلاقة من تحريك لنوازع الفصل أحيانا وتفعيل لعوامل الوصل أحيانا أخرى.

وقد اعتمدنا على العديد من الأعمال أثرت الموضوع بمقاييس مختلفة وكان من بين تلك الأعمال كتاب الخليل النحوي: المنارة والرباط (عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة "المحاضر") تونس 1987، 647 ص.

وقد لخص المؤلف محتوى الكتاب في عنوانه الفرعي (عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي...) وهو مكتوب بأسلوب بليغ جزل، وبلغة أدبية شيقة ينتصر فيه

المؤلف لبنى قومه (الشناقطة) فيعطهم أحيانا أكثر ممالهم، ويعتبر الباب الرابع (المحطرة رباط للجهاد) من أهم الأبواب التي تعيننا.

- محمد المختار بن أباه: الشعر والشعراء في موريتانيا، تونس 1987، (427 ص)، ويحتوي على مدونة شعرية لعدة شعراء من أهل البلد، ويمكن أن نعتبره تكملة لكتاب أحمد بن الأمين الشنقيطي (الوسيط في تراجم أدباء شنقيط) غير أن ما يهمننا فيه هو مقدمته التاريخية الهامة التي افتتح بها هذا الكتاب.

وتكتسي الأعمال العديدة التي أنجزها محمد المختار بن السعد¹، ومحمد بن محمد² عن تاريخ المنطقة أهمية بالغة خصوصا كتابيهما (إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين 1703-1860، وكتاب (المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية).

ويتميز هذين العملين³ بالطابع الأكاديمي وجزالة اللغة وطول النفس في التأليف، ومع تركيز الباحثين - غالبا - على التاريخ المونوغرافي (الترارزة، ومنطقة نهر السنغال) ووقوع دراستنا خارج اهتماماتهم البحثية (ق18-19) فإننا قد استفدنا من أعمالهما عندما تطرقنا للمجتمع والسلطة قبل الاحتلال الفرنسي.

¹ - من أهم أعماله التي اعتمدنا: حرب شريبه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي نواكشوط 1994.

- الإمارات والمجال الأميري البيضاني خلال القرنين 18 و19، الترارزة نموذجا، المجلة الجغرافية الموريتانية، العدد الأول 1990 (36-64).

إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين (من 1703 إلى 1860) معهد الدراسات الإفريقية الرباط 2002.

² - من أهم أعماله التي اعتمدنا عليها:

- محمد بن محمد، ومحمد المختار بن السعد: ملاحظات أولية بشأن السيادة في حوض نهر السنغال خلال القرنين 18 و19 (الصراع التروزي نموذجا، المجلة الجغرافية الموريتانية، العدد الأول نواكشوط 1990 (ص 58-76).

الرحالة الفرنسيون ودورهم في تحريف التاريخ الموريتاني حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط العدد الثاني 1990 (ص 21-35).

المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 2001.

³ - كلا الكتابين في أصله أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ بعد فترة طويلة من البحث استغرقت قرابة العامين من وقت الباحثين.

ورجعنا إلى كتاب الطالب أخيار: "الشيخ ماء العينين علماء وأمرء في مواجهة الاستعمار الأوروبي"، منشورات مؤسسة مربيه ربه لأحياء التراث والتبادل الثقافي، الطبعة الأولى، 2007، (جزئين)، ومع أن هذا العمل لا يندرج تحت إطار الأعمال الأكاديمية، وفيه العديد من الثغرات المنهجية¹، وركز على ما يدور حول شخصية معينة (ماء العينين) مما أفقده نكهة الشمولية، إلا أنه يظل - رغم المزالق - مبادرة حميدة تحسب لصاحبها كسرت على الأقل حاجز الخوف من الكتابة حول المرحلة، وُعُدنا إلى جزئه الثاني دون الأول نظرا لدواعي موضوعية وجيهة².

وسعينا - قدر الإمكان - إلى استثمار فتاوى ورسائل فقهية في مجال قبول الاستعمار ورفضه، وهي مصادر لم ينشر أغلبها ولا زال البعض الآخر منها غائبا عن متناول الباحثين³، كما أنها نصوص أصلية في مجملها مثل "النصحية العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرانسه" للشيخ سعد بوه، والرسائل السياسية للشيخ سيديا بابيه (رسالة إلى سكان أطار، ورسالة إلى أهل السنغال، ورسالة إلى سكان إفريقيا الغربية، وفتوى بشأن التعامل مع الفرنسيين...) وكذلك "هداية من حار في أمر النصارى" للشيخ ماء العينين، وفتوى سيدي المختار بن عينينا بن أحمد الهادي بشأن تحريم التعامل مع الفرنسيين، وفتوى سيدي محمد بن حبت في الركون إلى المستعمر...

ومكنا استنطاق هذه النصوص من معرفة موقف غالبية السكان من نازلة الاستعمار وذلك من خلال نظرة الفقيه باعتباره صاحب السلطة الروحية والتشريعية في المجتمع، وهو ما قادنا إلى طرق أقوال الفقهاء انطلاقا من مواقفهم (بين دافع للإستعمار، ومُدافع عنه)، ساعين إلى الاستشهاد بما دونوه، رغبة منا في سد الفراغ

¹ - منها على سبيل المثال أنه لا يذكر - غالبا - الإحالة كاملة، وإنما يكتفي بذكر المؤلف أو عنوان الكتاب دون ذكر مكان الإصدار وتاريخه...

² - من ذلك أن الجزء الثاني يتطرق إلى المقاومة ومعاركها ضد الاحتلال.

³ - نشير إلى أن معظم المخطوطات الموريتانية - باستثناء ما يوجد في المعهد الموريتاني للبحث العلمي - تظل مرقونة في مكتبات أهلية لا يمكن للباحثين الاستفادة منها إلا عن طريق المعرفة الشخصية وهي عادة ما تعثرها أحكام القرابة والبعد والقرب من المواقف السياسية والمصالح القبلية لصاحب المكتبة.

الذي يحدثه غياب نصوص ومصادر من هذا القبيل، وتنويرا لموقف الطرفين من الاستعمار دون أن نغفل وجهة نظر أو نقوي أخرى تاركين مجال الحكم لنصوص الاتجاهين.

وحاولنا تتبع أثر المقاومة المسلحة وأهم معاركها ضد الاحتلال في نوع من الاستقصاء بعيدا عن الإقصاء لأي جهة من جهات البلاد أو مقاوم من المقاومين، حفاظا على الأمانة العلمية في مجتمع صحراوي صعب المراس كثير الترحال نادر التدوين...، قد يضيق ذرعا برواية لا تلائم نظرته للأجداد، وقد يسوؤه أن يذكر بعض الوقائع أو يغفل أمر وقد ذكر آخر.

ومن بين المراجع التي استندنا إليها أثناء الحديث عن المقاومة أطروحة الباحث محمد المختار بن سيد محمد: "النضال الوطني" التي أنجزت لنيل شهادة الماجستير في التاريخ من جامعة بغداد 1997، وكتاب حيمود بن خطري: "نماذج من المقاومة الوطنية" (دون دار نشر) نواكشوط 2010 (99 صفحة) وتتميز أطروحة محمد المختار بالرصانة وشمولية الرؤية، أما كتاب نماذج من المقاومة الوطنية فتختلط فيه الأحداث وتتداخل الروايات ويندر فيه الاعتماد على المصادر والمراجع فجاء في أغلبه شبيها بمرافعة - رغم نزاهة صاحبه - تمجد تاريخ وبطولات قبيلة المؤلف وتحيي درس مناقب الأجداد.

ورجعنا إلى مقال ستيفن أ. هارمن Stephan a.harmon "المقاومة المسلحة وموقف الشيخ ماء العينين إزاء السياسية الفرنسية في شمال غرب إفريقيا (1900-1910)" ترجمة عبد الله بن الأمين، جامعة شعيب الدكالي، مجلة كلية الآداب الجديدة، العدد 8-9 سنة 2004 (ص 47-88)، ومع ما بذل في هذا المقال من جهد إلا أن صاحبه وقع في أخطاء عديدة خصوصا عند ذكر أسماء الأماكن والأعلام.

أما الكتابات الفرنسية حول موريتانيا فيمكن تصنيفها إلى عدة أصناف:

- صنف كتبه الرحالة والمستكشفون الذين زاروا المنطقة تنفيذًا لنوازمهم الشخصية أو بأمر من الإدارة الفرنسية، وقد إحتوت كتابات هؤلاء على أخطاء كثيرة حول عادات وتقاليد وثقافة المجتمع تصل أحيانًا درجة التشويه¹، لذا يجب التعامل مع هذا النوع من الكتابة بقدر غير يسير من الحذر والدقة والتروي.

- الصنف الثاني من الكتابات الفرنسية متعلق بما أنتجه قادة عسكريون أو إداريون سياسيون مثل ما كتبه الرائد "جلييه Gillier" والملازم "روبيرت راندو Robert randau" والاداري "بول مارتي P.marty" وغيرهم، ويتعلق هذا الصنف بشهادات قدمها أولئك القادة والساسة الفرنسيون حول وقائع تاريخية معينة كانوا طرفًا فيها أو شهود عيان عليها.

ويظل هذا النوع من الدراسات مرْتَعًا للمبالغة في التعميم وضبابية الرؤية والتسرع في الحكم وتهويل الوصف، وغالبًا ما تكون أحادية الطرح ونايية الألفاظ خصوصًا عندما يتعلق الأمر بالمقاومة لذا فإننا نجدهم يصفون رجالها بأوصاف من قبيل "مناققون، نهايون، لصوص، تعساء البدو، عصابة...".

ومهما يكن من أمر فإننا استفدنا من كتاب الرائد جلييه "التوغل في موريتانيا"، ووفر لنا مادة مصدرية مهمة حول أعداد الأطراف المتحاربة وأسماء المجموعات القبلية والشخصيات القيادية في المقاومة وأهم معاركها مع الجانب الفرنسي، ويشكل استيعاب هذا الكتاب لمعظم أحداث المقاومة وشموليته من الناحية الجغرافية لأغلب مناطق الوطن مصدر قوة وجاذبية كبيرين.

وتكمن أهمية كتابات بول مارتي حول موريتانيا في دقة معلوماته فقد استفاد من التسهيلات التي منحتها له الإدارة الفرنسية فحاور الأعيان وقرأ الكنائيش

¹ - راجع محمد بن محمد: الرحالة الفرنسيون ودورهم في تحريف التاريخ الموريتاني، مرجع سبق ذكره، صفحة 21 وما بعدها.

واستفسر الرواة، ولا غرو إذا - وهذه إحدى خصائصه - أن تأتي الرواية الشفوية على رأس مصادره، ولا نستبعد هنا أن المعلومات التاريخية والاجتماعية التي قدمها "مارتي"¹ قد أفادت الإدارة الاستعمارية في فهم طبائع القوم وتصنيفاتهم وانتماءاتهم وولاءاتهم وهو ما سهل من مهمتها في رسم الخطوط العريضة للتعامل مع الأهالي.

وعموما فإن الكتابات الفرنسية السابقة تبقى مصدر تحريض للباحث المتسرع في إصدار الأحكام التي تحجب الحقيقة التاريخية وتحول دون الوصول إلى نتائج ملموسة، ومع ذلك لا يمكن الاستغناء عنها لأن كُتَّابها يعتبرون من مؤسسي الوجود الفرنسي في المنطقة وواضعي بذوره الأصلية.

هناك صنف آخر من الكتابات الفرنسية، وهو المتعلق بكتب أو دراسات أكاديمية مهمة بتاريخ البلاد كدراسة السيسولوجي "فرانسيس دي شاسيه Francis de chassey" (La Mauritanie de 1900 a 1975)²، وعمل "بيير بونت Ber bont"³ وبحث "ديزيرى فوليمان D.vuilleman"⁴ وقد جاءت هذه الكتابات - في أغلبها - متأثرة بسابقتها وظلت تدور في فلك الكتابات الاستعمارية رغم تأخرها زمانيا، لكننا فوق ذلك نعترف بأهمية تحليل دي شاسيه المكروسيولوجي للظواهر الاجتماعية إلا أنه يبقى عاملا خارج إطار تخصص التاريخ الذي نشغل به رغم استفادتنا المهمة منه.

ونستطيع أن نقول إن نظرة هؤلاء إلى المجتمع المحلي بأعين أوروبية مشبعة بالأحكام المسبقة بالإضافة إلى عدم معرفتهم لغة القوم وعاداتهم وخصوصياتهم،

¹ - من أهم أعماله:

- القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني، قصة احتلال فرنسا للمنطقة، تعريب محمد محمود بن ودادي (دون مكان نشر) 2004.

- دراسات حول الإسلام في موريتانيا، ترجمة البكاي بن عبد المالك، تونس 2010.

² - ترجمة محمد بن بو عليية الغراب، منشورات دار النشر جسر، نواكشوط، 2013.

³ - بيير بونت: إمارة أدرار الموريتانية، الحريم، التنافس، الحماية في مجتمع قبلي صحراوي، ترجمة محمد بن بو عليية، الطبعة الثانية، دار النشر جسر، نواكشوط 2013، ونثمن هنا الجهود التي قام بها أستاذ الأدب المقارن محمد بن بو عليية لترجمة أعمال فرنسية مهمة، ووضعها بين أيدي الباحثين، ويعتبر العملين السابقين من أهمها.

⁴ - Vuilleman (desire) contribution a l'histoire de la mauritanie, 1900-1934, edition calairafrique Dakar, 1962.

أوقعهم في أخطاء فادحة وجعل الاعتماد على كتاباتهم مقيد بالحذر لأن من لا يعرف لغة شعب وعاداته وثقافته لا يمكن أن يكتب له تاريخا.

ويمكن اعتبار العمل الرصين الذي إطلع به عبد الودود ولد الشيخ حول البداوة والإسلام والسلطة السياسية في المجتمع البيضاني ما قبل الاستعمار

Abdel wadoud ould cheikh: nomadisme, islam et Pouvoir
Politique dans la société maure precoloniale (XI-XIX) Essai sur
quelques aspects du tribalisme. Thèse pour le doctorat en
sociologie, université paris v, 1985.

من أشمل الأعمال الأكاديمية الموريتانية في علم الاجتماع، ولم يتقيد صاحب الأطورحة بقيود مجالها الأساسي - علم الاجتماع - فكانت حاوية لمباحث قيمة عن تاريخ المنطقة.

أما الكتابات العربية - المتمثلة في سعد خليل "تكوين موريتانيا الحديثة"، وكتاب "الجمهورية الإسلامية الموريتانية" لمجموعة باحثين مشاركة - فرغم سبقها الزمني ومسيب الحاجة إليها في غياب البديل، إلا أنها لا تعطي الصورة الحقيقية لموريتانيا، ولأنها كتبت عن بعد فإنها تفتقد لحرارة المعاشية ودقة الملاحظة، كما أن بها خطأ منهجيا وهو قلة اعتمادها على المراجع الموريتانية بسبب بُعد الشقة وندرة الكتابة المحلية ومع ذلك تبقى مساهمة حميدة أثرت المكتبة العربية واستجلت بعض جوانب الغموض حول صورة موريتانيا في الذاكرة العربية عموما والمشرقية بشكل خاص.

ولعل أقرب الدراسات الموريتانية وأكثرها التصاقا ببحثنا العاملين اللذين قدمهما كل من محمد بن الشريف أحمد "الإدارة المركزية في موريتانيا (1902-

1944) بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التاريخ جامعة تونس الأولى 1995 وكتاب محمد الرازي بن صدفن "السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (1900-1969) المطبعة الوطنية 1992، وقد ركز ابن الشريف أحمد في بحثه (يتكون من 102 صفحة) على الإدارة الاستعمارية ومراحل تنظيمها الإداري ورجعنا - نادرا - إلى فصله الأخير المتعلق بالتسيير الإداري، في حين يعتبر كتاب الرازي أكثر جدية وأعمق غوصا، وحاولنا قدر المستطاع الابتعاد عن هذه البحوث المشابهة حتى تكون لدراستنا لمستها الخاصة ونكهتها المميزة.

ورغم أهمية هذه الأعمال فإننا نعتقد أن الفراغ أوسع من أن تملئه، فلا زالت جوانب عديدة من تاريخ البلد يلفها الغموض وبحاجة إلى مزيد الحفر والتنقيب والبحث والتحري خصوصا عندما يتعلق الأمر بالمرحلة الاستعمارية الغامضة في مجملها.

وجاءت هندسة البحث على شكل بابين وخمسة فصول ومقدمة وخاتمة، وقد قسمنا الباب الأول الموسوم بـ"الإمارات البيضاوية وبدايات الوجود الأوروبي" إلى فصلين، يمثل الفصل الأول تأطيرا للموضوع عن طريق عرض لحالة السلطة والمجتمع قبل الاستعمار الفرنسي وهو ما قادنا إلى تتبع النظام الأميري والأطوار التي مرت بها الإمارات (الترارزة، ولبراكنة، وأولاد يحيى بن عثمان، وإدوعيش) ثم البنية الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع ما قبل الاستعمار، وكان الهدف من هذا

الفصل هو بناء صورة يمكن الركون إليها في فهم التغيير الذي أحدثه الاحتلال الأجنبي على مختلف بنيات المجتمع بعد دخوله البلاد.

وعرضنا في الفصل الثاني للوجود الأوروبي والصراعات التي قامت بين الدول الأوروبية للسيطرة على المنطقة، ولم نغفل في هذا الفصل الحديث عن بدايات اتصال الفرنسيين بالبلاد وطريقة استئثارهم بالسيادة عليها بعد أن خرجت كل من البرتغال وهولند وبريطانيا من حلبة الصراع، ونظرا للأهمية التي يحتلها الوالي الفرنسي على السنغال "فيدرب" في وضع أسس السياسة التوسعية الفرنسية في المنطقة فإننا خصصنا له وللرحلات الاستكشافية التي دُشنت في عهده حيزا من المتابعة والبحث.

بينما اخترنا للباب الثاني عنوان (الوجود الفرنسي في موريتانيا بين إثبات الوجود وإكراهات الاستمرار) وفيه ثلاثة فصول تناول الفصل الأول احتلال فرنسا المباشر للمنطقة الذي كان ثمرة لمشروع كبولاني كما عرضنا لأهمية هذا المشروع والمشاكل التي اعترضت قيامه، وتتبعنا مراحل التوغل الفرنسي داخل البلاد بدءا بفرض الحماية على الترابزة وانتهاء بإخضاع آدرار عن طريق حملة العقيد "غورو".Gouraud

في حين خصصنا الفصل الثاني للحديث عن موقف الفقهاء من الاستعمار الفرنسي بين مؤيد ومعارض، ودافع ومُدافع، وتتبعنا أثر المقاومة والخسائر التي ألحقتها بالقوات الفرنسية وأثر ذلك على السياسة الفرنسية تجاه السكان، وختمنا هذا الفصل بجدول ضمناه أهم المعارك والهجمات التي نفذها رجال المقاومة ضد جيش الاحتلال.

وعمدنا في الفصل الثالث إلى دراسة أثر الوجود الفرنسي على بنيات المجتمع وفيه تطرقنا للتنظيمات الإدارية والاقتصادية والثقافية داخل أجهزة الإدارة الاستعمارية، وأثر هذه التنظيمات مجتمعة على البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمجتمع محل الدراسة، وختمنا العمل بخاتمة ضمناها خلاصة ما توصلنا إليه من نتائج أفرزتها عشرتنا الطويلة – نسبيا – للموضوع.

وحرصنا على دعم الوقائع بالأدلة ومراعات مقتضيات التجرد والموضوعية والابتعاد عن التحجيم أو التقزيم سالكين – ما استطعنا – منهج الأمانة والإنصاف، "فلا أجمل من المؤرخ إذا كات حيلته الصدق والإنصاف" على حد تعبير حمادي الساحلي¹.

وهذه الدراسة إن لم تفي بكل الغرض المطلوب، فحسبها أن صاحبها بذل قصارى جهده في البحث والتنقيب، متمثلا قول المؤرخ أحمد المقري² في مقدمة كتابه نفع الطيب، "فإن أدبت المفترض وذاك المرام الذي أرتضيه ويوجب الود ويقتضيه وإلا فحسبي أن بذلت به جهدي وأنفقت من وجدي على قدر ما عندي وقد توهمت أني لم أسبق إلى مثله في بابيه إذ لم أقف له على نظير أتعلق بأسبابه"³.

ونأمل أن تسهم هذه الدراسة في رسم صورة – ولو غائمة - عن الوجود الفرنسي في البلاد، وعلاقته بالمكان والإنسان، وهي علاقة متشابكة ومتداخلة

¹ - عبد العزيز الثعالبي: سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، تحقيق حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1995 ص:11.

² - أحمد بن محمد بن أحمد المقري (986-1041هـ)، عالم ومؤرخ مغربي مشهور، له عدة مؤلفات من أشهرها: روضة اللأس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، تحقق عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية الرباط، 1964.

- وقد ترك المقري ما يقارب ثلاثين أثرا، أهمها كتاب نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ولم يحظ هذا المؤرخ ومؤلفاته منا نحن المغاربة عموما، بما يستحق من الدراسة والبحث، فما زال ميدانا خصبًا، جدير بأن يبحث.

³ - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، مطبعة دار صادر، بيروت 1968 ص:118.

بطبيعتها تبادل فيها الطرفان المنافع ومواقع التأثير، وتدافعوا بالتالي هي أحسن أحيانا
وبغيرها أحيانا كثيرة.

الباب الأول:
الإمارات البيضانية
وبدايات الوجود الأوروبي

عرفت بلاد شنقيط¹ خلال القرن الرابع عشر انسياح القبائل الحسانية إليها قادمة من المغرب الأقصى، وقد تمكنت هذه القبائل من بسط سيطرتها على البلاد، ومع أنهم لم يتمكنوا من توحيد المجتمع تحت سلطة مركزية واحدة، إلا أنهم تمكنوا على الأقل من توحيدة ثقافيا، عن طريق نشر لغتهم العربية في عموم البلاد².

وقد أدى انتشار بني حسان داخل المجال البيضاني، إلى سلسلة من الصراعات بينهم وسكان المنطقة³ أسفرت عن تفوق وسيطرة حسان، وكانت كذلك وراء قيام النظام الأميري كما سنبين ذلك لاحقا.

رافق الهجرات الحسانية سالفة الذكر، توافد عنصر جديد على السواحل، كان له بالغ الأثر على التحولات التي عرفتها المنطقة، ألا وهو المتمثل في الحضور الأوروبي الذي عمل جاهدا على جذب السكان إلى المراكز التجارية، على سواحل الأطلسي⁴.

¹ - عرفت البلاد عدة تسميات لعل أهمها وأكثرها شيوعا:
- أرض البيضان: وكان أول من أطلقها الرحالة العرب (ابن بطوطة، البكري) الذين زاروا المنطقة خلال القرون الوسطى، وأطلقوا هذه التسمية لتمييز السكان ذوي البشرة البيضاء عن بقية الزنوج ذوي البشرة السوداء.
- شنقيط: اسم مدينة تقع في أدرار شمال البلاد حاليا، تأسست في 660هـ وهي امتداد لمدينة آبير، التي كانت قد تأسست 160هـ، وعليه فقد أطلقت تسمية شنقيط التي هي في الأصل إحدى مدن البلاد، على القطر كله، وذلك من باب تسمية الشيء ببعض جزئه.
- موريتانيا: تسمية أطلقها الفرنسيون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان أول من أطلقها منهم الرحالة "جان فانصواكاي" 1843، ثم تبعه الإداري الكزافيي كبولاني -" المنظر الحقيقي لاحتلال المنطقة - في ذلك نهاية القرن التاسع عشر وبداية لاحقة، كما توجد تسميات أخرى أقل انتشارا منها تكرر، وأرض السبية، بلاد المغافرة، للمزيد راجع:
- دود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر (17-18م) بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1992-1993 ص 23 وما بعدها.
- أحمد ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة في وصف الأساليب، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولى 1995 - صص 13-23.
- محمّد بن محمّد، المجتمع البيضاني فيم القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 2001، صص 223-227.
- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987 صص 13-18.
² - إزيد بيه بن محمّد محمود، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، المعهد التربوي الوطني، نواكشوط 2001، ص 109.
³ - من هذه الصراعات والحروب، دليل على التناقض الحاصل بين هذه المجموعة فيما بينها، والمجموعات الأخرى فالجرب الأولى دارت بين المجموعة الحسانية نفسها، والثانية بينها وبين الزوايا وتحالف مجموعة الزوايا، والثالثة بينها وإحدى المجموعات الصنهاجية.
⁴ - من أهم المحطات الأطلسية (أركين، بورتانتيك).

وربما من نافلة القول أن الثورة الصناعية التي شهدتها أوروبا، وبحثها عن المواد الخام، وفتح أسواق لاستقطاب منتجاتها، كانت أهم الأسباب التي دفعت الدول الأوروبية إلى ارتياد البلاد¹.

ومع مرور الوقت، بدأت التجارة الأطلسية تستقطب الساكنة المحلية على حساب التجارة الصحراوية الضاربة في القدم، وعلى الرغم من علاقات التكامل والتواصل بين التجارتين – الصحراوية، الأطلسية - ومن البطء النسبي لعملية اندماج السكان في المنظومة التجارية الأطلسية، فإن سيطرة هذه الأخيرة أصبح أمرا لا مراء فيه، خصوصا بعد أن أصبحت أوروبا سيدة البحار والمتحكمة في التجارة الدولية، وما تولد عن ذلك من تبادل لمواقع الهيمنة بين شمال المتوسط وجنوبه، وتأثير ذلك كله على منطقة جنوب الصحراء.

ونتيجة للأهمية الإستراتيجية التي تحلها البلاد؛ فقد تعاقب على احتلال سواحلها كل من البرتغال، وهولندا، وبريطانيا، وفرنسا، وخاضت هذه الدول عدة حروب عرفت بحروب "العلك" الصمغ²، أفضت إلى تسليم الراية لفرنسا، وخروج الأطراف الأخرى من حلبة الصراع.

وإذا كان الوجود الأوروبي بشكل عام، والفرنسي بشكل خاص، قد أثرا على البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع، فإنه لايمكننا فهم التغيير الذي حصل إلا من خلال استعراض هذه البنى المختلفة قبل الاحتلال الفرنسي المباشر مطلع القرن العشرين.

¹ - يذكر صاحب كتاب تاريخ إفريقيا: أن هناك عدة دوافع دفعت الدول الأوروبية لاستعمار إفريقيا وفي مقدمتها: دوافع دينية ودوافع إستراتيجية، ودوافع من أجل الحصول على الرقيق، والثورة الصناعية وتكوين مستعمرات سكنية...، راجع شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، دار الزهراء طبعة 2 الرياض 2002، ص: 48،62.

² - للمزيد حول هذه الحروب راجع:

- Delcourt (André) la France et les établissements français au Sénégal entre 1713 et 1763 mémoires de L, IFAN, n 17, Dakar 1952,p179 et suivantes.

من جهة أخرى فإن استعراض هذه البنيات – السياسية والاجتماعية والاقتصادية – لمجتمع ما قبل الاستعمار، من شأنه أن يمكننا من إدراك حقيقة ما إذا كان الوافد الجديد قد غير البنى التحتية للمجتمع (القاعدة الاجتماعية والاقتصادية) أم أن مفعول تغييره اقتصر فقط على البنية الفوقية (السلطة التقليدية).

الفصل الأول: السلطة والمجتمع قبل الاستعمار الفرنسي

عندما قدم الاستعمار الفرنسي إلى البلاد، لم يجد بها حكما مركزيا بالمعنى الدارج في الكتابات التاريخية، وإنما وجد نظام أميري ومشيخات¹، مارست السلطة بمقاييس مختلفة على الأهالي، كما أنه أيضا عندما لامست جحافله أرض البلاد، وجد أمامه مجتمعا تراتبيا يعيش على ما تدره مواشيه أو تنبته أرضه، في نوع من التخصص الوظيفي وتبادل المصالح والمنافع، فكيف كان تأثيره على هذه البنى المختلفة؟

أولا: البنية السياسية قبل الاستعمار الفرنسي:

تتمثل البنية السياسية أساسا، في النظام الأميري، الذي ظهر نتيجة تفوق عسكري وسياسي لبعض القبائل المغربية أو المتمغرة²، أفرز نظاما شبه مركزي يختلف عن التنظيم القبلي، حيث تولدت عن هذا النظام الجديد، كيانات سياسية أهمها إمارات الترارزة، ولبراكنة، وأدرار، وتكانت³.

ويختلف النظام الأميري عن التنظيم السياسي القبلي في كونه يجمع تحت سلطة واحدة مجموعة من القبائل الحسانية، والزاوية والتابعة، لا تنتمي إلى نفس القبائل وإنما يجمع بينها خضوعها لسلطة زمنية تسمى الإمارة.

¹ - ظهر في البلاد نوعان من السلطة: الأول النظام الأميري، وهو شكل جنيني للدولة وذلك أنه يمارس فيه الأمير سلطته على إقليم محدد بما فيه من القبائل والمجموعات بغض النظر عن تصنيفها. أما النوع الثاني المشيخة وهي عبارة عن قبيلة قوية يبرز من بين أبنائها فارس متميز يمارس سلطته عليها، دون أن تكون له سلطة على القبائل الأخرى، ومثال ذلك مشيخة أولاد امبارك، التي لم ترق إلى مستوى الإمارة رغم ما لديها من المقومات المساعدة على ذلك مثل قوة الشوكة، والفروسية والقاعدة الاقتصادية. غير أن ما يجدر إليه التنبيه هو أن أحد المؤرخين المحليين "اعتبر ما أسسه أولاد امبارك في الحوض إمارة وليست مشيخة راجع الناني بن الحسين: إمارة أولاد امبارك في الحوض (1712-1841)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط 1986 ص26.

² - نسبة لمغفر أودي بن حسان الجد الجامع للقبائل المعقلية التي حكمت في المجال الشنقيطي والمتمغرة هي التي اتخذت من السلوك المغفري (الفروسية) نهجا لها.

³ - سيأتي الحديث عن هذه الإمارات بشيء من التفصيل في الصفحات القادمة.

أ- النظام الأميري نشأته وتطوره:

بدأت الإمارات البيضانية بالظهور تدريجياً ابتداءً من نهاية الثلث الأول من القرن 17م¹ في حين يرى الباحث محمد الأمين بن سيد أحمد² أن هذه الإمارات قامت على أنقاض إمارة حسانية أخرى سيطرت على الجزء الجنوبي الغربي من البلاد ابتداءً من القرن الرابع عشر الميلادي وهي أولاد رزق³.

بينما يرى Hames أن النظام الأميري قد ظهر أواخر القرن السابع عشر كحل للتناقض الشديد بين حسان والزوايا القائم على التنافس من أجل السيطرة على وسائل الإنتاج في المجتمع، وأن أثر حرب شريبه⁴ أظهر توازناً جديداً بين مكونات المجتمع يركز على نظام جديد، يقنن تقسيم النشاطات بين فئتي حسان والزوايا من جهة، وبينها و الفئات التابعة من جهة أخرى⁵.

ونعتقد أن هناك عاملين ساهما في بلورة وتكريس النظام الأميري هما:

حرب شريبه والحضور الأوروبي في المنطقة، أما في ما يخص حرب شريبه فإنه يتنازع المجتمع البيضاني أورشقراطيين إحداهما أورشقراطية السيف، وهي (حسان)، والثانية القلم (الزوايا)، أما المجموعات الأخرى فتابعة لإحدى المجموعتين⁶ الأولى توفر لها الحماية العسكرية والسياسية، والأخيرة الحماية الروحية والأخرى مقابل ما تقوم به المجموعات التابعة من توفير مستلزمات الحياة المعاشة لهاتين المجموعتين السابقتين.

¹ - محمد المختار بن السعد: الإمارات والمجال الأميري البيضاني خلال القرنين 18 و 19 (إمارة الترازرة نموذجاً)، حوليات كلية الآداب جامعة نواكشوط، العدد 2، 1990 ص: 36.

² - محمد الأمين بن سيد أحمد: السلطة والفقهاء في إمارة الترازرة خلال القرن 19م مطبعة المنار 2003 ص: 80.

³ - نسبة إلى رزق بن أودي بن حسان أخو مغفر.

⁴ - شريبه: حرب دارت في الجنوب الغربي الموريتاني بين الزعامات الحربية المغربية وتحالف القبائل الزاوية بقيادة تشمشة (1671-1677) كانت الغلبة للمغاربة وأفضت إلى قيام الإمارات البيضانية.

⁵ - محمد المختار بن السعد: مرجع سبق ذكره، ص: 120.

⁶ - سنرى التفصيل في مكونات المجتمع عند الحديث لاحقاً عن البنية الاجتماعية.

ومن البديهي والحالة هذه، أن يحصل تدافع بين المجموعتين المسيطرتين، كانت أبرز صورة له "حرب شريبه" فمتى قامت هذه الحرب؟ وما نتائجها؟ وما أثرها على النظام الأميري؟

قامت هذه الحرب – كما أسلفنا – بين المجموعتين الزاوية الأكثر ديمغرافيا، والأرسخ قدم اقتصاديا، وبين حسان المسيطرين على الشؤون السياسية والعسكرية والرافضين لتقاسم السلطة مع أي طرف آخر.

حاولت مجموعة الزوايا الخروج عن الطوق، وملئ الفراغ السياسي الذي يعيشونه عن طريق رفض سلطة بني حسان، فظهر من بينهم رجل تلقب بناصر الدين¹ جمع حوله العديد من الأتباع وعقد المزيد من التحالفات مع القبائل الزاوية، وشرع في جمع السلاح وتدريب أفراد جيشه وتعيين الوزراء والقضاة وجباة الضرائب استعدادا للحظة الفصل.

وكانت القطرة التي أفاضت الكأس، هي أن إحدى المجموعات الزاوية² استجذبت بالمغفرة بعد أن أراد ناصر الدين أخذ الزكاة من أحد أتباعها³ بالقوة، ودون الاستماع إلى دعاويهم في عدم وصول مال تابعه للنصاب الشرعي، متعللين بأن تابعهم لا يملك من المال الذي عنده إلا الجزء اليسير⁴.

أغار المغفرة على جابي الزكاة وانتزعوا ما عنده معلنين الحرب على ناصر الدين وأتباعه، فبدأت الحرب التي عرفت بحرب شريبه (1671-1678)، وانتهت بهزيمة الزوايا، وموت ناصر الدين، وتوقيع اتفاقية كرست الوجود المغفري على الساحة السياسية، وأبعدت فئة الزوايا عن الحقل السياسي، وتتجلى أهمية هذه الاتفاقية في بنودها التي فرضها حسان من منطلق الغالب، ولعل أهم ما دون فيها:⁵

¹ - هو أوبك بن أدهم الديماني الشمشوي.

² - المجموعة الزاوية هي تاشديبت.

³ - التابع هو بيه بن أصول الصكاعي وسميت الحرب باسمه "شريبه".

⁴ - محمد الأمين سيد أحمد: السلطة والفقهاء، مرجع سبق ذكره، ص ص: 85-86.

⁵ - محمد الأمين سيد أحمد: استقرائنا السيف والقلم في موريتانيا خلال القرن 19 بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة 1998 ص ص: 8-9.

- تجريد الزوايا من السلاح ومنعهم من حمله.
- إضافة ثلاثة أيام لكل عابر سبيل من بني حسان من طرف الزوايا وتوصيله إلى أقرب حي زاوي يتولى هو الآخر توصيله إلى أحياء أخرى.
- إعطاء بني حسان ومن تعلق بهم ثلث ماء البئر ونصف ماء العين من كل منهل زاوي يردونه.

أفرزت نتائج هذه الحرب وضعاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً جديداً، أدى إلى تكريس النظام الأميري وقيام الإمارات البيضانية.

أما العنصر الثاني الذي نعتقد أنه ساهم في تدعيم النظام الأميري فهو التجارة مع الأوربيين، فبفضل ما حصل عليه الأمراء من إتاوات وضرائب على التجارة مع الأوربيين، ستشهد مكانتهم - نتيجة ذلك - ارتفاعاً وقاعدتهم الاجتماعية والسياسية اتساعاً، رغم أن هذه الإتاوات والضرائب كانت أحد الأسباب التي أدت إلى إسقاط النظام الأميري وتلاشي قوة الأمراء كما سنرى لاحقاً.

لقد استفاد الأمراء من التنافس الأوربي في المنطقة، فعقدوا عدة اتفاقيات مع الأطراف المتنافسة مما كان له كبير الأثر على العائدات التي تقدمها الدول الأوروبية للنظام الأميري، كما أن الأمراء استفادوا من التناقض الحاصل بين مصالح هذه الدول الأوروبية، ليعقدوا اتفاقاً مع الطرف الذي يقدم أكبر قدر من الامتيازات، وقد ظلت هذه القاعدة مسيطرة على معاملات الإمارات التي تربطها علاقات مباشرة مع الأوربيين (الترارزة، البراكنة، إدوعيش)، أمثلتها الحدود المائية (المحيط، نهر السنيغال) - مجال تحرك القوى الأوروبية في ذلك الوقت - إلا أن انفراد فرنسا بالمنطقة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، سيقطع من هذه الامتيازات، ويفرض شروطاً أخرى وأساساً جديدة للتعامل.

وعلى ما يبدو فإن هذه الإمارات كانت تفتقر إلى الكثير من المركزية السياسية، حيث لم يكن نظامها عصرياً، واضح المعالم والمحددات، يمكن أن نطلق عليه اسم دولة بالمفهوم العصري، وإن كان توفرت فيه شكلياً شروط الدولة (السلطة، الشعب، الإقليم..). غير أن النظام الأميري ظل حبيس القرابة والتحالفات، ولم يطلع بمشروع دولة شمولي تذوب فيه العلاقات الاجتماعية، والتحالفات السياسية، على حساب المصالح العامة للعباد والبلاد.

وقد لا نبالغ إذا ما قلنا أن جملة من العوامل الداخلية والخارجية حالت دون مركزية النظام الأميري.

فعلى المستوى الداخلي: حصلت عدة أزمات خلال القرن التاسع عشر، تمثلت أساساً في الانشقاقات الداخلية للبيوتات الأميرية؛ مما أضعف السلطة، السياسية، وبعد جهود التوحد بين مكونات المجتمع.

ففي إمارة البراكنة: استأثر أولاد السيد بالحكم، وتمت إزاحتهم لأبناء عمومته أولاد نغماش، وكان ذلك بعد الحادث المشهور ب: "تفراك المحصر"¹ مما أدى إلى تشردم الإمارة وتبديد قوتها، فدخلت في صراعات داخلية أفضت إلى مجموعة من الاغتيالات داخل البيت الأميري.

وعلى مستوى إمارة الترارزة: شهدت هي الأخرى على غرار سابقتها العديد من المشاكل الداخلية خصوصاً في طورها الأخير والممتدة من (1860-1903)، وتجسد ذلك في كثرة الاغتيالات، فخلال هذه الفترة تعاقب على الحكم ستة أمراء لم يمت أي منهم موتة طبيعية وإنما كان نتيجة تصفية جسدية بين أبناء محمد لحبيب، وأحفاده، بحيث لم يصل أي من هؤلاء الأمراء الستة إلى كرسي الإمارة إلا عن طريق جثة أخيه، أو عمه، أو ابن عمه المباشر².

¹ - تطلق كلمة المحصر على المكان الذي يسكنه الأمير وجماعته.
² - محمد الأمين سيد أحمد: السلطة والفقهاء، مرجع سبق ذكره، ص: 119.

أما إمارة إدوعيش فلم تكن أحسن حظاً، فقد تسربت إليها عدوى الاغتيالات والنزاعات الداخلية، ووصل التنافس قمته عند موت محمد بن محمد شين (1794-1822) التي أعقبها تنافس بين الأسرة الحاكمة، بعد أن رفض إخوة الأمير الراحل تسليم السلطة لابنه الأكبر أسويد أحمد، الوريث الشرعي لخلافة أبيه.

كما شهدت إمارة آدرار نفس الصراع، وذلك في إطار توارث أولاد يحيى بن عثمان المتصارعين مع جماعة إديشلي وأولاد غيلان¹.

إن هذه الصراعات التي أُلقت بظلالها على جميع الإمارات البيضانية، قد أفضت إلى إضعاف السلطة الأميرية، وحالت دون اطلاعها بأدوار كبيرة في الحياة العامة للمجتمع، ومن جهة أخرى فإن هذه الصراعات الداخلية رافقتها صراعات بين هذه الإمارات، فكل إمارة تحاول التوسع على حساب الإمارة المجاورة لها، وبالتالي فإن أي أمير ذا سلطة قوية، يسعى إلى بسط نفوذه على إحدى الإمارات المجاورة له، ويكون ذلك عن طريق محاولة فرض النفوذ المباشر، كما حصل بين إمارة لبراكنة والترارزة، وإمارة إدوعيش وآدرار، أو عن طريق دعم بعض الأطراف المتنافسة على السلطة من أجل إضعاف الخصم (دعم إدوعيش لمنشقين في إمارة آدرار، ودعم لبراكنة لأخرين منشقين من الترارزة).

وعلى المستوى الخارجي تغيرت سياسة فرنسا إزاء المنطقة، حيث تركزت أهدافها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر على محورين هما تأمين تجارة الصمغ "العلك" عن طريق وضع أسس جديدة للتعامل، وتخليص الجانب الأيسر لنهر السنغال من نفوذ الإمارات البيضانية (وخاصة الترارزة)، وفي هذا الإطار يقول الوالي الفرنسي على السنغال "لويس فيدرب"²: "يجب أن يعرف البيضان أن

¹ - قبيلتان لهما وزن عسكري وسياسي مشهود في آدرار.
² - تولى إدارة مستعمرة السنغال مرتين (1854-1861) و (1863-1865).

النهر لنا، وعليه فإننا غير ملزمين بدفع أية ضريبة من أجل عبوره أو زيارته"¹ كما لخص هذا الوالي سياسته في المنطقة بأنه يعمل لعدة أهداف تتمثل فيما يلي:

- تقوية السيطرة الفرنسية في السنغال وتوسيع نطاقها.
- الضغط على القبائل الموريتانية وإعادة صياغة العلاقات الفرنسية معها.

- كشف البلاد وجمع المعلومات عنها².

وبمجهود يسير، نكتشف أن النظام الأميري عملت عدة عوامل على عدم مركزيته، فبعض هذه العوامل داخلي نابع من طبيعة هذا النظام، وبعضها خارجي بفعل القوى الأوروبية الوافدة على المنطقة التي سعت إلى زرع الخلاف بين الأسر الأميرية في كل إمارة، وبين الإمارات بعضها البعض، ولعل هذا ما حال دون توحيد هذه الإمارات واندماجها في إمارة واحدة تكون نواة لدولة مركزية شاملة.

ب- الجهاز التنظيمي في النظام الأميري:

في البداية كانت الوظائف داخل الجهاز التنظيمي للنظام الأميري (جماعة الحل والعقد، جباة الضرائب) مقصورة على العصبية المسيطرة والمحيطة بالأمير، دون أن يكون للفئات الاجتماعية الأخرى نصيب من هذه الوظائف، وقد كانت هذه هي السمة التي طبعت المرحلة السابقة على حرب شريبه (1671-1677)، أملتتها ضرورة الزمان والمكان، فخلال هذه الفترة اقتصر دور النظام الأميري على تثبيت أركانه، وإحكام السيطرة على مجاله، عن طريق فرض المغارم على الأتباع، الذي شكل مصدر الرزق الوحيد للإمارات في تلك الفترة، وعليه فإن عدم وجود فائض مادي، وضرورة اتخاذ الحيطة اللازمة لضمان سيرورة تكوين السلطة عن طريق

¹ - محمد المين بن الشيخ عبد الله: العلاقات التجارية بين إمارة لبراكنة وفرنسا خلال القرن 19 بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ، كلية الآداب، جامعة نواكشوط 1989 ص: 72.

² - سعد خليل: تكوين موريتانيا الحديثة، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة 1977 ص: 206.

ربط الغارمين بالنظام، كان أهم الأسباب التي جعلت العصبية المسيطرة تحتكر الوظائف لنفسها¹.

لم يتسع الجهاز التنظيمي الأميري، إلا مع القرن الثامن عشر والتاسع عشر، فترة ازدهار المبادلات التجارية مع الأوربيين، عندها تشعبت اختصاصاته، وزادت مهامه فصارت الضرورة ملحة إلى دمج وزراء ومستشارين ومترجمين وكتاب داخل نسيج الجهاز التنظيمي للإمارات.

وسنضرب صفحا عن التفصيل في عناصر البنية التنظيمية للأمانة (الأمير، الجماعة، الديوان)، اعتقادا منا بعدم ضرورة التفصيل فيها، ونجمل فنقول إن الجهاز التنظيمي شهد مشاركة فئات المجتمع كلها تقريبا، ولم يكن مقصورا على حسان أصحاب السلطة السياسية، بل تعداهم إلى مجموعة الزوايا، فوجد منهم مستشارون ووزراء وقضاة² بالإضافة إلى المجموعات التابعة التي شاركت في الجيش وجبي الضرائب.

لكن مما يجدر التنبيه إليه، أن مستوى حضور ومشاركة الفئات الاجتماعية في الحقل السياسي، يختلف من إمارة إلى أختها حسب القوة وضعف المجموعات البشرية التي تحت قبضتها، وحسب انفتاحها على الآخر (الخارج)، وبالتالي فإن عملية الحكم على المشاركة السياسية للمجموعات غير حسان يتفاوت إلى أن يصل في بعض الأحيان حد التباين حسب المناطق والفترات الزمنية لكل إمارة.

ثانيا: الإمارات البيضانية :

لا نسعى من خلال هذه اللمحة عن تاريخ الإمارات البيضانية (لبراكنة، الترارزة، إمارة أولاد يحيى بن عثمان، إدوعيش) الإحاطة بكل تاريخ هذه الإمارات،

¹ - محمد الأمين سيدي أحمد: مرجع سبق ذكره، ص: 90.
² - على سبيل المثال أول قاض في إمارة الترارزة هو المختار بن أفع موسى، والمستشار عبد الله بن رازكة راجع: محمد المختار بن السعد وآخرون: تاريخ القضاء في موريتانيا من عهد المرابطين إلى الاستقلال، تونس 1997 ص: 101.

وإنما إعطاء صورة – ولو مقتضبة – عما كانت عليه بالأمس قبل مجيء الفرنسيين، حتى نفهم الجوانب الخفية من الصورة التاريخية خلال الحقبة المدروسة. ولسنا هنا بصدد الحديث بشكل مفصل عن هذه الإمارات (أطوارها، إسهاماتها، إخفاقاتها...) لأن ذلك يتطلب بحثاً آخر، مما قد يشعب علينا الموضوع ونفقد بالتالي السيطرة عليه، ولأنها ظهرت في فترة زمنية متقاربة، واطلعت بأدوار متشابهة، وتعرضت لنفس عوامل الهدم الخارجي، فإننا سنجمل الحديث – دون ما إسهاب – عن التاريخ السياسي لكل إمارة.

أ. إمارة لبراكنة:

قامت إمارة لبراكنة في الجزء الجنوبي الشرقي من موريتانيا الحالية، خلال منتصف القرن السابع عشر¹ وليس بإمكاننا إعطاء حدود ثابتة لهذه الإمارة، لأن الحدود في الإمارات البيضانية تختلف حسب قوة وضعف الإمارة، ففي حالة قوتها يتسع مجالها ليشمل مناطق جديدة كانت في السابق تحت سلطة إحدى الإمارات، وحين يدب الوهن والضعف في جسم الإمارة، تكون حوزتها الترابية عرضة للسيطرة عليها من قبل آخرين. ومع هذا فإننا نجيز حدوداً لهذه الإمارة² حيث يحدها من الشمال تكانت³ وآدرار⁴، وتلتقي حدودها عند بلدة تسميت⁵، كما يحدها من الغرب إمارة الترارزة، ومن الشرق منطقة العصابة، ومن الجنوب نهر السنغال تحاذيه على مسافة 220 كلم⁶.

¹ -Paul Marty: Etude sur l'islam et les tributs maraknas, les braknas, revue du monde musulman, Paris édition Emast 1921 p 108.

² - للمزيد حول هذه الإمارة:

Chekh (Abdel Wadoud) Nomadisme, islam et pouvoir politique dans la société - maure précoloniale, Essai sur quelques aspects du tribalisme, thèse pour le doctorat en sociologie université Paris – v, 1985 p 297-311.

- سعد ابوه بن احمادة: لمحة من تاريخ إمارة لبراكنة في النصف الثاني من القرن 18، بحث التخرج من المدرسة العليا للأساتذة، نواكشوط 1985.

³ - منطقة جبلية تقع في وسط البلاد، كانت مجالاً لسيطرة إمارة إدوعيش.

⁴ - المنطقة الواقعة شمال البلاد هي مجال سيطرة إمارة أولاد يحيى بن عثمان بن مغفر.

⁵ - نقطة مائية على بعد 45 كلم شمال غرب مقطع لحجار الحالية.

⁶ - محمد الأمين بن الشيخ عبد الله: العلاقات التجارية بين لبراكنة وفرنسا، مرجع سبق ذكره ص: 5.

ظهرت إمارة لبراكنة نتيجة مجموعة من الحروب في منطقة الكُبلَة¹ كان الظفر فيها حليف القوة المغربية الصاعدة على حساب أولاد رزق في معركة ننتيام² (1630 – 1631)، وعلى الزوايا في حرب شريبه (1671 – 1677)³.

وتجلى التعبير عن هذه الانتصارات في بروز كيانات سياسية – هي الإمارات البيضانية، خاصة لبراكنة والترارزة، وقد كرست هذه الانتصارات التفوق الحساني وسيطرتهم على المجموعات الأخرى.

شهدت إمارة لبراكنة فترة ازدهار، ووحدة سياسية، خلال الفترة الممتدة (1762-1678) وهي المرحلة التي تولى الحكم فيها أمراء أقوياء، استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على أجزاء من إمارة الترارزة⁴ المجاورة لمجالهم الترابي.

غير أن عام 1766 سيشهد هبوب رياح غير سارة على إمارة لبراكنة تمثلت أساسا في انشقاق داخل الصف البركني إثر ما عرف ب: "تفراك المحصر" واستئثار الفرع الأصغر بالإمارة (أولاد السيد) بالزعامة وتنحية أبناء عمومتهم أولاد نغماش⁵. لم يفارق التوتر في بعض الأحيان العلاقات بين الترارزة ولبراكنة، وكانت قد تخللتها فترات غير يسيرة من النقاء والانسجام، إلا أن الترارزة التي شهدت شبه وصاية بركنية على مجالها، ولم تستطع التخلص من تلك الوصاية إلا بجهد مضم

¹ - مصطلح جغرافي يطلق على منطقة الترارزة ولبراكنة وجزء من ولاية إينشيرى الحالية.
² - وقعت هذه المعركة إثر خلاف نشب بين أولاد بوعلی وأبناء عمومتهم الكتيبات، فاستنجدت المجموعة الأولى بالمغافرة، فوُقت حرب انتيتام 1630-1631م ودارت الدائرة على الكتيبات لكنها أيضا نجمت عن القضاء على سلطة أولاد رزق راجع بهذا الخصوص محبو بن محمدن: "المجتمع البيضاني في نهاية القرن التاسع عشر" مرجع سبق ذكره ص 212 وما بعدها.

- أحمد بن أحمد يوره الديماني: "إخبار الأحبار بأخبار الأبار" تحقيق أحمد بن الحسن، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط 1992.

³ - محمد المختار بن السعد "حرب شريبه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي انواكشوط 1993 ص: 114 للمزيد راجع:

- Genevieve Desire – vuillemin "la guerre de char baba" sahara occidental fin du XVII siècle Paris le saharien n56-1971, pp 20-25.

⁴ يذكر الباحث محمد الأمين سيدي أحمد: أن الترارزة لم يستطيعوا التخلص من النفوذ البركني إلا في عهد الأمير اعلي شنظورة تولى الإمارة 1703-1727 عندما قدم بجيش من المغرب، راجع محمد الأمين بن سيدي أحمد: السلطة والفقهاء مرجع سبق ذكره ص: 88.

⁵ - محمد الأمين بن الشيخ عبد الله: العلاقات التجارية بين إمارة لبراكنة وفرنسا، مرجع سبق ذكره ص: 24.

(في عهد أعلي شنظورة تولى 1703 – 1727)، ظلت ترقب المشهد السياسي البركني فحاولت إقحام نفسها في الصراعات داخل البيت الأميري عندما دعم محمد الحبيب (1829 – 1860) الجناح الرافض لإمارة محمد الراجل البركني، ردا على إيواء هذا الأخير لابن الليكات¹ أخو الأمير التروزي محمد الحبيب والطامع في عرش إمارته.

حاولت فرنسا هي الأخرى، أن تحافظ على مسافة قصيرة من الصراع الداخلي في لبراكنة، وذلك عن طريق الدعم المادي والمعنوي للطرف الأقرب إلى المصالح الفرنسية (سيدي علي الثاني بن أحمد)، واستبعاد محمد بن سيدي (تولى الإمارة 1851-1858) الذي دعم الترارزة في حربها ضد الوالي الفرنسي على السينغال فيدرب² خلال ما عرف بمحاولة فرض الهيمنة التجارية وتغيير شروط التعامل مع المجموعات البيضانية كما سنرى لاحقا.

بل أكثر من هذا فإن فرنسا سعت إلى دعم الطرفين المتنافسين على كرسي الإمارة في نفس الوقت، وذلك بهدف إضعاف الجميع، وإحداث نوع من التوازن والاستقرار، حتى يتسنى لها إنفاذ مشاريعها.

ومع أن الضعف والانقسام ظل ينخر العمود الفقري لإمارة لبراكنة طيلة القرن التاسع عشر، فإنها استطاعت – رغم كونها مسرحا للصراع والنفوذ الفرنسي والتروزي – الصمود في وجه العواصف والأطماع المحدقة بها، إلى أن تم احتلالها على يد الفرنسيين مطلع القرن العشرين على غرار ما حصل لجارتها الترارزة.

1- أخو محمد الحبيب وساعده الأيمن قبل أن ينشق عنه ويطمع في كرسي الإمارة 1846، حيث هاجر إلى البراكنة وتحت ضغط من محمد الحبيب تم إخراجه إلى إمارة أولاد يحيى بن عثمان وهناك تم اغتياله سنة 1849.
2- محمد بن محمد: مرجع سبق ذكره ص: 261.

ب. إمارة الترارزة:

تحتل إمارة الترارزة¹ موقعا جيواستراتيجيا مهما، فهي بوابة البلاد على الأطلسي، ولها حدود مائية على نهر السينغال تقدر بأكثر من مائتي كلم، وتشارك في الحدود مع الإمارات البيضانية الباقية، ولها علاقات وطيدة مع الممالك السودانية على الضفة اليسرى لنهر السنغال².

وقد ظهرت إمارة الترارزة في الثلث الأول من القرن 17، مع أحمد بن دامن بن عزوز بن مسعود بن موسى بن تروز الذي برز كزعيم سياسي، وقائد عسكري في حرب انتيتام (1630 – 1631) التي أزاحت نفوذ أولاد رزق، وأفسحت المجال أمام السيطرة الحسانية³.

بعد وفاة أحمد بن دامن تولى ابنه الأمير "هدى" القيادة السياسية والعسكرية، فعمل على توطيد نفوذ الترارزة، خصوصا بعد انتصاره على حركة ناصر الدين، في حرب "شربيه" (1671 – 1677) التي كرست النظام الأميري كما سبق وأن ألمحنا إلى ذلك.

وفي عهد "هدى" عقدت الترارزة أول اتصالاتها مع الأوروبيين على السواحل الأطلسية، ويذهب الباحث السعد⁴ إلى أن علاقات الترارزة في هذه الفترة مع الدول الأوروبية، كانت أوثق مع الهولنديين الذين أسسوا في تلك الأثناء ميناء هدي Port de Haddi أو le Partantique (بورتانتيك فيما بعد) ونقلوا إليه ثقلهم التجاري، بيد أن التجارة مع الأوروبيين ستشهد قفزة نوعية في عهد اعلي شنظورة

¹ - للمزيد من المعلومات حول هذه الإمارة يرجع إلى:

- Diakite Abdoulaye; L'Emirat du trarza de 1800 a 1860, université de Dakar, 1983

- Ould cheikh, Nomadisme, islam et pouvoir... op cit, pp 297-339

² - محمد المختار ولد السعد، إمارة الترارزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين (1703-1860) معهد الدراسات الإفريقية الرباط 2002، ج1، ص:342.

وقد تجسد نفوذ الترارزة في الممالك السودانية المجاورة في: دفع المغارم السنوية، وطلب الدعم أثناء الأخطار الخارجية، أو لحسم الخلافات الداخلية وأهم هذه الممالك هي (مملكة الو، مملكة كايور، مملكة ادبولوف) راجع:

³ - محمد المختار بن السعد: الإمارات والمجال الأميري، مرجع سبق ذكره ص: 38.

⁴ - محمد المختار السعد: إمارة الترارزة وعلاقتها مع الفرنسيين، مرجع سبق ذكره، ص:343.

(تولى من 1703 – 1727) المؤسس الفعلي للإمارة، حيث استفادت من التنافس بين الدول الأوروبية على المنطقة، فأثر الهولنديين في أركين¹ وبورتانتيك، في حين قُتُن لأول مرة علاقات الترانزة مع الفرنسيين المتمركزين في سان لويس² بموجب اتفاقية 29 يوليو 1717 مقابل ضرائب عرفية تقدم للإمارة، والتزام الفرنسيين بعدم بيع أي نوع من السلاح لإمارة لبراكنة، وأولاد يحيى بن عثمان، أعداء الإمارة في ذلك الوقت³.

وعموماً يمكننا أن نميز ثلاث مراحل مرت بها إمارة الترانزة نجملها فيما

يلي:

1- طور النشأة (1630 – 1727):

تبدأ هذه المرحلة مع انتصار المغفرة على أولاد زرق (1630) وتنتهي عند وفاة الأمير اعلي شنظورة، وقد امتازت هذه المرحلة بعمل الأمراء على تثبيت حكمهم وإرساء دعائم إمارتهم المولودة بين أعدائها (أولاد ادليم⁴ من الشمال، لبراكنة من الشرق)، وخلال هذه المرحلة أيضاً بدأ يتبلور الجهاز التنظيمي للإمارة، حيث عين المستشارون⁵ والقضاة⁶، وأسندت مهمة الدفاع عن حدود الإمارة للقبائل الحسانية الموجودة في مجال الإمارة⁷.

¹ - مركز تجاري هام أسسه البرتغاليون 1444 وقد تصارعت عليه الدول الأوروبية، التي كانت تحاول السيطرة على المنطقة، وتبعد أركين مائة كيلومتر إلى الجنوب من مدينة حالياً.
² - أول مركز أسسه الفرنسيون بالسنغال سنة 1763، تمكن الإنجليز من انتزاعه من فرنسا مرتين، قبل أن يستعيده الفرنسيون سنة 1817، وقد ظلت تدار منه شؤون موريتانيا حتى الاستقلال.
³ - محمد المختار بن السعد: إمارة الترانزة، مرجع سبق ذكره، ص: 344.
⁴ - أولاد دلیم قبيلة حسانية ذات شوكة، تتواجد الآن في الجنوب المغربي والشمال الغربي الموريتاني دخلت في صراعات مع إمارة الترانزة على سواحل المحيط الأطلسي.
⁵ - من أهم المستشارين ابن رازكة المسمى سيدي عبد الله بن محمد القاضي العلوي (ت 1732) المشهور في الروايات المحلية بالحكمة والدهاء وطول الباع في العلوم الشرعية.
⁶ - ومنهم كذلك المختار بن ألع موسى اليعقوبي قاضي الإمارة الفذ.
⁷ - حول هذه القبائل والمهام الدفاعية المسندة إليها، يرجع إلى محمد الأمين سيدي أحمد السلطة والفقهاء في إمارة الترانزة، مرجع سبق ذكره، ص: 115.

كما اتخذ ولأول مرة تقليد لبس الأبيض والعمامة البيضاء كعلامة مميزة
للأمير دون غيره من الرعية، وتحريم لبسها على من سواه، حتى لو تعلق الأمر
بأقرب الأقربين إليه.

وفي إطار اتصالاتهم مع الأوروبين، خصوصا الفرنسيين منهم، شهدت هذه
الفترة توقيع أول اتفاقية وقعها أحمد بن دامن مع الهولنديين سنة 1633 وفي عام
1678 وقع السيد بن هدي اتفاقية مع البروسيين، منحهم بموجبها حق التبادل في
جزيرة أركين، وكانت أول اتفاقيات الترانزرة مع الفرنسيين تلك التي عقدها معهم
اعلي سنظورة في 29 يوليو 1817¹.

2- طور التآلق والازدهار (1727 – 1860):

تجاوزنا تاريخ هذه المرحلة التي بدأت من وفاة اعلي سنظورة المؤسس
الفعلي للإمارة وتنتهي عند وفاة محمد لحبيب (1829 – 1860) أقوى أمراء الترانزرة،
وكان الطابع العام خلال هذه المرحلة هو استقرار وإحكام السيطرة على المجال،
وتوسيعه شرقا وجنوبا، وتوفير الأمن داخليا، والدخول في علاقات مثمرة خارجيا،
خصوصا مع الفرنسيين، وإن كانت السنوات الأخيرة من هذه الفترة قد شهدت توترا
شديدا وصل إلى حد القتال المسلح بين الطرفين (الترانزرة، فرنسا) وأفضى في
النهاية إلى خضوع الترانزرة²، وتسليمها بالأمر الواقع.

ومع بداية القرن التاسع عشر، شهدت الإمارة هزة عنيفة، تمثلت فيما اصطلح
عليه ب: "أزمة الخلافة في الترانزرة"، عندما انتقلت السلطة من الفرع الأكبر من
أبناء اعلي سنظورة، إلى الفرع الأصغر، بعد وفاة أعمر بن المختار بن اعلي
سنظورة تولى (1794 – 1800) وحينئذ لا يوجد في فرعه من يصلح للإمارة³.

¹ - نسخة بحوزتنا.

² - محبو بن محجن: مدخل إلى دراسة أزمة إمارة الترانزرة أثناء القرن التاسع عشر، المدرسة العليا لتكوين
الأساتذة والمفتشين نواكشوط 1985 ص: 4.

³ - محمد الأمين سيدي أحمد، مرجع سبق ذكره، ص: 117.

في هذا الجو ظهرت أزمة سياسية كادت تصيب الإمارة بالشلل، لولا تدخل جماعة الحل والعقد في الإمارة، واختيار "أعمر بن المختار" لتولي مقاليد الحكم، وسيعمل الأمير الجديد على الوقوف في وجه السياسة الفرنسية في المنطقة، وهو ما أفضى إلى توقيع معاهدة 7 يونيو 1821 بين الأمير والوالي الفرنسي "لوكوبي"¹ المنهية لحرب الاستعمار الزراعي (1818 – 1831)².

وإذا كانت بداية القرن التاسع عشر قد شهدت هزة عنيفة – كما أشرنا سلفا – ضربت إمارة الترارزة، فإنها لم تكن الأخيرة خلال هذه المرحلة، فقد عارض أحمد بن أعمر المختار الملقب الليكاط (ت 1849)، إمارة أخيه محمد لحبيب (1829 – 1860)، وشكل حلفا سياسيا رافضا لولايته، كما ظهر حلف آخر يسمى خنوسة³ عارض هو الآخر، إمارة محمد لحبيب، ولم تكن فرنسا عن هذا الانشقاق ببعيد.

3- طور التدهور والانحطاط (1860 – 1903):

انزلقت الإمارة خلال هذه المرحلة إلى ظاهرة الاغتيالات والفوضى، فبعد اغتيال محمد لحبيب (1860) على يد حلف خنوسة، استن بهم من بعدهم من أبنائه وأحفاده، مما جعل البيت الأميري يتحول إلى أسر متصارعة تجمع حولها ما استطاعت من قبائل المنطقة، ويكفي أن ندلل على ما ذهبنا إليه من اشتداد وطأة الاغتيالات على الإمارة، بالقول إن الأمراء الستة، الذين تعاقبوا على كرسي الإمارة خلال هذه المرحلة (1860- 1903) ماتوا جميعا عن طريق الاغتيال من أقرب الناس إليهم.

¹ - رائد بحري ووالي فرنسا على السنغال بعد الكولونيل شمالتز، وقد تولى حكم السنغال من 3 يوليو 1820 إلى 26 يوليو 1821، وقع في 7 يوليو 1821 اتفاقية سلام مع الترارزة.

² - محمد المختار بن السعد، العلاقات الفرنسية التروزية في عهد الاستعمار الزراعي من خلال رواية "ارنست بريني" حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد الخامس، 1996، ص: 64.

³ - حلف سياسي يضم أهل التونسي وأهل الشرقي بن هدي واستطاع هذا الحلف في النهاية قتل الأمير محمد لحبيب على غرة سنة (1860).

وكانت الميزة التي انفرد بها طور "التدهور والانحطاط" هي تراجع السيادة الإقليمية للإمارة؛ بسبب انشغال الأمراء بتثبيت قواعد كراسيهم وتصفية خصومهم، وبالتالي فقدت الإمارة نفوذها على مجال حيوي (الضفة اليسرى للنهر)، وتقلصت عائدات الضرائب العرفية مع الفرنسيين، فضلا عن خضوع الأمراء لاتفاقيات مجحفة قزمت نفوذهم السياسي والعسكري، وأرغمتهم على الانحاء طواعية أو مكرهين للسياسات الفرنسية.

ج. إمارة أولاد يحيى بن عثمان:

تأسست إمارة أولاد يحيى بن عثمان (إمارة آدرار) في منتصف القرن الثامن عشر¹ على يد عثمان بن لفظيل² في حيز جغرافي يعرف بمنطقة آدرار شمال موريتانيا الحالية، وتعتبر هذه الإمارة من أكثر الإمارات البيضانية تماسكا وقد ساعدها في ذلك - حسب اعتقادنا - التغيير البطيء لتركبتها السكانية، الناجم عن قلة الهجرات إلى هذه المنطقة بسبب ظروفها المناخية الصعبة ومواردها الاقتصادية الشحيحة.

ومع تماسكها النسبي فإنها شهدت عدة أزمات أبرزها الصراع الذي دار بين سيد أحمد بن عثمان، وعمه لكرع بن لفظيل بعد موت مؤسس الإمارة عثمان بن لفظيل، وأزمة الخلافة الثانية في ستينيات القرن 19 التي شهدت اغتالات، مما أدى إلى تضخم في عدد الأمراء في فترة وجيزة من 1860 - 1870.

لقد أدت وفاة أحمد بن عيدة (ت 1277 هـ / 1860م) إلى نزاع حاد بين أبنائه السبعة على السلطة، وهو ما نتج عنه بروز أزمة سياسية عميقة، وحادة، ظهر فيها

¹ - سيدات بن الشيخ المصطفى: ثبوت وصحة انتساب بني مغفر إلى جعفر الطيار، مخطوط، ص: 59.

² - لتعميق المعلومات حول هذه الإمارة ورجالها المؤسسين يرجع إلى :

- Hames « Evolution des Emirates maures... » op. cit ; p 112.

- Ould cheikh, Nomadisme Islam et Pouvoir, op cit ; p312.

بجلاء دور علاقة الخؤولة والتحالفات السياسية في حسم المعركة العسكرية والسياسية في المجتمعات البدوية.

أراد أحمد بن عيدة من تعدد أمهات أولاده، عقد تحالفات أسرية مع القبائل التي تنتمي إليها زوجاته¹ لتدعيم قواعد إمارته، إلا أن النتيجة كانت عكسية على أولاده من بعده، حيث دخل الإخوة في صراعات تحولت مع الوقت إلى صراع قبلي، خاصة وأن العرف الاجتماعي المحلي يفرض عادة العناية بعلاقات الخؤولة التي غالباً ما تكون أساساً للتحالف².

وعلى هذا الأساس دعمت كل قبيلة أو مجموعة أحد أطراف النزاع حتى ولو كان الأمر محسوماً – على الأقل من الناحية الشكلية – ذلك أن أحمد بن عيدة أوصى بالإمارة من بعده لابنه "محمد" الذي سرعان ما اغتاله أخواه "عثمان ومحمد".

وإثر هذه العملية ظهرت مجموعتان متنازعتان إحداهما تدعم الثائر، والأخرى تطالب بدم القتل، وبين هذين الموقفين خرج أحمد بن محمد بن أحمد عيدة (تولى 1871-1891) معلناً نفسه أميراً لآدرار، وحلاً وسطاً يركن إليه الجميع.

ورغم أن مجيء أحمد بن محمد إلى آدرار، قادماً من عند أخواله أمراء تكانت لم يكن بمحض الصدفة، فإن الأطراف باركته، وتمنت أن يكون قدوم الأمير الجديد مناسبة لطى صفحة حروب عانت منها الإمارة، وهذا ما حصل – ولو إلى حين – فدشن الأمير عهده بمصالحة بين الفصائل المتناحرة لقب بعدها بـ: "أمير السلام".

¹ - ظاهرة الزواج السياسي ليست خاصة بإمارة آدرار وإنما شملت معظم الإمارات ففي إمارة لبراكنة تزوج أحمد الأول بن سيد علي من "الشرائيت" مدعماً بذلك التحالف بين المجموعة الأخيرة وأولاد السيد، أما على مستوى الترارزة فقد تزوج محمد لحبيب بن أعمار (1829-1860) من فاطمة الديرمانية سليلة إحدى القبائل الزاوية في الترارزة، كما يحيلنا هذا الأمر إلى زواج محمد الحبيب نفسه من "جنبت" الوريثة الشرعية لمملكة "الو" في إطار لعبة شد الحبل بينه وبين فرنسا المرابطة على مرمى منه، ومن مملكة والو.

² - مريم بنت اعبيدن: العلاقات السياسية بين إمارتي آدرار وتكانت في القرن التاسع عشر، بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ جامعة نواكشوط 1986، ص: 55.

لم يدم السلام طويلا بعد موت "أمير السلام" فعادت الأوضاع إلى التآزم في عهد خليفته وابن عمه أحمد بن سيدي أحمد (تولى 1891-1898)، خصوصا بعد خوضه الحرب ضد جيرانه إدوعيش بقيادة بكار بن أسويد أحمد (1840-1905)¹.
قلص الموقع الجغرافي الحبيس، من دور إمارة أولاد يحيى بن عثمان (إمارة آدرار) في العلاقات مع الأوروبيين على شواطئ الأطلسي، أو مع الفرنسيين بشكل خاص على ضفاف نهر السينغال، وبالتالي كانت وتيرة المبادلات التجارية بين هذه الإمارة والأوروبيين تسير ببطء، عكس ما كانت عليه الحال بالنسبة للبراكنة، والترارزة، وإيدوعيش.

وبوفاة الأمير أحمد بن سيدي أحمد (1898) آلت ظروف الإمارة الصعبة إلى المختار بن أحمد عيدة، ثم إلى أحمد بن عيده الذي قتل 1903، لينتهي المطاف بالإمارة إلى أحضان سيد أحمد بن أحمد بن سيدي أحمد بن عيدة، الذي تم في عهده احتلال آدرار من طرف العقيد كورو 1909.

د. إمارة إدوعيش:

هي الإمارة الصنهاجية الوحيدة في البلاد²، ولهذا يعتبر إدوعيش المجموعة غير الحسانية، التي استطاعت تأسيس إمارة غير مغفوية على شاكلة الإمارات الحسانية الأخرى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر³.

¹ - أهم وأقوى أمراء إدوعيش إن لم يكن أقوى أمراء البلاد قاطبة، تولى الإمارة (1840-1905) كان له نفوذ قوي داخل البلاد وخارجها، ففي الداخل تدخل في النزاعات الداخلية في كل من إمارات (آدرار، والترارزة، ولبراكنة) وفي الخارج تصارع مع الحاج عمر الفتوي، وأوى زعماء كايور وجولوف المناهضين للاستعمار، تم استشهاد بكار على يد القوات الفرنسية في إبريل 1905 أثناء عملية الاحتلال المباشر، كما سنوضح مستقبلا.
² - للزيد من المعلومات حول هذه الإمارة راجع:

- Amilhat (pierre) "petite chronique idouaich, heritiers gueurs des almoravides sahariens" Paris revue des études islamiques n 1, 1973 p41.

- Herche "Note sur la langue berbère de Mauritanie" Dakar, BIFAN, serie B, t-xx n 2 janvier – avril 1958 p 244.

³ - محبو بن محمد، مرجع سبق ذكره، ص: 272.

قامت هذه الإمارة، بعد انتصار إدوعيش، على قبيلة لمتونة الصنهاجية على التحالف المغربي، الذي ضم (لبراكنة، أولاد امبارك، أولاد الناصر، التراززة) إثر ما عرف بحصار "احنيكات بغدادة"¹ 1778.

خرجت إمارة إدعويش من مجرد قبيلة خاضعة سياسيا لنفوذ أولاد امبارك إلى إمارة قوية ذات نفوذ عسكري واسع، وكانت البداية مع محمد خونا²، الذي ركز فكرة التحرر والاستقلالية في أحفاده، وقد خلفه ابنه امر بن محمد خونا وسار على نهج والده مع أنه تحالف مع أعداء الأمس (أولاد امبارك) في معركة "كساري"³ ضد أولاد بوفائدة⁴، وذلك طبقا لسير قاعدة التحالفات الزوجية.

غير أن إمارة إدعويش ستظل تعيش فترة مخاض إلى أن يتولى القيادة "محمد شين (1761-1788)" في ظروف صعبة، عمت فيها الفوضى والاضطرابات، نتيجة غياب سلطة قوية قادرة على إدارة الأمور بسياسة وحكمة.

بيد أن "محمد شين" عمل على توحيد المجموعات التابعة له، وتسوية الخلافات الداخلية، وحاول من الناحية الخارجية التملص من سلطة القبائل المغربية، حيث تذكر بعض المراجع أنه خاض ضد المغفرة ما يربو على سبعين معركة⁵.

وإذا كانت هذه المعارك التي خاضها محمد شين ضد المغفرة، قد أسفرت في النهاية عن انتصار إدعويش، ورد الخطر المغربي، وإزاحة نفوذ أولاد امبارك إلى الحوض، فإنها ساهمت أيضا من ناحية أخرى في تردي أوضاع سكان الإمارة، حيث

¹ - احنيكات بغدادة: موقع يبعد عن مدينة تجكجة حوالي 15 كلم في الجهة الجنوبية الشرقية منها، ويرجع سبب هذا الحصار على ما يبدو إلى المنافسة بين المجموعتين على المجال الحيوي في المنطقة، وقد استمر نصف سنة ولم يتم انفكاكه إلى أن بعد أن تعهد إدعويش بدفع أربعين فرسا إلى المجموعة الحسابية، ومع ذلك فإن هذا الحصار قد خرجت منه مجموعة إدعويش منتصرة نتيجة تماسكها، وهو مكنها من إخراج أولاد امبارك، والتخلص من تبعيتهم، راجع:

- بابا بن الشيخ سيديا، إمارتا إدعويش ومشطوف، تحقيق إيزيد بيه بن محمد محمود، مرجع سبق ذكره، ص: 125.

² - ومنه ينحدر الأمراء المؤسسون لهذه الإمارة والذين اضطلعوا بأدوار سياسية وعسكرية في تاريخ إدعويش.

³ - موضع يقع في ولاية الحوض الشرقي.

⁴ - يذكر صاحب الحسوة البيسانية أنهم ينتمون إلى اعلي بن داود بن علي بن مغفر، راجع صالح بن عبد الوهاب: الحسوة البيسانية في معرفة الأنساب الحسانية مرجع سبق ذكره، صص: 42-43.

⁵ - مريم بنت اعبدين: مرجع سبق ذكره، ص: 29، نقلا عن المختار بن حامدن، الجزء الخاص بإدعويش.

توقفت الأنشطة الاقتصادية (الزراعة، التجارة، الرعي) بسبب حالة الحروب وعدم الاستقرار السياسي في المنطقة.

وما كادت المجموعة الإدويعشية تنتشي بانتصاراتها المتتالية، وتكوينها قوة سياسية وعسكرية في المنطقة، حتى وصلها نعي أميرها محمد شين سنة (1788) عندئذ بدأ الانقسام يعرف طريقه وبسرعة إلى الإمارة، فانقسمت إلى مجموعتين متصارعتين، إحداهما تناصر بكار بن محمد شين، والأخرى يتزعمها أحمد بن بكار، وتناصر الأمير محمد بن شين¹، وظلت الفئتان تتصارعان حتى حسم الأمر لصالح محمد بن محمد شين وطويت صفحة غريمه على السلطة، فعرفت الإمارة بعد ذلك نوعاً من الاستقرار، والاستقطاب لمجموعات جديدة ساهمت في تكريس نفوذ إمارة إدوعيش، وتوسيع مجالها الترابي.

والحقيقة أن إمارة إدوعيش لم تشهد تماماً الخلق، ومنتهى قامتها الفارعة، إلا مع أبرز أمرائها وأطولهم حكماً بكار بن اسويد أحمد (تولى الحكم 1840-1905)².

وسينسج هذا الأمير علاقات مع الفرنسيين انتقلت من التعاون الوثيق، إلى التوتر الشديد، ففي البداية استفاد من عائدات التجارة الفرنسية خاصة في "باكل، وماتام"³، التابعتين لنفوذه، مما ساهم في ترسيخ قدم إمارته، وانتقل هذا التعاون إلى العداء مع مطلع القرن العشرين، عندما حاول الفرنسيون احتلال البلاد، وإنهاء حكم أمراء إدوعيش.

والملاحظة التي يمكن الخروج بها دون مشقة تذكر، أن الإمارات لم تكن سوى محاولة لاختزال بعض مظاهر تعدد المصالح ومراكز التوجيه، ومع ذلك فقد

¹ - محمد بن محمد: مرجع سبق ذكره، ص: 275.

² - سنتحدث عن هذا الأمير في مكان آخر من هذا البحث.

³ - محطتان للتبادل التجاري على النهر، ساهمتا بشكل كبير في إنعاش تجارة الإمارة وقد تمت تبعيتهما لهذه الأخيرة منذ سنة 1821.

بقي الانتماء القبلي هو المحدد للتحالفات السياسية، ولا غرابة في ذلك ما دام الأمر متعلقاً ب: "إعادة ترتيب وتركيز للوحدات القبلية بصورة دورية من خلال الصراع على السلطة"، على حد تعبير عبد الودود ولد الشيخ¹.

والحقيقة أن الإمارات البيضانية، على الرغم من أنها سيرت شؤون العباد – رغم الإخفاقات – ونسجت علاقات فيما بينها وبين الآخرين (الأوربيين، والممالك السودانية المجاورة) فإنها كانت تفتقر إلى مقومات أساسية لا غنى عنها لسلطة مركزية من قبيل الإطار التشريعي (دستور)، وراذع أمني (جيوش نظامية)، وبيت مال (الخزينة العامة) تجبى إليه الضرائب والخراجات، وربما هذه الأمور مجتمعة بالإضافة إلى عوامل الهدم التي مارسها الطرف الفرنسي، كانت وراء تفويض النظام الأميري مطلع القرن العشرين.

ثالثاً: البنية الاجتماعية قبل الاستعمار الفرنسي

كان المجتمع المحلي قبل الاستعمار، يتكون من مجموعة من القبائل والعشائر على شكل هرم يتربع على قمته استقراطيتي (حسان، والزوايا)، في حين يمثل قاعدة الهرم المجموعات التابعة، ولأن الغموض كان يلف طبيعة هذه التشكيلية الثلاثية وأسباب وتاريخ نشأتها، فالمدرسة الأوروبية² تعتبرها وليدة حرب "شربيه" في النصف الثاني من القرن السابع عشر، فإننا نستبعد هذا الرأي لاعتبار بسيط هو أن حرب "شربيه" دارت بين مجموعة حسان من جهة والزوايا من جهة أخرى، بسبب "الحمي" رفض دفع الزكاة للزوايا واحتمى بحسان، إذن فهذا التقسيم كان قبل هذه الحادثة.

في حين تذهب التقاليد العامة المحلية إلى القول بأن هذا التقسيم يعود إلى الفترة المرابطية عندما قسم أبو بكر بن عمر (ت 479هـ 1087م) جيشه إلى ثلاث

¹ - عبد الودود ولد الشيخ، القبيلة وتجلياتها المختلفة، مجلة الوسيط، العدد الأول، نواكشوط، 1987، ص:8.
1- Constant Hames : 'la societe Maure, ou le système des castes de l'inde', cahier international de sociologie, vol. XI,XI. 1969, pp 163-177.

طوائف، تضطلع إحداها بنشر الإسلام بحد السيف (حسان) وتقوم الثانية بنشر العلم (الزوايا) في حين تتولى الأخيرة مهمة القيام على الأموال وتموين الطائفتين المتقدمتين (الأتباع)¹.

ومع إقرارنا بما أحدثته الحركة المرابطية من أدوار سياسية وإيدولوجية في المجتمع البيضاوي، إلا أن هذا المنحى السابق لا يأخذ في الحسبان ما تمتاز به البنية الاجتماعية من ثبات، وخضوعها لأسس الحياة المادية، والتفاعلات الاجتماعية أكثر من خضوعها للحوادث العرضية والتصرفات الفردية.

غير أننا هنا لسنا في موقف الفصل في أصول التقسيم الثلاثي للمجتمع وتجليات ذلك، لأنه لا يترتب عليه كبير فائدة لموضوعنا، وعليه فإننا سنركز على طبيعة المجتمع، لكي نفهم وضعيته أثناء الاحتلال الفرنسي وتبيان عناصره الجوهرية التي تشكل في مجملها تركيبته العامة.

وتتكون البنية الاجتماعية من عدة عناصر سنحاول سردها غير أن الأمر هنا لا يتعلق بالحديث عن المباحث السلالية، أو القوائم الجينالوجية، ولا بإحياء درس المناقب لهذه المجموعة أو تلك، بقدر ما نود محاولة رسم خريطة اجتماعية تقريبية للمجتمع، واستجلاء مفاصلها ومراكز تأثيرها ومنظومة العلاقات التي تربطها.

أ- أصحاب قمة الهرم الاجتماعي:

احتل حسان المرتبة العليا في السلم الاجتماعي، وتكرس ذلك من خلال سيطرتهم السياسية والعسكرية، بفرض الضرائب والغرامات على بعض الفئات الأخرى، في حين تبعهم الزوايا من خلال سيطرتهم الروحية على باقي المجموعات، وللزوايا كذلك نصيبهم من المغارم الاجتماعية، وإن كانت في أغلب الأحيان تعطيتها

¹ - تطلق هذه الكلمة على المجموعة التابعة إما لحسان، أو الزوايا والتي تشغل عادة في تربية الماشية، راجع: محمد المختار بن السعد إمارة التراززة، مرجع سبق ذكره، ص: 121.

لباسا طوعيا، يخرجها من دائرة الإكرام، لتصبح هدية لا مغرما¹، بينما كان نصيب الفئة الباقية التبعية لإحدى الفئتين المهيمنتين (حسان، والزوايا).

1- حسان:

هم الفئة المسيطرة سياسيا وعسكريا اقتسموا البلاد إلى إمارات مغفرية (الترارزة، لبراكنة، أولاد يحيى بن عثمان) أو متمغفرة (إدوعيش)، وكذلك المشيخات التي لم تصل في تنظيمها إلى مستوى الإمارة (أولاد امبارك).

ولا تحيل كلمة (حسان) بالضرورة إلى الانتماء إلى القبائل العربية المعقلية المنتسبة إلى حسان بن مختار بن محمد بن معقل، وإنما يتعدى المعنى الجينالوجي ليشمل الفئة التي تحتكر الحرب والفروسية، وتسيطر على السلطة السياسية والعسكرية سواء كان أصلها ينتهي إلى حسان أم إلى غيره.

وتقوم فلسفة "حسان" على احتكار عالم العنف والقوة، ووسيلتهم في ذلك تدريبهم المكثف منذ نعومة أظافرهم على حمل السلاح، حتى أنهم كانوا يتركون لكل مولود خصلة من شعر رأسه لا تحلق إلا إذا قام ببطولة تدل على فروسيته².

تأنف هذه الفئة التملك وتحقر جمع الثروة وتكديسها، وهذا ما علق عليه أحد الرحالة الفرنسيين قائلا: "فالحساني لا يبذل ولن يبذل أي جهد من المهد إلى اللحد، باستثناء المسائل المرتبطة بطبعه كالنهب، والغزو، والانتقام ومعاقبة المتمردين"³.

ويعزز ما ذهبنا إليه من ترك حسان التملك واعتمادهم في معاشهم على ما تجنيه رماحهم أو ما يفىء عليهم من المغارم ما ذكره ابن حامد بقوله: "أما حسان فشيئتهم اقتناء السلاح، ومداومة الكفاح وامتلاك الرقاب، أموالهم سلاحهم،

¹ - محمد المختار سيدي محمد، المجتمع والسلطة في موريتانيا (1961-1978) "الرحيل إلى الدولة"، كتاب قيد النشر نسخة بحوزتنا أمدنا بها المؤلف - مشكورا - ص:17.

² - محمد الأمين سيد أحمد، مرجع سبق ذكره، ص:46.

³ - هو Constant Donnet مع أنه خالفه الرأي الرحالة الفرنسي "فينصاته" الذي زرا البلاد 1860 في معرض حديثه عن المجتمع بشكل عام "ومع ذلك يجب أن نعترف للبيضان بنشاط لا يعرف الكلل فهم في الأساس رحالة وتجار متنقلون" راجع:

- محمد حمدو بن محمد: الرحالة الفرنسيون ودورهم في تعريف التاريخ الموريتاني، مرجع سبق ذكره، صص: 26-27.

وحصونهم ظهور خيلهم، عيشتهم الصيد وما يأخذونه من المغرم أو ما ينهبونه من الأعداء، وما عدا ذلك فهو عيب عندهم من تجارة أو حرث أو اقتناء ماشية"¹.

ولا تمدنا المصادر المحلية، بعدد تقريبي لهذه الفئة أو تلك، ويرجع ذلك في الأساس - حسب اعتقادنا - إلى بدائية الجهاز التنظيمي الأميري، حيث لم يقدم في أي من الإمارات الأربع على إحصاء الأفراد المنتمين إلى مجاله، وإن كانت ظاهرة الترحال خلف المراعي والكلاً تجعل هذه المهمة صعبة، إلا أن هناك إطاراً قد يساعد على ضبط هذه القضية - ولو بشكل نسبي - في حالة إقدام النظام الأميري على العملية الإحصائية، وهذا الإطار هو القبيلة.

وعليه فإن أول إشادة إحصائية حصلنا عليها بإمكانها أن تعطينا فكرة عن نسبة هذه المجموعة - وإن كانت اقتصرنا على إمارتي الترازة ولبراكنة - ما ذكره الرائد كاي² من أن عدد السكان في الترازة يقدر سنة 1843 بحوالي 55.000 نسمة، تمثل القبائل الحسانية 25.000، بينها تمثل قبائل الزوايا 30.000، في حين قدر عدد حسان في إمارة البراكنة 23.000، من أصل عدد السكان البالغ 63.000 نسمة³.

إن هذه الإحصاءات تقريبية، ولا يسلم بصحتها بشكل دقيق وذلك لعدة اعتبارات - من وجهة نظرنا - منها أن عقلية المجتمع في تلك الفترة تنظر إلى الأوروبي بشكل عام على أنه مسيحي كافر، وبالتالي فإنهم يرفضون التعامل معه وأحرى أن يعطوه معلومات سكانية في غاية الدقة عن أفراد الأسرة، ويكفي من الأدلة على ذلك أن الإدارة الاستعمارية في السنغال، التي أشرفت على تمويل

¹ - المختار بن حامد موسوعة تاريخ موريتانيا، الجزء الثقافي، ص: 175.

² - رائد من مشاة البحرية الفرنسية ومدير العلاقات الخارجية بمستعمرة السنغال، ومنذوبها لدى محطات التبادل النهرية.

³ - دي شاسيه: مصدر سبق ذكره، ص: 95.

الرحلات الاستكشافية، كانت في كثير من الأحيان، تختار أفرادا من أصل سنغالي مسلمين حتى تأمن عليهم من بطش القبائل.

ومن جهة أخرى يبقى من الصعوبة بمكان، إعطاء إحصاء دقيق لسكان معظمهم - إن لم نقل كلهم تقريبا - بدو رحل لا يعرفون إلى الاستقرار والتقري سبيلا.

فإذا كانت عاصمة الإمارة (المحصر)¹ ليست قارة، بل هي متنقلة حسب فصول السنة، ومناطق الانتجاع والعشب، فما بالك بالأسر الأخرى المكونة للنسيج الاجتماعي المحلي، غير أنه مع هذا وذاك، يبقى هذا الإحصاء مصدرا يمكن أن يُركن إليه خصوصا في غياب البديل للباحث عنه.

بقي أن نشير إلى أن فئة حسان أقل ديمغرافيا من المجموعات الأخرى، وإذا كان الإحصاء السالف قد أعطاهم نسبة تزيد على 45% من مجموع سكان "الترارزة" مثلا، فربما باعتبار حسان والمجموعات التابعة لها، ويدعم ما ذهبنا إليه أن الإحصاء ذكر مجموعتين (حسان، والزوايا) ولم يذكر المجموعة الثالثة (الأتباع)، فربما أضاف لكل فئة أتباعها.

وتعود قلة حسان عدديا بالمقارنة مع المجموعات الأخرى، إلى دخولهم المستمر في حروب بينية، ودخولهم في صراعات بين الإمارات التي تقاسمت السلطة، بل ودخولهم في حروب مع الفرنسيين، فحرب أمير الترارزة محمد لحبيب مع الوالي الفرنسي على السنغال من أجل وضع أسس جديدة للتعامل في المنطقة، والتي استمرت أربع سنوات (1854-1858) فقد فيها محمد لحبيب خمس جيشه² وكلهم من حملة السلاح (حسان).

¹ - كلمة تطلق محليا على عاصمة الإمارة ويقابلها أيضا في بعض الجهات (الحلة) وتعني البيوتات الأميرية والجهاز التنظيمي بشكل عام للإمارة وبعض القبائل المقربة.

² - محبو بن محسن: مرجع سبق ذكره، ص: 282.

2- الزوايا:

تطلق على الفئة المتخصصة في العلم والتعليم وهي المجموعة التي تدير عالم الغيب، فإذا كان حسان يسيطرون زمنيا ودينويا، فإن الزوايا يسيطرون روحيا وأخرويا، فهذه الفئة الأخيرة هي المنتجة للثقافة العامة.

ويمكن القول أن "الزوايا" تشكلوا من أصول مختلفة (صنهاجية، عربية، إفريقية) عبر مراحل الإعمار البشري للمنطقة، فانصهروا في أشكال تنظيمية اتخذت من الحضارة العربية الإسلامية مرجعا ومن القبيلة شكلا تنظيميا مع تشبث الجميع بالانتماء إلى الأصول العربية.

ولا يهمننا في شيء صحة أو بطلان الادعاء بالانتماء إلى الأصول العربية، غير أن ما لفت انتباهنا وفصلنا شيئا ما فيه القول في دراسة سابقة¹، هو السبب الذي جعل القبائل تجتهد في جعل أصولها عربية، حتى ولو لم تكن كذلك².

تعتبر الزوايا أصحاب الحظ الأوفر من الأعمال الإنتاجية، فهم يهيمنون على التجارة والزراعة، وتربية الماشية، كما يمتلكون أعدادا كبيرة من الماشية وبذلك يعتبرون أكثر غنى من حسان الذين يعافون النشاطات الاقتصادية³.

ولا نمتلك أرقاما دقيقة عن أعداد "الزوايا" نتيجة إجماع المصادر عن ذكرها وعدم وجود إحصاءات سكانية في فترة ما قبل الاستعمار، فلا وجود لقائمة حصرية بأسماء القبائل الموجودة في كل منطقة أو عدد سكانها، فقد كانت حياة البداوة الطاعنة واستغناء أهل البلد عن بعضهم البعض في الأمور الجامعة وغياب الدولة بالمعنى

¹ جمال المختار غدور: العلاقات الموريتانية - المغربية (1956-1978) بحيث لنيل شهادة الماستر في التاريخ جامعة ابن طفيل 2008 ، ص: 13 وما بعدها.

² حرصت جل القبائل على ربط نسبها بإحدى القبائل العربية ذات الشأن في التاريخ الإسلامي رغبة منها في المشاركة في الحياة السياسية والعسكرية التي يحتكرها حسان والصعود بالتالي في السلم الاجتماعي، وهكذا كان الانتماء إلى الأصول العربية يدفع القبيلة إلى التدرج في الهرم الاجتماعي، لذا سعت المجموعات إلى تعريب نفسها بنفسها حتى ولو لم يكن ذلك حقيقة، ربما مدفوعة برأي ابن خلدون "المغلوب مولع بتقليد الغالب".

³ - محمد الرازي بن صدفن: السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (1900-1960) المطبعة الوطنية 1992، ص: 21.

الدقيق، كلها عوامل طبعت بنية المجتمع فجعلته لا يعتني بما لا يدخل في صميم ضرورياته اليومية كالبيانات الإحصائية.

كما أن الطابع الفئوي للجباية، وطبيعة القيمين عليها في النظام الأميري، وطريقة الفئة الزاوية في جباية العقالة¹ لم تسمح هي الأخرى بوجود سجلات جباية يمكن الاعتماد عليها، في وضع تقديرات إحصائية لسكان المنطقة، قبل الوجود الفرنسي.

وقد قدر جورج أبولي جورج أبولي Georg Poly عدد سكان إمارة الترازة في السنة السابقة للاحتلال الفرنسي ب 77.100 نسبة، مثل الزوايا ومواليهم 22.000 بالغ، وحسان ومواليهم 4.500 بالغ، والأتباع "ازناكة" 600 بالغ، في حين وصل عدد النساء والأطفال من مختلف الفئات 5.000 نسمة².

إن هذه التقديرات تعطينا صورة - ولو ضبابية - عن تعداد السكان بشكل عام، فإمارة الترازة، تعتبر ثاني أكبر إمارة من ناحية الكم الديمغرافي بعد "البراكنة"، وبالتالي فهي حالة وسط بين الإمارات الأربع من جهة عدد السكان، وإن كانت لم تقنعنا بشكل كامل معلومات "أبولي" على غرار سابقه "كاي" حول تعداد السكان، وإن كانت إحصاءات (جورج أبولي) جاءت متأخرة زمانياً عن سابقه "والتأخر أتم نظراً" كما يقال.

إلا أنه أيضاً لا يمكننا إغفال السياق التاريخي، فإحصاء "جورج أبولي" جاء في وقت كانت فيه الإدارة الفرنسية تلمم ما بقي من أوراقها في انتظار ساعة الصفر (1903) لتدق آخر مسمار في نعش النظام الأميري، وكان السكان المحليون والنظام

¹ - للمزيد حول العقالة يرجع إلى:

- محمد المختار ولد السعد ويحيى ولد البراء: ميكانيزمات البنى القبيلة بين الثبات والتغيير من خلال المسألة العقالة، ضمن مصادر دراسات التاريخ الموريتاني الكتاب الأول 1993 (1-61).

² - محمد الأمين سيدي أحمد: مرجع سبق ذكره، ص: 103 نقلاً عن ANS.

الأميري نفسه على وعي بالنوايا الفرنسية، الرامية إلى معرفة المجال وساكنته، وعليه فإن دقة الإحصاء بشكل كامل أمر غير مسلم به، إلا أنه مع ذلك يستأنس به. ويستفيد الزوايا شأنهم في ذلك شأن حسان من الإتوات التي تقدمها الفئات المغلوبة على أمرها، حيث يحصلون على بعض الإتوات (هدايا)، مقابل الحماية الروحية والدينية، وإن كانت هذه الإتوات لها طابع طوعي في أغلب الأحيان¹.

(ب) أصحاب قاعدة الهرم الاجتماعي "الفئات التابعة":

ترجع أصول هذه الفئات كغيرها، إلى أصول عربية وصنهاجية، غير أن ما يميزها أنه ليس لها كيان مستقل، فهي تدور في فلك هذه القبيلة أو تلك، من فئة حسان أو الزوايا، وتستظل بظلمهم مقابل مغرم سنوي (ضريبة الحماية)، ويلعب "التابعون" دورا مهما في الحياة الاقتصادية من خلال النشاطات التقليدية (تربية الماشية، الزراعة..) وأهم شرائح هذه الفئة الاجتماعية اللحمية "أزناكة"² ولمعلمين "الصناع التقليديون" وإيكاون "المطربون" والحراطين العبيد.

(1) اللحمية "أزناكة":

إن منطق القوة الذي طبع البلاد أثناء تشكل المجتمع البيضاني، جعل الحياة للأقوى، والضعيف ليس له إلا التبعية في مؤخرة البنية الاجتماعية، وبما أن سمة الحروب كانت ظاهرة للعيان في مجتمع الأمس المحلي، فإن المنطق يقول إن هذه الحرب تقضي إلى منتصر ومهزوم. فالأول يملئ شروطه، من موقع القوة على الثاني المهزوم المغلوب على أمره، على هذا النحو تشكلت فئة "اللحمية، أزناكة"،

¹ - في مجتمع حسان والزوايا نوع من التوازن في الأدوار والوسائل، فإذا كان حسان يستطيعون أن يصلوا إلى أعدائهم ويأدبهم بحكم فروسياتهم وقوتهم العسكرية، فإن الزوايا أيضا كانت لهم قوتهم التي يستمدونها من عالم الغيب (تازب) وتعني بالمعنى المحلي إلحاق الضرر بالطرف الآخر عن طريق الأمور الإلهية والغيبية، لذلك كان حسان في بعض الأحيان يخشونهم بسبب هذه المسألة كما أن الفئات المغلوب على أمرها كانت تقدم الهدايا "للزوايا" بسبب ادعائهم التحكم في عالم الغيب إما لجلب النفع أو لدفع الضرر.

² - للمزيد حول هذه المجموعة راجع:

- Rachid ould Mohamed, contribution a l'histoire de la Mauritanie statut et condition Serviles dans la société Maures precoloniale mémoire de maitrise Université de Nouakchott 1988.

فهي قد جاءت نتيجة تعرض بعض القبائل للهزيمة على أيدي أخرى فأصبحت تابعة لها.

تشتغل هذه الفئة بالرعي، وأحيانا بالزراعة، وإن كان النشاط الرعوي أكثر انتشارا في صفوفها بحكم طبيعة البلاد الصحراوية الملائمة للرعي أكثر منها للزراعة.

ومع مساهمتها في ديناميكية الاقتصاد، فقد يضطلع بعض أفرادها بأدوار سياسية وعسكرية، إذ كثيرا ما يلجأ الأمراء في أوقات الأزمات إلى فئة التابعين بوصفها قوة احتياطية في الحروب الداخلية والخارجية¹.

(2) الفنانون "إيكاون":

مساهمون في الثقافة الشعبية خصوصا ما يرتبط منها بالفن والموسيقى، تشكل هذه الفئة من أسر محدودة العدد منغلقة في الغالب الأعم على نفسها، فلا يحترف هذه المهنة (الطرب) غيرهم، ويرتبطون بمجموعة حسان، يتغنون بأمجادهم وبطولاتهم في الحرب من خلال فن التهديد²، ويحظون مقابل ذلك بالهدايا من طرف "حسان".

(3) الصناع التقليديون "المعلمين":

المجموعة المشرفة على الصناعة، فعليهم الاعتماد في صناعة مستلزمات الحياة البدوية، وصناعتهم غالبا من الخشب، والحديد والجلود، فمن الخشب يصنعون (السروج، والقداح، وركائز الخيام..) ومن الحديد يصنعون (السكاكين والخناجر والبنادق التقليدية..) وبالجملة هم المعول عليهم في إنتاج ما تحتاجه الأسرة في مجتمع بدوي تقليدي.

¹ - مجدو بن محمّن مرجع سبق ذكره، ص: 288.

² - درب من دروب الفن الشعبي (لغن) اختص بتمجيد الأمراء والمجموعة الحسانية بشكل عام حيث يخلد أمجاد هذه الفئة، وتكمن أهميته التاريخية في أنه يحتفظ في ذاكرته الكثير من الأيام المشهودة التي مرت بالمجتمع في صراعاته البيئية والخارجية للمزيد راجع:

- سيدي أحمد ولد أحمد سالم وآخرون: ديوان الشعر الشعبي، تقديم وتعليق المطبعة الجديدة، نواكشوط، 1996.
- سالك ولد محمد المصطفى: سدوم ولد انجرتو، مجلة الموكب الثقافي، اللجنة الوطنية للثقافة والعلوم، نواكشوط، العدد التاسع 1997.

إن حاجة السكان إلى هذه الفئة، واعتمادهم في حلهم وترحالهم على الأدوات التي تنتجها، لم يشفع لها بالرقى في سلم المجتمع، بل ظلت عناصرها في قاعدة الهرم الاجتماعي، ولم يحظوا بتقدير المجتمع لهم على شاكلة ما حصل لإخوانهم (الصناع التقليديون) في مغرب القرن التاسع عشر¹.

(4) الحراطين:

هي الفئة التي كانت تحت ظل العبودية، وتم عتقها من طرف أسيادها، إما عن طريق المكاتب²، أو ابتغاء الأجر الأخرى، والفرق بين الحراطين والعبيد، أن الفئة الأخيرة لا تمتلك ولا تتزوج إلا بإذن أسيادها فهي تابعة لملاكها حتى في أدق تفاصيل حياتها اليومية.

أما الحراطين فقد انفكوا من قيود العبودية، وصار عندهم نوعا من الاستقلالية الذاتية عن أسيادهم السابقين، وإن عملوا معهم، فبمقابل أجر معلوم حسب المناطق ونوع النشاط الذي يتعاطونه، ففي المناطق الزراعية في منطقة حوض النهر مثلا يعمل أفراد هذه الفئة في زراعة الأرض مقابل نسبة من المحصول (وهو ما يسميه المشرع الإسلامي بـ:"المزارعة")³، أما في مناطق الواحات فيعملون في سقي النخيل مقابل جزء من غلتها (وهو ما يكتنيه الشارع بـ:"المساقات")⁴.

(5) العبيد:

تتموقع هذه الفئة في الدرك الأسفل من الهرم الاجتماعي، وهي أقل عددا من سابقتها - "الحراطين" - بحكم مسار الانعتاق المتواصل، وترجع ظاهرة العبودية إلى تأثير تجارة الرقيق التي طبعت المنطقة الزنجية المتاخمة للحدود الجنوبية للبلاد خلال

¹ - أحمد توفيق المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إبنولتان 1850-1912)، منشورات كلية الآداب الرباط، الطبعة الثانية 1983، ص:252.

² - المكاتب كما في لسان العرب هي أن يكاتب الرجل عبده وأمه على مال ينجمه عليه ويكتب عليه أنه إذا أدى نجومه في كل نجم كذا وكذا فهو حر، فإذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاه لمولاه الذي كاتبه، راجع:

- محمد مكرم منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت (دت) الطبعة الأولى، ج: 1، ص:698.

³ - هي طريقة لاستغلال الأراضي الزراعية ب اشتراك المالك في الاستغلال، ويقسم الناتج بينهما بنسبة يعينها العقد أو العرف، راجع:

- أحمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة (د،ت) ج:1، ص:392.

⁴ - المساقات لغة من السقي، وشرعا معاهدة جائز التصرف مثله على نخل أو كرم مغروس معين مرئي مدة يثمر فيها غالبا من جزء معلوم بينهما من الثمر، راجع:

- محمد عبد الرؤوف، المناوي، التوفيق على مهمات التعاريف تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1990، ص:653.

القرن 17 - 18، فيما يرجع البعض¹ أصولها إلى التجارة الصحراوية التي مكنت المجتمع من اقتناء الكثير منهم، وذلك بفعل حاجة الإنتاج الرعوي الماسة إلى رصيد بشري من هذه المجموعة.

وخلاصة القول أن العلاقة بين الفئات الاجتماعية، فئة الأرسقراطية (حسان، والزوايا) من جهة، والفئات التابعة من جهة أخرى، هي في عمومها علاقة استغلال مفروض بواسطة العنف المادي (الذي يفرضه حسان) أو المعنوي (الذي يمارسه الزوايا).

أما العلاقة بين قطبي الزعامة الاجتماعية (حسان، الزوايا) فقد كانت أكثر تعقيدا، فالحساني صاحب السلطة الزمنية والقوة العسكرية، يشعر دوما بقوته المادية، غير أن هناك عاملا آخر ظل يكبح جماحه، ويحد من تسلطه على الزاوي، وهو ما يعرف محليا ب: (تازبة²) التي حافظت على نوع من توازن القوى بين الطرفين.

ومع هذا، فقد ظلت الفئات الاجتماعية في حركة دائبة، وهجرة مستمرة، بمقتضى الظروف والملابسات التاريخية، بحيث يمكن أن نجد قبائل تتحول من حملة السلاح (حسان)، إلى حملة ألواح (الزوايا)، وهو ما يسمى بالتوبة، وأحيانا نجد القبيلة تنقسم إلى حسان، وزوايا، وقبائل تحمل السلاح بعد أن كانت زاوية أو غارمة³.

رابعاً: البنية الاقتصادية:

ارتبطت البنية الاقتصادية للمجتمع قبل الاحتلال الفرنسي مطلع القرن العشرين بالواقع البيئي، الذي فرضته الجغرافيا، وبالتقسيم الوظيفي الذي فرضه التاريخ، وسنقتصر هنا في حديثنا عن البنية الاقتصادية على الأنشطة الأساسية التي

¹ - ابن صدفن مرجع سبق ذكره، ص: 22.

² - كما سبق وأشرنا تعني الانتقام الإلهي للضعيف الذي لا حول له ولا قوة من القوي المتسلط.

³ - أحمد بن الحسن، مرجع سبق ذكره، ص: 96.

زاولها القوم ردحا من الزمن، قبل أفول النظام الأميري على يد القوات الفرنسية، ولعل من أهم هذه الأنشطة التي سنتناولها بالدراسة (الرعي، والزراعة، والتجارة).

1. الثروة الحيوانية:

إن ندرة المياه السطحية وتذبذب الأمطار، ووقوع البلاد على حافة مجابات الصحراء الكبرى، وتأثير ذلك على المسطحات المائية، أمور من بين أخرى جعلت حياة الرعي والبدواة الضاعنة سمة بارزة في حياة معظم السكان، إذا ما استثنينا المناطق الزراعية الواقعة على ضفة نهر السنغال في الجنوب، أو واحات النخيل في الشمال.

ويخضع توزيع المواشي في البلاد إلى ملائمة الغطاء النباتي، بحيث تكثر الإبل في الشمال لملائمة الظروف الصحراوية لتربيتها، أما في الجنوب حيث وفرة الأشجار والنبات فإن السكان يركزون على تربية الأبقار والأغنام التي تحتاج إلى الماء والكلأ بشكل شبه يومي.

وبفضل الثروة الحيوانية الهائلة التي يمتلكها السكان – إذا ما قورنت بمجموع السكان القليل – حصل تراكم للثروة انعكس بدوره بشكل إيجابي، على الأوضاع الاقتصادية للسكان المحلية آنذاك.

ومن أجل تقريب الصورة عن عدد الثروة الحيوانية يكفي أن نورد ما ذكره Vincent إبان رحلته التي قادته إلى آدرار، مروراً بالترارزة سنة 1860، من أن عدد المواشي التي وردت بئر غسرم¹ لوحده تقدر بحوالي عشرة آلاف من الإبل، وخمسة عشر ألف من الغنم، والكثير من البقر².

ولا تمدنا المصادر المحلية بإحصاءات عن عدد الثروة الحيوانية حتى نعرف مكانتها في اقتصاد القوم، إلا أننا نتوقع أنها كانت قبل الاحتلال الفرنسي أعدادها

¹ - منطقة تبعد حوالي 80 كلم جنوب العاصمة نواكشوط حالياً.

² - Vincent (H) voyage d'exploration dans l'Adrar (Sahara occidental) Revue Algerienne et coloniale 3^{eme} serie n 4 octobre 1860, p449.

كثيرة، ومؤشرات تزايدها في صعود شبه مستمر، وربما لعوامل الاستقرار السياسي النسبي، وملائمة الظروف المناخية، وعائدات التجارة الخارجية، وغياب المجاعات وسنين القحط، دخل في ذلك.

إن إهمال المدونات الوثائقية للتحديد الكمي لعدد المواشي يرتبط في الأساس – حسب اعتقادنا – بطبيعة المجتمع، فهذا الأخير يرفض أغلب أفراده إعطاء معلومات دقيقة عن عدد مواشيه، خوفا من القوى الضارة غير الملموسة "العين، الحسد" ولا يتعلق الأمر بغياب التدوين الإحصائي لوحده، وإنما كذلك بالأبعاد الرمزية والميتولوجية للمسألة¹.

2. النشاط الزراعي:

بحكم مناخ المنطقة الصحراوية، فإن الزراعة ظلت عبر العصور نشاطا ثانويا، ولم تحظ غالبية القوم باتخاذها وسيلة للعيش، وقد مثل البحث عن مصادر التموين بالمواد الغذائية التي تعتبر مكملة للموارد التي يوفرها الإنتاج الحيواني، مظهرا من مظاهر النشاط الزراعي لدى مجتمع ما قبل الاستعمار.

ويتعاطى المزارعون في الغالب نوعين من الزراعة (فيضية، وبعلية)²، فالأولى تعتمد على فيضانات النهر السنوية، ومن أهم محاصيلها الدخن (الزرع)، واللوبيا (أدلكان) والبطيخ (أشركاش) والفاصوليا... وهذا النوع من الزراعة أكثر من النوع الثاني نظرا لاتساع الرقعة الزراعية التي يزرع فيها.

أما النوع الثاني فمرتبط بالأمطار مما يجعله ظرفيا، ويضيق مجاله كلما اتجهنا شمالا لقلّة الأمطار في هذا النطاق من البلاد.

¹ - لا تزال بعض فئات المجتمع لا ترغب في إعطاء معلومات دقيقة عن الأنفس والمواشي خصوصا إذا تعلق الأمر بالحلاب، وقد يصل الأمر إلى إخفاء معلومات الثروة حتى عن أقرب الأقربين راجع:

- محمد المختار بن السعد: إمارة الترازة... مرجع سبق ذكره، ص: 128.

² - يقصد بالبعلية كل شجر أو نخل أو زرع لا يسقى بماء، أي أن صاحبه لا يتحمل مشاق سقيه وإنما تسقيه الأمطار، راجع مشتقات الكلمة في:

- محمد يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج: 1، ص: 1249.

وهناك زراعة الواحات التي تتم تحت النخيل وتوفر منتوجات هامة تتكون أساسا من الشعير والقمح والحناء، وقد ظل النخيل مصدرا اقتصاديا مهما وثروة يعتمد عليها السكان في معاشهم¹.

ويتركز النخيل في شمال البلاد ووسطها، حيث المناخ الصحراوي الملائم لطبيعة النخيل، وقد قدر Vincent عدد النخيل في مدينة أطار² لوحدها بستين ألف نخلة³ وهذا ما يعطينا صورة عن وفرة النخيل بالمنطقة، وإقبال الأهالي على غرسه والاعتناء به، فهو إضافة إلى كونه يستخدم سعفه وجذوعه في بناء المساكن، تمثل ثماره (التمور) مادة مهمة لسكان الصحراء في مأكلمهم، وقرى ضيوفهم.

3. التجارة:

لقد أدى موقع البلاد الجغرافي الهام، وانفتاحها على المجتمعات المجاورة، ودخولها في علاقات تجارية مع الأطراف الخارجية إلى ازدهار القاعدة الاقتصادية وتنوع مصادر دخل الفرد.

فعلى المستوى البيئي كانت عملية التبادل التجاري تحصل عادة بين المنمين والمزارعين عن طريق المقايضة، بحيث يحصل كل طرف على ما يريد، وما تمليه عليه حاجته في محيط يطبعه نوع الحاجة إلى التكافل الاقتصادي، أما على مستوى التجارة الإقليمية فقد كانت البلاد ممرا للقوافل ذات المسافات الطويلة، التي تربط عادة بين الشمال الإفريقي والسودان الغربي، فيما عرف بالتجارة الصحراوية.

ومن أهم المواد التي تتم مبادلتها بين هذه الأطراف وسكان المنطقة (الملح⁴، والذهب، وريش النعام، والعاج، والقماش..).

¹ - سيدي نور الدين، مساهمة في دراسة تاريخ موريتانيا، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1995، ص: 68.

² - أطار عاصمة ولاية آدرار الحالية شمال البلاد.

³ - Vincent... op cit p 482.

⁴ - اضطلعت عدة ممالح بأدوار مهمة في هذه التجارة نذكر منها مملحة "أوليل" التي كان لها دور مهم في التجارة عبر الصحراء في الفترة القروسطية للمزيد راجع:

- أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل صورة الأرض، دار الحياة، بيروت 1978 ص: 91.

- أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر 1857 ص: 171.

ومع الوجود الأوروبي على السواحل في القرن الخامس عشر بدأت التجارة الصحراوية تفقد حيويتها لتحل محلها التجارة الأطلسية، التي أدخلت بضائع جديدة (قماش، أسلحة، بارود، أواني..)، لم تكن معروفة لدى السكان، وصارت في صميم حياتهم اليومية مقابل (الذهب، والعبيد)، وأنشأ الأوروبيون لهذا الغرض مراكز تجارية (آركين، بورتانديك) لتسهيل عملية التواصل مع السكان.

غير أن التجارة مع الأوروبيين ستشهد قفزة نوعية عندما تظهر الرغبة الجامحة لدى هذه الدول في الاستحواذ على تجارة الصمغ (العلك)، الذي بدأ يدخل في الصناعات الأولية الأوروبية (صناعة النسيج، صناعة الأدوية، الحلويات...).

ومن أجل الاستثمار بالمنطقة والسيطرة على مواردها، خاضت الدول الأوروبية (إسبانيا، هولندا، بريطانيا، فرنسا)، سلسلة حروب فيما بينها كان أهمها حروب الصمغ،¹ - كما سنرى لاحقا - أسفرت في النهاية عن ترسيخ النفوذ الفرنسي وإبعاد الدول الأوروبية الأخرى من حلبة الصراع.

وقد أشرف النظام الأميري على تقنين التجارة مع الأوروبيين، مستغلا التناقض الحاصل بين هذه الدول في تنويع علاقاته التجارية، وفرض المزيد من الإتوات والضرائب مقابل الإشراف على تنظيم التجارة، ولإن كانت هذه الإتوات قد رسخت النفوذ الأميري وعادت عليه بكثير من الفوائد، فإنها ستعرف تراجعا ملحوظا خلال القرن التاسع عشر، خصوصا بعد حرب الترازرة مع الوالي الفرنسي على السنغال "فيدرب"، وهي الحرب التي توجت بتوقيع معاهدة 1858/5/20، التي تنص على إلغاء الامتيازات الثابتة التي كانت تدفعها السلطات الفرنسية للأمرء

¹ - تميزت هذه الحرب بثلاث مراحل - كما سنرى لاحقا - الأولى بين 1717-1720 بين هولندا وفرنسا وبريطانيا، والثانية 1721-1727 بين فرنسا وهولندا، والثالثة 1728-1740 بين فرنسا وإنجلترا

مقابل تأمين تجارة العلك، وتعويض هذه الامتيازات بنسبة 3% فقط من كمية الصمغ المباعة¹.

ولعل الخلاصة التي يمكننا الخروج بها دون مجازفة هي أن البلاد وجدت بها ثروة حيوانية كبيرة خلال الفترة السابقة على الاستعمار الفرنسي المباشر، وعليها ارتكز قوام الناس المادي سواء من حيث المعاش أو المسكن أو النقل، كما شكلت لها أداة ادخار، وميدان الاستثمار الأساسي الذي تنصب فيه في نهاية المطاف معظم الأنشطة الإنتاجية الأخرى.

وإذا كان وجود نوع من الاستقرار السياسي ومدد مهم من اليد العاملة قد شجعا التوسع الزراعي، فإن المردودية ظلت في عمومها محدودة بسبب بدائية وسائل الاستغلال (الفأس، المنجل) وتذبذبات الأمطار، وعدم وجود منشآت (سدود) للتحكم في المياه.

أما التجارة مع الأطراف الخارجية – الأوروبيين خصوصا – فإنها لم تؤدي إلى ازدهار الاقتصاد التقليدي المحلي، وإنما كانت لها انعكاسات سلبية بصفة عامة على هذا الأخير، فالمواد التي يقدمها الأوروبيون جعلت السكان يرتبطون بها، وأصبحت بالتالي ضرورة لا غنى عنها في حياتهم، وعليه فإن المنمي والمزارع البسيطان أصبحا مرغمين على بيع جزء من ثروتهما لاقتناء هذه المواد، بدل أن كانت الحياة عندهم تعتمد على ما تنتجه البيئة المحلية، ولم تقتصر التجارة مع الأوروبيين على تبعية الاقتصاد لهم، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك عندما تم ربط السلطة التقليدية بالسلطة الاستعمارية، مما كان له الانعكاس السلبي على استمرارية النظام الأميري.

¹ - محمد الراطي، مرجع سبق ذكره، ص: 42.

الفصل الثاني: الوجود الأوروبي في المنطقة

لا تزال مسألة الحضور الأوروبي فيما يعرف اليوم بموريتانيا، وإفريقيا الغربية بصورة عامة، تمثل جدلاً بين المؤرخين. فإذا كان الفرنسيون يدعون سبق في اكتشاف تلك الشواطئ العذراء خلال القرن الرابع عشر الميلادي، بحجة أن تجار منطقة ادبيب (Le dieppois) وصلوا إلى ميناء ادبيب سنة 1364 محملين سفنهم بمادة الصمغ العربي الموجود بكثرة في منطقة الساحل الموريتاني¹، فإننا لا نجد ما يدعم هذا الإدعاء، فأغلب المراجع² تجمع على أن البرتغاليين كانوا أول من وطئ من الأوربيين المنطقة.

ولا يبتعد المختار بن حامدون³ عن هذا الاتجاه عندما يعتبر أن البرتغاليين أول من وصل إلى السواحل الموريتانية من الأوربيين سنة 1444 وأسسوا مركزاً تجارياً في جزيرة آركين⁴ سنة 1445⁵، والذي سيشهد صراعاً أوروبياً مريراً للسيطرة عليه.

¹ - السيد ولد اباه وآخرون: موريتانيا الثقافة والدولة والمجتمع، مرجع سبق ذكره، ص:70.
² - بخصوص المراجع التي تتحدث عن الوجود الأوروبي في البلاد، راجع الفصل الأول من هذا الباب.
³ - عالم ومؤرخ موريتاني، شغل مناصب في الحكومة الموريتانية، ألف عدة كتب عن التاريخ الموريتاني لم ينشر منها إلا القليل ومعظمها مرقون في المعهد الموريتاني للبحث العلمي، توفي تسعينيات القرن العشرين في المملكة العربية السعودية.
⁴ - تبعد 130 كلم إلى الجنوب من العاصمة الاقتصادية نواذيبو.
⁵ - المختار بن حامدون، مرجع سبق ذكره، ص:64.

أولاً: الأوروبيون والصراع على المنطقة

حاول البرتغاليون من خلال محطة آرकिन بسط نفوذهم على السواحل الموريتانية والمناطق الداخلية بغية السيطرة على طرق القوافل الممتدة من جنوب المغرب إلى بلاد السودان الغربي، عبر الأراضي الموريتانية، ومن ثم تحويل مسالك التجارة إلى المحيط الأطلسي¹.

ولعل من الأسباب التي جعلت البرتغال تسبق غيرها من الدول الأوروبية في ارتياد هذه البلاد البعيدة عنها نسبياً؛ حالة الاستقرار السياسي الذي كانت تتمتع به خلال القرن الخامس عشر، عكس ما عليه الحال بالنسبة للدول الأوروبية الأخرى المشغولة بمشاكلها الداخلية، هذا بالإضافة إلى السياسة التي اتبعتها هانري الملاح² المتمثلة في جمع مختلف المعلومات الجغرافية والملاحية، وبناء السفن، ودعم العلماء الجغرافيين..

وكنتيجة لهذه الأسباب السالفة وغيرها، كانت البرتغال ونظيراتها من الدول الأوروبية تجوب البحار في تنافس محموم على الملاحة البحرية واكتشاف المزيد من المناطق الجغرافية، كما اضطلعت السياسة التوسعية الأوروبية بدور مهم في إنكفاء تلك المنافسة بحثاً عن الأسواق التجارية.

وخلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر وطّد البرتغاليون نفوذهم على عموم السواحل الموريتانية، وأقاموا مراكز تجارية في بعض المناطق الداخلية³، غير أن انهيار امبراطوريتهم جعل المناطق التي كانت تابعة لها تتحول إلى ملكية إسبانيا عام 1580⁴، وإن كان استمتاعها بهذه الأملاك لم يدم طويلاً، فسرعان ما بدأت مضايقة الدول الأوروبية الأخرى تظهر جلية، لتتحول شواطئ الأطلسي إلى منطقة صراع بين هذه الدول.

¹ - سعد خليل: مرجع سبق ذكره، ص: 186.

² - أحد الأمراء البرتغاليين الذين كانوا مولعين بالبحر، عاش ما بين 1394-1460 اشتهر بتشجيع الكشوفات الجغرافية.

³ - محمد المختار ولد سيد محمد: النضال الوطني، مرجع سبق ذكره، ص: 35.

⁴ - نفس المرجع والصفحة.

فقد استطاع الفرنسيون انتزاع جزيرة "أركين" من الإسبان قبل أن يتلذذوا بنشوة الظفر بها، ثم تحولت السيطرة عليها للهولنديين سنة 1638 الذين انسحبوا منها تحت الضغط الإنجليزي¹، وأسسوا ميناء جديد هو بورتانديك².
لم يسلم المركز الجديد من الصراع الأوربي المرير، فقد دخل الإنجليز ثم الفرنسيون في صراع مع الهولنديين للسيطرة عليه، ثم انسحب الهولنديون بموجب اتفاقية لاهاي 1727، وظل الصراع بين إنجلترا وفرنسا محتدماً، حتى استطاعت هذه الأخيرة الانفراد بالمنطقة بعد ما أسست مركز سان لويس التجاري عند مصب نهر السنغال³.

من هنا استطاعت فرنسا كسب الصراع والاستئثار بالسيطرة على المراكز التجارية الأكثر إستراتيجية في المنطقة، والوقوف أمام أي منافس من شأنه أن يعرق التوجهات والأطماع الفرنسية.

وعموماً فقد شهدت المنطقة منافسة حادة بين الدول الأوربية أفضت إلى نشوب حروب عرفت بـ: "حروب العلك" والتي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحل:
المرحلة الأولى : من 1717 - 1720 حاول فيها الفرنسيون عزل التجار الإنجليز والهولنديين من أركين⁴، ومحاولة التشويش على علاقاتهم المتينة آنذاك مع البيضان، الأمر الذي دفع فرنسا إلى القيام بمحاولات قوية استهدفت الاستيلاء على مركز أركين بورتانديك بغية احتكار تجارة الصمغ، وإبعاد الهولنديين والإنجليز عن المنطقة، لما يمثله وجودها هاتين الدولتين من ضرر على المصالح الفرنسية⁵.

¹ - محمد الأمين سيدي أحمد: مرجع سبق ذكره، ص: 12.

² - على بعد 30 كلم شمال العاصمة، وتعني التسمية بالهولندية ميناء هدى نسبة إلى الأمير التروزي هدي بن دمان.

³ - ددود بن عبد الله: الإسلام والمجتمع في إفريقيا الغربية خلال القرنين 17-18، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد 2، سنة: 1990، ص: 10.

⁴ - محطة تجارية على ساحل المحيط، راجع الفصل الأول.

⁵ - عمر بن حامد، مرجع سبق ذكره، ص: 21.

ومن أهم المحاولات الفرنسية لتطويق أمراء البيضان بجملة من المعاهدات - تضمن من خلال ولائهم وعدم التعاقد مع الدول الأوروبية الأخرى، خصوصا الجانب البريطاني والهولندي الذين لهم حضور في المنطقة - تلك التي قام بها الوالي الفرنسي، مع الأمير التروزي أعلي شنظورة سنة 1717، والتي تم بموجبها منح فرنسا حرية التجارة على الساحل الممتد من مصب النهر باتجاه الشمال، مقابل بعض الامتيازات يدفعها الجانب الفرنسي.

ورغم أهمية هذه المعاهدة في رسم خارطة العلاقة مع أمراء المنطقة، ودورها في تخفيف منسوب هيجان المنافسة الفرنسية مع الدول الأوروبية الأخرى، إلا أنها لم تقض على الوجود الإنجليزي والهندي المتزايد، وبالتالي ظلت مرحلة أخرى من التنافس الأوربي تلوح في الأفق.

المرحلة الثانية : بدأت هذه المرحلة مع حملة فرنسا على آركين سنة 1721¹، التي مكنت الفرنسيين من السيطرة على هذا المركز التجاري الهام، سيطرة لم يكتب لها الاستمرار والقضاء الكامل على النفوذ الهولندي، لذلك فإن الهولنديين بادروا إلى إنشاء مرسى آخر غير بعيد من محطة آركين عرف بـ: "بورتانتيك"².

لم تتمكن الحملة الفرنسية السالفة الذكر من القضاء على النفوذ الهولندي، وإخلاء الساحة التجارية في محطة آركين لفرنسا، لذا بادرت هذه الأخيرة إلى إرسال حملة عسكرية أخرى سنة 1722³، ولم تكن حظوظها بأوفر من سابقتها.

علم الفرنسيون أن الخيار العسكري من الصعب أن يحقق نتائج ملموسة، خصوصا في تلك الظرفية التي تشهد تقارب بيضاني هولندي، فغيرت سياستها إلى سياسة الحوار والتفاوض، فسعت إلى إحياء معاهدة أعلي شنظورة 1721، واستمالت الجانب الهولندي من أجل التنازل عن هذه المحطة التجارية.

¹ - عيشة بنت أحمد سالم: تجارة العلك، مرجع سبق ذكره، ص:43.

² - راجع الفصل الأول.

³ - عمر بن حامد، مرجع سبق ذكره، ص:22.

وعلى إثر عدم تحقق نتائج ملموسة على الأرض؛ قامت فرنسا – التي لم تكن راغبة في استعمال القوة خلال تلك الفترة على الأقل – بالهجوم على "أركين، وبورتانتيك" معلنين الحرب على تحالف البيضان والهولنديين.

وبعد عدة معارك تمكنوا من السيطرة على بورتانتيك، ولكنهم فشلوا في انتزاع أركين، مع أنهم حاولوا افكك التحالف البيضاني الهولندي، عن طريق عرض تقديم مساعدات مهمة للأمير التروزي أعلي شنظورة في حربه ضد إمارة لبراكنة، إضافة إلى التزام الجانب الفرنسي بدفع كميات محددة من الضرائب العرفية، مقابل التخلي عن دعم الهولنديين¹.

استمر الصراع الفرنسي الهولندي طيلة عشرينيات القرن الثامن عشر، وقد امتازت الفترة الممتدة من 1724-1727 بحدة الصراع وقوته، حيث شهدت عدة اشتباكات لم يتم حسمها إلا بمعاهدة لاهاي في 13 يناير 1727 بين فرنسا وهولندا والتي كان من أهم بنودها:

- تنازل الهولنديون عن جزيرة أركين.
- انفراد فرنسا بالتجارة على السواحل.
- تنازل فرنسا عن المطالبة بتعويض الأضرار الناجمة عن الحملات السابقة.
- دفع فرنسا تعويضات مالية للهولنديين².

غير أن انفراد فرنسا بالتجارة على السواحل – كما في أحد بنود هذه الاتفاقية – لم يرق للإنجليز، الذين تربطهم علاقات تجارية قوية مع البيضان، غداها رغبتهم في الحصول على مادة الصمغ الضرورية لتحريك عجلة

¹ - محمد بن المختار: مقومات الاستقرار، مرجع سبق ذكره، ص:38.

² - محمد المختار ولد السعد: مرجع سبق ذكره، ص:468.

اقتصادهم النسيجي المتطور آنذاك، وهذا ما أدى إلى ظهور المرحلة الثالثة من حروب الصمغ "العلك".

المرحلة الثالثة: بعد التفوق الذي أحرزته فرنسا على هولندا، وظهر الأولى كمنافس قوي في المنطقة، وبعدها ظهرت السفن الحربية الإنجليزية تجوب السواحل كدليل على التذمر وعدم الرضى بهذا الوضع، بدأت الأمور تتعقد وتسير نحو الأسوء بين فرنسا وإنجلترا.

فالجانب الفرنسي عازم على الانفراد بالمنطقة وإبعاد المنافسين الآخرين، والإنجليز يرون أن لديهم حق الاتجار مع البيضان كما هو بالنسبة للفرنسيين، في هذا الجو، حصلت اشتباكات بين الطرفين استعملت فيها إنجلترا سفنها الحربية، مما جعل فرنسا ترفع شكوى إلى الحكومة الإنجليزية، التي كان ردها قاسيا حيث جاء فيه: "إننا لم نهاجم وإنما كان هجوما دفاعا، كما أننا نتجاهل الأسس القانونية التي من ورائها تزعم فرنسا الإنفراد بالتجارة في المنطقة، وإنجلترا تعتبر أن المنطقة حرة لها فيها نفس الحقوق كما للفرنسيين"¹.

ظل الأمر على حاله المتأزم، وتعددت الاشتباكات بين الطرفين إلى غاية 1740 حيث تم توقيع معاهدة، تم بموجبها التخلي عن استعمال القوة، مقابل توفير فرنسا لإنجلترا حاجتها من الصمغ، على أن توفر إنجلترا حاجات فرنسا من العبيد². وإذا كانت هذه المعاهدة، قد سدت باب الخلافات بين الطرفين، فإن تلك الخلافات سرعان ما عادت من جديد، بسبب كساد تجارة الرقيق، وحاجة الصناعة الإنجليزية إلى كميات هائلة من الصمغ، وهو ما لم تكن فرنسا مستعدة له آنذاك، حيث كان شغلها الشاغل هو كيف سيتم لها الإنفراد بالمنطقة؟ وبالتالي تكون السيد الأمر الناهي بلا منازع.

¹ - عيشة بنت أحمد سالم: تجارة العلك، مرجع سبق ذكره، ص: 28.

² - عمر بن حامد، مرجع سابق، ص: 25.

ثانيا: فرنسا وطريق السيادة على المنطقة

حاولت فرنسا جاهدة الاستئثار بالبلاد إما عن طريق المعاهدات التي عقدتها مع القادة المحليين أو عن طريق التلويح بالقوة أحيانا أخرى، بل واستعمالها إن اقتضت الضرورة ذلك، و ما يمكن فهمه من ذلك - دون عناء - هو أن فرنسا إلى حد تلك الساعة كانت عازمة على الاستحواذ على المنطقة، وإبعاد أي منافس آخر، مهما كلفها ذلك.

كانت أولى الاتفاقيات التي عقدتها فرنسا مع السكان المحليين تلك التي عقدها الأمير أعلي شنظورة (1703-1727) مع مدير شركة الهند الشرقية في السنغال سنة 1717 التزم الأمير بموجبها عن أي نشاط تجاري مع الأطراف الأوربية، كما تعهد بحماية المصالح التجارية الفرنسية، من جانبه تعهد الطرف الفرنسي بإحضار ما يلزم من سفن وبضائع سنويا إلى بورتانتيك، وتسديد ضرائب وهدايا إلى أعلي شنظورة اعتيادية، وشراء العلك من القوافل بأثمانه المناسبة¹.

وعلى ما يبدو من خلال المعلومات التي بين أيدينا فإن هذه الاتفاقية ظلت يلاحقها "وقف التنفيذ" ويرجع ذلك من الأساس إلى عدم جاهزية الطرفين إلى تطبيقها، ففي حين يرى الجانب الفرنسي في السنغال أنها مجحفة ويطالب الأوساط العسكرية والسياسية بالتدخل لفرض شروط أكثر مرونة وخدمة لمصالحه الاقتصادية، بينما يرى الجانب البيضاني - وأمام تقاعس الجانب الفرنسي - أن هذا الأخير إنما يحاول كسب الوقت وإبعاد شبح المنافسة من طريقه.

لم يمض وقت طويل حتى كانت حملة فرنسية تستعد للاستيلاء على محطتي آركين، وبورتانتيك، ومع أن رئيس محطة بورتانتيك² أعلن رفضه للوجود الفرنسي

¹ - سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص:196.

² - يسمى بوعالي بن بوبكر ممثلا للأمير التروزي أعلي شنظورة.

إلا أنه في النهاية وتحت الضغط، وقع اتفاقية في 6 مارس 1723 والتي صادق عليها الأمير أعلي شنظورة فيما بعد¹.

ومن شأن تلمس الحالة العامة التي اكتتفت الاتفاق بين الطرفين أن نرى من خلالها مدى التنافر الحاصل بينهما في الدوافع، والمقاصد والمآرب، فالجانب الفرنسي لم يتمكن من استرجاع مدينة "سان لويس" وتوابعها من الإنجليز إلا بموجب اتفاقية افينا 9 يونيو 1815 التي اشترط الإنجليز فيها تخلي فرنسا عن تجارة الرقيق.

ومن جهة أخرى فإن الخسارة التي سببها فقدان الصناعة في المراكز الفرنسية بالهند، وما لحقها من خراب بمزارع الأنتيل بعد ثورة عبيد سنت دومنيك سنة 1804، كلها عوامل جعلت فرنسا تحاول أن تجد متنفسا يسعف ميزانيتها المنهكة، ويعوض عن تجارة العلك التي مثلت القاعدة الاقتصادية لمركز سان لويس الفرنسي، وكان الحل في نظر الفرنسيين هو بناء مزارع الفول السوداني عن طريق الاستحواذ على "الو" والمناطق المجاورة لها.

أما على المستوى المحلي فقد كانت إمارة الترارزه تهيمن على مملكة "الو" ولها حضور في جارتها الجنوبية والشرقية "كايور، ودليولوف"²، وبالتالي فإن أي وجود أجنبي في مصب نهر السنغال كان بالضرورة سيصطدم بالنفوذ التروزي، وفي الوقت نفسه، كانت الإمارة تشهد أزمة خلافة؛ ناجمة عن انتقال السلطة من الفرع الأكبر من أبناء أعلي شنظورة إلى الفرع الأصغر، ولم تكن فرنسا بعيدة عن هذه الانقسامات الناجمة عن صراع العصبية الخاصة، مما ولد لها حقا في نفوس الكثيرين من أبناء الترارزه.

¹ - محمد المختار بن السعد: إمارة الترارزه، مرجع سبق ذكره، ص: 468.
² - أرنست بريني، ملاحظات بشأن النزاعات التي جرت بين مستعمرة السنغال وأمر بن المختار ملك الترارزه، من 1819-1829، ترجمة محمد المختار بن السعد، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد الخامس، ص: 64.

شرع الوالي الفرنسي على السنغال "اشمالنز Schmaltz"¹، فور استعادة فرنسا لمركز "سان لويس" في صياغة مشروع للمستعمرة الزراعية في السنغال، طبقا للتعليمات التي كانت تتوافد عليه تبعا من باريس، والهادفة إلى ملائمة الحضور الفرنسي بالمنطقة مع المتطلبات الجديدة المتولدة من حظر الرقيق عبر المحيط، وخسارة فرنسا زراعاتها المدارية في جزر الأنتيل.

كانت التعليمات الفرنسية تقضي بالتقارب مع زعماء المنطقة (المامي يوسف²، أحمدو ولد اعلي³، وامحمد بن اعلي الكوري⁴) من أجل تضيق الخناق على الترارزه وحملها على التخلي عن "الو".

وهكذا تمكن اشمالنز من عقد اتفاقية تعاون مع هذه الأطراف في 8 مايو 1819⁵، مما زاد من غضب أمير الترارزه فأعلن الحرب على "الو" والفرنسيين الذين يقفون خلف مشروع انفصالها، ففي أغسطس 1819 أغار التروزيون ومن تحالف معهم – البراكنة، وأهل فوته – على "الو" فقتل أو جرح كل زعمائها، ودمرت كل قراها إلا ثلاث أو أربع أسعفتها السفن الحربية الفرنسية، أما باقي السكان فقد قتلوا، أو سرّوا، أو استرقوا⁶.

ولم تهدأ وتيرة التوتر بين الطرفين إلا عندما عزلت فرنسا واليها على السنغال الكولنيل أشمالنز وأبدلته بالرائد "الكوبي Le coupe"⁷ الطامح حينها إلى تحقيق السلام مع المجموعات البيضانية، وقد عزز طموحاته هذه بتقريب لبراكنة عن

¹ - جليان شمالتز 1769-1827 عين في 25 ابريل 1816 واليا على السنغال وتوابعها، كان أحد الناجين القلائل من غرق سفينة La Meduse في يوليو 1816 على ساحل أركين، ظل يدير مستعمرة السنغال حتى 3 يوليو 1820.

² - تصحيف لتسمية الإمام، وهو لقب لملوك الدولة المامية، بعد نجاح الثورة ضد الوثنيين من فوتاتورو في بداية الربع الأخير من القرن 18 راجع السعد: إمارة الترارزه، مرجع سبق ذكره، ص: 761.

³ - أمير إمارة لبراكنة المجاورة للترارزه والمتصارعة معها في بعض الأحيان على النفوذ في المنطقة.

⁴ - أحد المنشقين على الإمارة والمطالبين بكرسيها ابتداء من سنة 1810، وكان مدعوما من طرف قبيلة أولاد دامان.

⁵ - أرنست بريني: مصدر سبق ذكره، ص: 66.

⁶ - المصدر السابق، ص: 71.

⁷ - لكوبي: رائد بحري تولي تسيير مستعمرة السنغال من 3 يوليو 1820 إلى 26 يوليو 1821 وقد وقعت في عهد معاهدة 7 يوليو 1821 للسلام بينه والترارزه، والتي أنهت حرب الاستعمار الزراعي الأولى.

طريق فتح محطاتها التجارية على النهر، والتي كانت قد تم إغلاقها في عهد سلفه أشمالتز، وربما كان غرض الرائد لكوبي من رواء ذلك - حسب اعتقادنا - تفكيك التحالف الذي عقده أمراء لبراكنة مع الترازه، والضغط على هذه الأخيرة من أجل عقد معاهدة سلام مع فرنسا.

ويبدو أن تخمينات الوالي الجديدة لم تخب، فما كادت تتغير نظرة فرنسا للترازة حتى تغيرت معها وجهة النظر التروزية حيال الموقف، كان الطرفان إذن يسعى كل واحد منهما إلى مخرج ينهي أزمة الحرب، ويحفظ ماء الوجه، ويوقف الخسائر المادية والبشرية من كلا الجانبين.

توجت المفاوضات بعقد اتفاقية 7 يونيو 1821 والتي نصت بنودها الأساسية على ما يلي:

- 1- يعترف قائد مستعمرة السنغال بحقوق الترازة على "الو" ويمنحهم مقابل ذلك الحق، ضريبة عرفية جديدة.
- 2- يتنازل الأمير التروزي أعمر مقابل تلك الضريبة عن كل أراضي الضفتين ويضمن حيازتها وحمائتها من الجميع.
- 3- امتناع البيضان مستقبلا عن الإقدام على أي غزو أو نهب بأرض "الو".
- 4- يكون قائد السنغال وسيط سلام بين البيضان وأهل الو، الذين يجب عليهم الاستمرار في دفع المغارم المترتبة للبيضان عليهم¹.

ومن خلال البنود الأساسية لهذه الاتفاقية، فإننا نعتقد أنها في أغلب جوانبها كانت نصرا دبلوماسيا للترازة، فقد تم الاعتراف الصريح من فرنسا بالحقوق الكاملة للترازة على مملكة الو، ومنحت ضريبة عرفية عوضا عن هذه الحقوق، كما تم فتح المحطات التجارية على النهر، التي أقدمت فرنسا على إغلاقها بسبب حالة الحرب، وعليه فإن الترازه - وهي الحلقة الأضعف في

¹ - أرست، مصدر سبق ذكره، ص:71.

الصراع – لم تخسر عسكريا عن طريق حسم المعركة ميدانيا، ولم تخسر "والو" التي ناضلت عن تبعيتها وكانت السبب المباشر لتوتر علاقة الطرفين، ولم تخسر كذلك اقتصاديا، فقد شرع في فتح المحطات التجارية، وبالتالي فإن مجرد عدم الخسارة في نظرنا يعتبر نصرا في هذه الحالة.

أما الجانب الفرنسي فإنه هو الآخر قد حقق مكاسب مهمة بالنسبة له، فقد استطاع – حسب البند الثالث – من إنهاء عمليات النهب والسطو التي كانت تقوم بها المجموعات البيضانية على الشعوب السوداء في الجانب الأيسر من نهر السنغال، وكأن فرنسا كانت تضع نصب أعينها مقولة "إن الشعوب التي لا تعيش حالة استقرار لا تستطيع أن تنتج"، وفرنسا بحاجة في ذلك الوقت إلى مستعمرات منتجة لتعويض الأضرار اللاحقة بميزانيتها كما سبق وأن ألمحنا.

من جهة أخرى فإن فرنسا قد حصلت بناء على البند الثاني من الاتفاقية على الأراضي الكافية لإقامة مشاريع الاستعمار الزراعي التي تعترم القيام بها، وقد نصت الفقرة الثانية من هذا البند – البند الثاني – "وتضمن "الترارزه" حيازتها وحمايتها من الجميع"، وهذا يعني أنه إذا أقدم أحد الأطراف على مهاجمة المنطقة محل الاتفاق، فإن الترارزة عليها أن تردده بالقوة حتى ولو كان حليفا لها، وهو ما قد ينجم عنه وقوعها في حرج سياسي وعسكري أمام أحد أصدقائها المقربين.

وإذا كانت فرنسا والمجموعة البيضانية قد استطاعوا التوصل إلى تسوية وغلق باب مرحلة من الصراعات، فإن هذه المعاهدة سرعان ما تقطعت عراها على صخرة أطماع الطرفين، فالوالي الفرنسي على السنغال عندما أقدم على توقيع اتفاقية 7 يونيو 1821 أبرم في نفس الوقت اتفاقية سرية مع ابن عم الأمير التروزي، الأمير محمد فال بن عمير¹ النافذ وقتها، أما الترارزه فإنهم نتيجة لما لمسوه من فوائد جراء

¹ - هو محمد فال بن عمير بن سيدي المختار بن الشرقي بن هدي بن أحمد بن دامن، كان يتمتع بنفوذ كبير داخل إمارة الترارزة وأحد المقربين من أمير بن المختار، استغلت فرنسا نفوذه السياسي والعسكري فعدت معه اتفاقية سرية تقضي بأن يحصل على نفس الامتيازات والهدايا التي يحصل عليها الأمير، مقابل منع التعامل مع الإنجليز.

تعاملهم مع الإنجليز على ساحل المحيط، اتهموا الجانب الفرنسي بأنه تنكر لبنود معاهدة 1821 عندما تعاقد مع ابن عمير، واعتبر الأمير التروزي أن هذا سببا كافيا لقطع الصلة بفرنسا ومد خيوط الاتصال مع الإنجليز، مستفيدا من التناقض الحاصل بين الدول الأوروبية، لكسب المزيد من التنازلات.

بيد أن الوالي الفرنسي على السنغال روجي Roger¹ ما كاد يستلم حقائب منصبه حتى بدأت الضغوط عليه من قبل التجار الفرنسيين – أكبر متضرر من الحرب – فقد توقفت تجارتهم بشكل شبه كامل، وإذا حاولوا تسيير قوافل خلسة فإنها تتعرض لنهب قبائل البيضان، وتحت ضغط التجار الأنف الذكر اقترح "روجي" على الحكومة الفرنسية التدخل وإبلاغ إنجلترا بضرورة توقف التجارة في بورتانتيك لمدة سنتين، غير أن الإنجليز اشترطوا لقبول هذا الاقتراح موافقة فرنسا على سلفة سنوية قدرها أربعون ألف فرنك لتعوض بها الهدايا التي كانت تعطيها للقبايل البيضانية لجذبهم إلى ميناء بورتانتيك².

ولم تسلم العلاقات البركنية – الفرنسية هي الأخرى من حالات المد والجزر على غرار ما حصل مع الترارزه، فأحيانا يصفو جوها، وأحيابين كثيرة تعكرها سياسات الطرفين المتناقضة، فالحاكم الفرنسي على السنغال يعترف لوزير البحرية الفرنسية بأنه من أجل كسب صداقة أمير البراكنه وضمان ولائه، لا بد من تقديم الهدايا والعطايا الجزيلة له³.

هكذا كان أمراء البراكنة يرون الوجود الفرنسي، فهو وجود عليه أن يخدم مصالحهم ونفوذهم، فإذا تخلى الجانب الفرنسي عن تقديم الامتيازات المهمة لتدعيم

في محطة بورتانتيك، وذلك عن طريق إقناع الأمير وحمله على التخلي عن التعامل مع الإنجليز المرابطين على الساحل، أو عن طريق نهب القوافل القادمة إلى بورتانتيك حتى يتم صرف التجار عن هذه المحطة، وقد توفي وهو يفي بتعهداته للفرنسيين رفقة ثلاثة من معاونيه على يد الإبن الأكبر للأمير إبراهيم والد بن أمير بن المختار في شهر مارس 1822 قبالة بورتانتيك.

¹ - خلف الرائد لكوبي على مستعمرة السنغال، كان في الأصل محامي، ثم تقادفته أمواج السياسة حتى صار واليا على السنغال من 26 يوليو 1821 إلى 4 مارس 1827.

² - محمد عبد الرحمن بن عمار، مرجع سبق ذكره، ص: 29.

³ - المرجع السابق، ص: 30.

قاعدة النظام الأميري، فإن أوراق التحالفات معرضة في أي لحظة للترتيب من جديد، حتى مع خصوم فرنسا، ولا أدل على ذلك من التحالف البركني التروزي ضد الاستعمار الزراعي.

أما على مستوى إمارة إدوعيش فإن حظها من اهتمام الفرنسيين كان أقل بالمقارنة مع سابقتها (اترارزة، لبراكنة) بحكم موقعيهما الجغرافي، ومع ذلك فقد سعى الفرنسيون إلى ربط علاقاتهم مع إمارة إدوعيش توجت بتنازل الأخيرة عن محطة باكل¹ للفرنسيين كانت أساسا لمركز تجاري أسسوه في ذلك المكان².

وأمام فشل الفرنسيين في الاستحواذ على إمارة البراكنة، وتفويض نفوذ الترارزة في الممالك السودانية، وأمام ما لحقهم من خسائر مادية وبشرية، وعدم الاستقرار الذي أعاق التجارة في المنطقة، بدأ الفرنسيون يفكرون في إستراتيجية جديدة تجاه البيضان.

وفي هذا الإطار عرض أرست بريني³ على الوالي الفرنسي - كما جاء في تقريره المؤرخ ب 10 مايو 1828 - خيارين الأول يقضي باستعمال القوة المفرطة حتى القضاء على أمير الترارزه الواقف في وجه سياستهم الإقليمية حيث جاء في التقرير "...نعتقد أخيرا أنه إذا كان أعمار لا يريد إطلاقا التنازل عن أي شيء من مطامحه، فإنه لم يبق إلا أن نفرض بالقوة ما كان علينا أن نحصل عليه بالتفاوض وعندما نصل إلى هذا المستوى من الحزم، يجب أن نعبئ له - وبكل الوسائل - أهل والو وأنصار المختار من البيضان، ونحرص على إيجاد سرية خيالة جيدة بالسنغال لتعزيزهم بها، ونعبئ أعداء آخرين ضد "أعمار أمير الترارزه" .. ونحشد أكبر عدد من السفن الحربية على النهر لاعتراض قوافل الزرع، كما يجب أن نهدم قرى

¹ - محطة على النهر ساهمت بشكل كبير في المبادلات التجارية بين البيضان والفرنسيين.

² - الرائد جيليه: التوغل في موريتانيا اكتشاف، استكشاف، تعريب: محمد بن حمينا، الدار البيضاء، ط:1، الكويت 2007، ص: 67.

³ - مفتش مزارع، وقد أشرف على تنفيذ مشروع الاستعمار الزراعي في مرحلته الأولى، وأحالفنا في ثنايا هذا الفصل لتقريره إلى الوالي الفرنسي، وكان قد عربه الأستاذ محمد المختار ولد السعد.

كينار¹... وأن لا نسعى بوجه خاص – كما حصل في السابق – إلى تحقيق السلام عن طريق تنازلات مهينة وباهظة في التكاليف لا يمكن حصر عواقبها².

أما الخيار الآخر فهو خيار المفاوضات عن طريق الحوار "... وهكذا تتجلى مع الزمن مساوئ سياستها، فالتجارة بحاجة إلى السلام كما يقال، واعتقدنا على الدوام أنه يترتب علينا تحقيقه بأي ثمن كان..."³.

نلاحظ مما سبق تضارب الآراء داخل الأوساط السياسية الفرنسية في السنغال حيال الموقفين، ومع ذلك فإن خيار المفاوضات الذي تبناه الوالي الفرنسي ودعمه وزير المستعمرات كان أقرب إلى التطبيق، فبعد مفاوضات مضمينة تم الاتفاق سنة 1829 على اتفاقية سلام تؤكد استمرارية العمل باتفاقية 1821 التي تعترف بحقوق البيضان على "والو"، كما اعتذر الفرنسيون عن الأعمال العدائية التي قاموا بها، وتعهدوا بعدم دعم الأطراف المنشقة كما حصل مع محمد بن عمير⁴، واهمد بن اعلي الكوري⁵، الخارجان على الأمير⁶.

وفي نفس العام تم اعتلاء محمد لحبيب لعرش إمارة التراززة (1829-1860) وكان الأمير الشاب شديد الحرص على تدعيم ملك أسلافه في الضفة اليسرى للنهر، فحاول ربط علاقات اجتماعية بينه وبين مملكة "والو"، عن طريق الزواج من "جنبت" أخت أمير هذه المملكة⁷، ولم يكن حدث من هذا الوزن ليمر على فرنسا دون ردة فعل، صحيح أن هذه الأخيرة تربطها مع البيضان معاهدة سلام، لكنها في نفس

¹ - المنطقة الواقعة أقصى الجنوب الغربي من إمارة التراززة.

² - أرنست بريني، مصدر سبق ذكره، ص: 78.

³ - المصدر السابق، ص: 77.

⁴ - سبق التعريف به في هذا الفصل.

⁵ - تزعم حرب الخلافة على التراززة بين الجناحين الأميريين من أهل اعلي شنظورة والتي استمرت ما بين 1810-1826 توفي في دجمبر 1826 أثناء إحدى المناوشات على الضفة اليسرى للنهر.

⁶ - محمد الأمين بن سيدي أحمد، مرجع سبق ذكره، ص: 20.

⁷ - كانت تقاليد الحكم في مملكة والو تقضي بأن ينتقل العرش من الملك إلى ابن أخته مما جعل محمد لحبيب يفكر في الزواج من جنبت حتى يجد منها ولداً، ويحسم بالتالي الخلاف المتجدد حول أحقية أجداده بالنفوذ في هذه المنطقة.

الوقت تنظر إلى المنطقة بشكل عام، بعيون ثاقبة، وتراقب عن كثب تحركات جميع الأطراف ومرامي سياساتهم.

ولهذا عبر الوالي الفرنسي على السنغال عن موقفه من هذا الزواج تعبيراً واضحاً في رسالته التي بحث بها إلى وزير المستعمرات " .. إن هذا الزواج ستكون له نتائج بالغة الخطورة... لأنه سيتمكن يوماً من تنويع أحد ملوك البيضان ملكاً شرعياً لهذا البلد، وتخريب القاعدة الأساسية التي تركز عليها المستعمرة، والمتمثلة في حياد الضفة اليسرى أثناء نزاعاتنا المتكررة مع البيضان"¹.

ثم بادرت فرنسا ابتداءً من 21 يوليو 1833 إلى إعلان الحرب على كل من ترارزه، ومملكة "الو" الموالية لها، فأحرقت القرى الواقعة على الضفة اليسرى للنهر، وشلت حركة التبادل التجاري عن طريق فرض حصار اقتصادي على المنطقة، كما رابطت السفن الحربية الفرنسية على سواحل الأطلسي قاطعة الاتصال بين السكان والإنجليز في المراكز الساحلية².

وإذا كان الترارزة أبدوا في بعض الأحيان رغبة في إنهاء الحرب فإن الجانب الفرنسي ظل ثابتاً على موقفه حتى تم توقيع اتفاقية 1835 والقاضية بإلغاء كل حق وراثي للترارزة في أقاليم الضفة اليسرى من النهر³:

أما فيما يخص إمارة البراكنة فإن القرن التاسع عشر قد شهد في بداياته منعطفاً هاماً في تاريخ توطيد العلاقات البركنية – الفرنسية، وكانت البداية مع الوساطة التي قام بها أمير لبراكنة سيدي أعلي الأول (1800-1817) بين فرنسا

¹ - محمد المختار ولد السعد، ومجهو ولد محمذن: ملاحظات أولية بشأن السيادة في حوض نهر السنغال خلال القرنين 18-19، المجلة الجغرافية، العدد رقم 1، المطبعة الوطنية نواكشوط، 1992 ص: 67

² - محمد الأمين سيدي أحمد، مرجع سبق ذكره، ص: 21.

³ - الرائد جليبي: مصدر سبق ذكره، ص: 71، يشير جليبي في مذكراته برجاجة عقل الأمير محمد لحبيب ربما دون أن يقصد ذلك " ...وقد كان محمد لحبيب أمير الترارزة الكبير الذي وجد معه وحده التفاهم 30 سنة بعد ذلك مفاوضاً ماكراً أكثر منه محارباً ماهراً.."، راجع جليبي، ص: 70.

وعبد القادر كان¹، أفضت إلى توقيع اتفاقية 4 يونيو 1806 بين الوالي الفرنسي في السنغال والإمام الفوتي الثائر².

وبعد وفاة سيد أعلي الأول سنة 1817، تولى ابنه أحمدو الأول (1817-1841) مقاليد الإمارة، وقد حرص هذا الأخير على مواصلة المنهج الذي سار عليه سلفه من التعاون مع الجانب الفرنسي، مع أنه في بعض الأحيان استفاد من الحرب التي دارت بين فرنسا والترارزة.

لم تتأخر فرنسا في مبادلة لبراكنة مشاعر التعاون والاستعداد لتوثيق الصلات، فتراهم يعقدون اتفاقية 20 مايو 1819 والقاضية بإقامة مشروع زراعي في لبراكنة شبيهة بالمشروع الزراعي الذي أقامه الفرنسيون في الو³.

وقد تم عقد هذه الاتفاقية في ظرف دقيق جدا بالنسبة للمنطقة، فقد كانت فرنسا تعمل جاهدة لترسيخ نفوذها في المنطقة، عن طريق الاستحواذ على الممالك السودانية، وإخماد الحركات الدينية الصاعدة آنذاك، وإنشاء مستعمرة زراعية في الو، وإنهاء النفوذ البيضاني في الضفة اليسرى لنهر السنغال، فيما كانت الترارزة تسعى إلى أن يكون لها أكثر من ذراع، ففي حين تمد إحدى ذراعيها إلى فرنسا عند المحطات النهرية (على نهر السنغال) تسعى إلى مد ذراعها الأخرى للتعامل مع الدول الأوروبية الأخرى - وخاصة بريطانيا - على ساحل المحيط، وأمام تناقض مصالح مختلف هذه الأطراف، كان من الطبيعي أن تقوم الحرب التي عرفت بـ:"حرب الاستعمار الزراعي: التي توجت باتفاقيتي 1821، و 1829 اللتين أشرنا إليهما سابقا.

¹ - زعيم حركة دينية قامت في فوتا مع بداية القرن التاسع عشر، وناضلت ضد النفوذ الفرنسي وقد انتهى الحال إلى إخماد هذه الحركة وتفريق فلولها.

² - المرجع السابق، ص: 46.

³ - محمد الأمين بن الشيخ عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص: 35.

وخوفا من فرنسا أن تتحول المنطقة إلى كتلة واحدة تقف في وجهها، ولا تستطيع بالتالي وقف زحفها، قامت بتقريب بعض الأطراف مثل أمير "والو"، وأمير لبراكنة أحمدو ولد سيدي أعلي، سعيا منها إلى تضييق الخناق على الترارزة والوقوف أمام تحالف قد يقع من شأنه، يقوي أعداء فرنسا أو يوقف التعامل التجاري. هكذا كان الإطار التاريخي الذي تنزلت فيه هذه الاتفاقية بين فرنسا ولبراكنة، لذلك فإن الوالي الفرنسي على السنغال كان حريصا على إكمالها وإحاطتها ببعض الخصائص من قبيل تقديم هدايا للأمير وحاشيته قبل توقيع المعاهدة، وتطمين لبراكنة على مصالحهم التجارية، والمزايا من رواء التحالف مع فرنسا.

ومع المزايا التي حصلت عليها لبراكنة من خلال تعاملها مع فرنسا، فإنها سرعان ما صارت طرفا في النزاع الدائر بين هذه الأخيرة والترارزة، عندما دخلت في الحلف الثلاثي الذي ضم كلا من (الترارزة، فوتة، لبراكنة) ضد فرنسا ومشاريعها التوسعية في المنطقة.

ولم تعد العلاقات إلى مجاريها الطبيعية بين فرنسا ولبراكنة إلا عندما تم عزل الوالي الفرنسي على السنغال "اشمالنز" وتعيين السيد "الكوبي" خلفا له، وتوقيع معاهدة سلام مع الترارزة في 7 يونيو 1821، وتوقيع اتفاقية سلام مع لبراكنة في 25 يونيو من نفس العام، كما سبقت الإشارة.

ومن جديد ألفت الترارزة بظلالها على العلاقات الفرنسية – البركنية، فما أن دخلت الترارزة في حرب مع فرنسا (1833-1835) والتي حاولت فرنسا من خلالها إفشال زواج محمد لحبيب (1829-1860) من الأميرة "جمبت" ولي عهد مملكة "والو"؛ حتى دخلت لبراكنة في مفاوضات مباشرة مع الوالي الفرنسي، من أجل رفع الإتوات المستحقة للأمير أحمدو بن اعلي ويبدو أن الأمير البركني قد عرف قواعد اللعبة، فالترارزة قد قامت بإغلاق المحطات النهرية التابعة لها، وفرنسا بحاجة إلى

تعويض النقص التجاري الحاصل من حربها مع الترازرة، وعليه فإن المتنافس هو محطات لبراكنية.

وبما أن فرنسا صعبة الانقياد فإنها رفضت الضغوط الموجهة لها، إلا أنها وأمام التعتن البركني والخوف من التحالف البركني التروزي كما حصل من قبل، رضخت لهذه المطالب وقبلت بأن تدفع الضرائب العرفية التي كانت تدفع سنويا للأمير على أساس الكميات المبادلة¹.

بعد وفاة أحمدو الأول (1842) خلفه المختر ولد سيدي (1842-1843)، وقد امتازت فترته القصيرة باضطراب العلاقة مع فرنسا، فقد عملت هذه الأخيرة على تنحيته ثم نفيه إلى الغابون، وتولية محمد الراجل² الذي رأت فيه خادم مصالحها، غير أن الفوضى والانشقاقات داخل الصف البركني، حالت دون تمكن أرباب الشركات التجارية الفرنسية من الحصول على كميات الصمغ المطلوبة.

والحقيقة أن العلاقة بين لبراكنة وفرنسا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر – أو على الأقل قبل تولي الوالي الفرنسي الويس فيدرب على السنغال 1854 – امتازت بعهدين متباينين:

ففي العهد الأول فترة سيد أعلي (1800-1817) وابنه أحمدوا للو (1817-1841) ظلت حسنة متوسطة، وإن كانت قد انتابتها أزمات فهي عرضية سرعان ما تنتهي، وتعود الأمور إلى سابق عهدها.

أما في العهد الثاني فقد عرفت الإمارة أزمة الخلافة (1841-1851) وحدثت انشقاقات حادة وتحالفات عديدة داخلية وخارجية، مما أثر سلبا على طبيعة العلاقة مع فرنسا. كما يجدر التنبيه إلى أن علاقة فرنسا بالترازرة ظلت تلقي بظلالها على

¹ - محمد الأمين بن الشيخ عبد الله، إمارة لبراكنة، مرجع سبق ذكره، ص:36.

² - أقدمت فرنسا على دعم محمد الراجل ضد خصمه ولد سيدي، من أجل أن يحقق لها مطامحها ويكون لها سندا ضد الترازرة، إلا أنها في النهاية خابت آمالها فيه، فلم يستطع الوقوف في وجه الترازرة، ولم يستطع كذلك تحقيق رغباتها التجارية نتيجة للاضطرابات التي تميز بها عهده.

لبراكنة؛ ففي أغلب الأحيان عندما تكون علاقة فرنسا متوترة مع الترابزة فإنها تتوتر مع لبراكنة، والعكس صحيح.

لقد تجلى الوجود الفرنسي في أرض البيضان خلال مراحل الأولى من خلال محاولة السيطرة على المجتمع عن طريق استبدال العمود الفقري لاقتصاده "الصمغ" بالفول السوداني (إنشاء مستعمرة زراعية في والو)، ومنع التبادل مع الإنجليز في بورتانديك، والتدخل في شؤون الإمارات الداخلية، وعلاقتهم مع الممالك السودانية، ووضع أسس للتعامل التجاري.

وكانت إمارة الترابزة - بحكم موقعها الجغرافي - المتضرر الأول من هذه السياسة الفرنسية، منذ إرهاباتها الأولى المتمثلة في مشروع الاستعمار الزراعي (1818-1831)، مروراً بحرب زواج محمد الحبيب من جمبت وصية عرض "والو" (1833-1835)، وانتهاء بالحرب التي غيرت موازين القوة لصالح الجانب الفرنسي والتي قادها الوالي الفرنسي الويس فيدرب.

وقد دشّن هذا الأخير مرحلة جديدة من الوجود الفرنسي أكثر عنفا ودموية، وشهدت فترة حكمه على السنغال¹ تجاذبات حادة مع الطرف البيضاني، أفضت في النهاية إلى الرضوخ للسياسة الفرنسية، وتلاشت بالتالي مرحلة هامة من تاريخ البلاد؛ كانت سمتها البارزة التكافؤ في التعامل، والندية في التعاقد. وكان فيدرب وراء تلاشي تلك المرحلة من خلال سياسة لي الذراع التي انتهجها حيال زعماء المنطقة.

ثالثاً: فيدرب وسياسة العصا الغليظة

التزمت فرنسا خلال الفترة السابقة على تعيين فيدرب 1854 سياسة التهذئة والسلام، وعدم التورط في عمليات غزو عسكري حيال المنطقة، وإن كانت قد وجدت صدامات بين الجانب البيضاني والجانب الفرنسي، فهي نابعة من تناقض

¹ - حكم فيدرب السنغال لفترتين الأولى من (1854 إلى 1861)، والثانية من (1863 وحتى 1865).

سياسات الطرفين ومرامي طموحاتهما، ومع ذلك فإن هذا الصراع غالباً ما يؤول إلى التصالح وعقد اتفاقيات تظهر حسن نوايا الأطراف المتصارعة، غير أننا نعتقد أن "حسن النوايا" هذا ليس نابعا بالضرورة من قناعات شخصية لدى المتعاقدين، بقدر ما أملت الظروف السياسية، وحاجة التجارة إلى الأمن والسلام.

وإذا كانت فرنسا قد سعت جاهدة - كما لاحظنا فيما سبق - خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى كسب ود الأمراء، من أجل منع التعامل مع الإنجليز على السواحل، والاستئثار بتجارة الصمغ الرائجة حينها، فإن هذه القاعدة قد تغيرت مع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث أصبح الأمراء يتذللون لفرنسا ويتنازلون عن امتيازاتهم العرفية حفاظاً على كرسي الإمارة، وحتى يضمنوا عدم الدعم الفرنسي لأحد الأطراف المنشقة، ولم يكن فيدرب - صاحب الشخصية القوية والسياسية الصارمة - من ذلك كله ببعيد.

جاء تعيين فيدرب كردة فعل من قبل وزير المستعمرات، "ولوبي" الدور التجارية الفرنسية بسان لويس، على تعثر تطبيق السياسة الفرنسية في مصب نهر السنغال، لذا حثت توجهات وزير المستعمرات الفرنسي في 9 نوفمبر 1854 على أن يستعمل فيدرب القوة مع شعوب المنطقة لتأكيد السيادة الفرنسية على النهر، كلما أرادوا النيل منها¹.

وإذا كان الوجود الفرنسي خلال الفترة الممتدة من (1800-1854) قد طغت عليه السمة التجارية، فإن عام 1854 يمثل مرحلة انتقالية ما بين مرحلة المحطات التجارية، ومرحلة الإمبريالية الاستعمارية، التي ستبدأ باريس في رسم معالمها عن طريق حاكمها العام في إفريقيا الغربية.

¹ - محمد المختار السعد: الأرسقراطية الدينية والسلطة السياسية التروزية في مواجهة الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر الميلادي، مرجع سبق ذكره، ص: 274.

وبالرغم من مساعي الفرنسيين لتثبيت أقدامهم في المنطقة، فإن وجودهم خلال هذه المرحلة (1800 – 1854) لم يحقق مكتسبات سياسية على الأرض، فلا يزال البيضان أصحاب كلمة مسموعة لدى الممالك السودانية المجاورة، ولا تزال تدخلاتهم في الضفة اليسرى لنهر السنغال تغيظ صدور الفرنسيين، وما يزال هؤلاء الآخرون يدفعون الإتاوات للجانب البيضاني.

وقد اضطلع الحكام العامون المتعاقبون على حكم السنغال خلال الفترة (1800-1854) بسياسات مختلفة كان الهدف منها إحكام السيطرة على المنطقة، وتأكيد تبعيتها لفرنسا بما يعنيه ذلك من الاستفادة من مقدراتها الاقتصادية، وكان من أكثر هذه السياسات وضوحا في الطرح وجرأة في التنفيذ، تلك التي اضطلع بها الوالي ويوميز بوي Bouet willaumez¹ وعمل على تطبيقها بكل الوسائل المتاحة.

ويمكن تحديد الخطوط العريضة لسياسة ويوميز بوي في النقاط التالية:

- إنشاء مديرية للشؤون الخارجية، على غرار تلك التي أنشئت في الجزائر لضمان استمرارية التوجهات السياسية، ومن أهم اختصاصات هذه المديرية اتخاذ قرار السلم والحرب.
- محاربة بيضان الضفة اليسرى لنهر السنغال.
- وضع مملكة "الو" تحت السلطة الفرنسية المباشرة، وهذا يعني الدخول في حرب مع بيضان الترارزة الذين يعتبرونها جزءا من أرضهم.
- إلغاء الضرائب التي تدفع لأمرأ البيضان أو تخفيضها على الأقل².

¹ - بوي ويومير (1808-1871) ضابط بحري، من رواد التغلغل الاستعماري، في غرب إفريقيا، عمل قائد سفينة حربية في غرب إفريقيا منذ 1836 ثم شغل منصب قائد البحرية الفرنسية في غرب إفريقيا من 1841-1842، قبل أن يتم تعيينه واليا على السنغال وتوابعه ما بين سبتمبر 1842 ومايو 1844، وقد صاغ خلال فترة ولايته سياسية استعمارية جديدة، جعلت منه أحد أبرز رواد التغلغل الاستعماري في المنطقة.

² - السفيوني عبد النبي: الاستعمار الفرنسي في السنغال 1854-1876 بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1996 ص: 99-100.

ومع أن الوالي بوي كان أكثر حزما وميولا لاستخدام القوة من الولاة السابقين له، فقد تعرضت سياسته – على غرار أسلافه – للفشل، ولم يكن الاستعمار الزراعي الذي حاول تطبيقه هو الحل الناجع للسيطرة على المنطقة، فقد حالت عدة أمور دون نجاحه في مقدمتها، عدم توفر الدعم المادي الكافي لتنفيذه من قبل الإدارة الفرنسية، وكذلك عدم ملائمة المنطقة للمناهج المتبعة في استغلال الأرض. غير أن الأهم – ربما – في فشل هذه السياسة هو صعود اللبراليين "الذين لم يكن يتوقع منهم أي تحمس استعماري"¹.

وإذا كانت سياسة الولاة المتعاقبين على حكم السنغال وملحقاته، لم تطبق بشكل كامل نظرا لاعتبارات سياسية واقتصادية محلية ودولية، فإن الوالي فيدرب سيعيد تسطير هذه السياسات ورسم معالم سياسات أخرى عند تعيينه حاكما عاما على غرب إفريقيا سنة 1854.

لقد تولى الجنرال الويس فيدرب السنغال في فترة تراجع اقتصادي لهذه المستعمرة الأخيرة، وزيادة على ذلك تولى في فترة فشل شبه كامل لسياسات الولاة المتعاقبين على السنغال منذ 1817.

فمع أن الظرفية التاريخية قد ساعدت في بلورة الفكر الاستعماري لدى الساسة الفرنسيين، الذين تقلدوا هرم السلطة في السنغال – على الأقل خلال النصف الأول من القرن 19 – فإن الاستراتيجية الاستعمارية لم تفض إلى خلق مجال سياسي واقتصادي يخدم المشروع الاستعماري، والمنطقة بشكل عام، بل على العكس رافق المشروع الاستعماري تعميق الهوة بين مكونات المجتمع، وزرع صورة غير حسنة في ذهنية الساكنة المحلية عن فرنسا، ليس فقط في السنغال - مهد هذه السياسة وأرضية تطبيقها- وإنما في كل المجال البيضاني المجاور، والذي تسعى فرنسا من خلال سياستها إلى فرض سيطرتها عليه.

¹ - محمد سعيد بن أحمدو: الصمغ العربي وعلاقات البلاد الموريتانية مع مستعمرة السنغال خلال القرن التاسع عشر، المجلة المغربية، العدد 120 سنة 2005 ص: 299.

إن تعيين فيدرب على الإدارة في السنغال جاء في وقت حساس ودقيق بالنسبة لفرنسا، فمن جهة شهدت هذه الفترة تركيز النظام الإمبراطوري في شخص نابليون الثالث، ومن جهة ثانية، كانت القيادة الفرنسية عازمة على تنفيذ سياستها الجديدة في غرب إفريقيا¹.

وهكذا أوكلت مهمة تنفيذ السياسة الفرنسية الجديدة إلى فيدرب الذي يعتبر مهندس السياسة الاستعمارية في إفريقيا الغربية، وأول من طبق بشكل حازم مبدأ استعمال القوة الذي أوصت به الحكومة الفرنسية في باريس كخيار لا غنى عنه للاستحواذ على المنطقة.

ولم تكن التوصيات الفرنسية لولاتها في السنغال باستعمال القوة وليدة تلك اللحظة (تعيين فيدرب)، بل سبقته بعدة سنوات. فقد أرسلت الحكومة الفرنسية إلى الوالي بروتي Protet² رسالة تضمنتها سياستها الجديدة في المنطقة وكان من أهم النقاط التي تناولتها هي:

- وضع حد لمطالب واعتداءات القبائل الموريتانية الموجودة بجوار نهر السنغال.
- حماية المزارعين ضد الغارات التي تقوم بها القبائل الموريتانية.
- تأكيد السياسة الفرنسية على النهر³.

وإذا كان الوالي الفرنسي لم يسعفه الحظ في تطبيق هذه السياسة، فإن الوالي الجديد "فيدرب" وضعها موضع التنفيذ، خلال فترتي حكمه، ففي الفترة الأولى 1854-1861 ركز جهوده على مستعمرة السنغال وموريتانيا، وإخماد الثورات وقمع المعاندين للسياسة الفرنسية، بينما اهتم في فترة حكمه الثانية 1863-1865

¹ - السفيري عبد النبي: مرجع سبق ذكره، ص: 134.

² - تولى السنغال لمدة أربع سنوات (1850 إلى 1854)

³ - محمد عبد الرحمن بن عمار: فيدرب وتعزيز النفوذ الفرنسي على الضفة اليمنى لنهر السنغال، مصادر كراسات التاريخ الموريتاني، العدد الرابع، 2004 ص: 95.

بغزو أعالي النهر والصراع مع الزعماء السود، وذلك بعد أن استتب له الحكم في السنغال، وأمن من اعتداءات المجموعات البيضانية.

إن السياسة الفرنسية الجديدة، كانت توافق هوى فيدرب الذي لخص سياسته عند توليه السنغال فيما يلي:

- تقوية السيطرة الفرنسية على السنغال وتوسيع نطاقها.
- الضغط على القبائل الموريتانية وإعادة صياغة العلاقات معها.
- كشف البلاد الموريتانية وجمع المعلومات عنها¹.

وستكون "والو" أولى ساحات النزال بينه وبين والبيضان خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بوصفها الحجر الأساس للسياسة الفرنسية الجديدة في الحوض الأسفل لنهر السنغال، الذي جاء فيدرب لتطبيقه، بدءاً بإحكام القبضة على تلك المملكة "الولفية" حساسة الموقع، وانتهاء بتغيير شروط التبادل على الضفة اليمنى لنهر السنغال² (إلغاء المواسم، والمحطات التقليدية للتبادل، والقضاء على الضرائب العرفية التي كانت تدفع للأمرأ).

كان كل طرف متمسكا بموقفه فالمجموعة البيضانية متمسكة بحقوقها على الضفة اليمنى للنهر ولا تريد تغييراً يطرأ على الإتوات والضرائب التي تدفعها فرنسا، وهذه الأخيرة عازمة على تطبيق سياستها الجديدة في المنطقة، ولم يكن ذلك التناقض الحاصل في مواقف الطرفين غائباً عن ذهن الوالي الفرنسي فيدرب حيث يذكر في رسالة موجهة إلى وزير المستعمرات ما يلي: "... إن البيضان لا يريدون تغيير أي شيء مما كان قائماً وبعبارة أخرى فهم يريدون أن نسد لهم مبلغاً معيناً عن كل سفينة حسب حمولتها سواء كان بها علك أو لا (...). وقد ظل محمد لحبيب يؤكد

¹ - محمد عبد الرحمن بن عمار، المرجع السابق، ص: 97.

² - محمد المختار ولد السعد: الأرسطراطية الدينية والسلطة السياسية التروزية، مرجع سبق ذكره، ص: 274.

على الدوام، ولحد الساعة، أن أي شيء لن يتغير بالنسبة للضرائب العرفية ولمحطات التبادل ما دام حيا...¹.

كما أن فيدرب في نفس الوقت كان يعلم حساسية "والو" بالنسبة للترارزة، وأن أي تدخل فرنسي فيها يعتبرونه مساسا بحوزتهم الترابية، وذلك ما عبر عنه في نفس الرسالة حيث يقول "إن قضية "والو" هي القضية الأكثر خطورة، فمن يطالب الترارزة بالتخلي عن هذا البلد كمن يطالب فرنسا بإخلاء اللورين والألزاس، بيد أنني أعتقد أن ذلك ضروري وممكن..."².

هكذا غدت قضية "والو" تحتل موقع الصدارة بالنسبة لاهتمامات الأوساط الاستعمارية الفرنسية، وقد تزايد الاهتمام بهذه القضية بعد التحولات التي عرفتتها السياسة الفرنسية في السنغال، حيث أضحت منذ 1854 ميالة إلى استخدام جميع الوسائل الكفيلة بجعل "والو" محمية فرنسية، حتى ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة المفرطة.

جاء التوجه الفرنسي الأنف الذكر، بعدما شهدته المنطقة من استفحال لظاهرة الانقسامات السياسية في الممالك النهرية، وتزايد ضغط الإمارات البيضانية عليها، وتدخل هذه الأخيرة في الشؤون الداخلية لمملكة "والو"، زد على هذا الوضع كله، ظهور حركة الحاج عمر الفوتي³ التي أخضعت مجمل أعالي النهر، وأصبحت بالتالي تهدد المصالح الفرنسية.

كل هذه الأسباب وغيرها جعلت فيدرب يسرع باحتلال "والو" قاطعا الطريق أمام الأطراف الساعية إلى السيطرة على المنطقة، غير أن ذلك الأمر لم يكن سهلا،

¹ - المرجع السابق، ص: 276

² - محمد المختار ولد السعد: الأرستقراطية الدينية والسلطة السياسية التروزية، مرجع سبق ذكره، ص: 276.
³ - عمر بن سعيد تال ت 12هـ - 1864م عالم ومجاهد، أخذ الطريقة التيجانية بواسطة سيدي مولود فال الشنقيطي، خاض جهادا مريرا لإقامة دولة إسلامية في فوتا، كان أحد أسباب اصطدامه بالقوى الفرنسية، للمزيد حول ترجمته راجع: الخليل النحوي: المنارة والرباط، مرجع سبق ذكره، ص: 571.

فقد كان من الصعب تخطي عقبتى التراززة، وزعماء والو أنفسهم، وخصوصا التراززة التي تعتبر مملكة "الو" جزء من أرضها.

وكانت القبائل التروزية المحاذية للنهر¹ أول من اصطلى بنيران حرب فيدرب ومحمد لحبيب، بحكم موقعهم الجغرافي على الضفة اليسرى للنهر، والتي هي مجال تحرك القوات الفرنسية، مما جعل بعض هذه القبائل يرضخ للفرنسيين ويعلن ولاءه لهم، ويظاهرهم على قومه سبيلا إلى إخراجهم النهائي من "الو".

ولم يكن الخوف والطمع هما وحدهما الدافعين لبعض هذه القبائل للارتقاء في أحضان الفرنسيين، وإنما كانت إلى جانب ذلك الضغائن والعداوات الدفينة بين هذه القبائل وبعض القبائل الموالية للأمير التروزي.

فمثلا نجد هذا الدافع الأخير حاضرا في ذهن رئيس أولاد البوعلية في رسالته الموجهة إلى فيدرب بتاريخ 28 فبراير 1857 حين يقول:

"...أما بعد فإننا قد ألقنا الدهر وعداوة محمد لحبيب وابنه (سيدي) ومؤاخراتهم لأعدائنا أبناء دامن ونصرهم لهم علينا، وما أصابونا به من الإذلال والعداوة، ما ضاقت به ذروعنا، وضاقت علينا الأرض بما رحبت، ونظرنا وأمعنا النظر في موضع نشفي به غليل صدورنا، ونأخذ بثأرنا من محمد لحبيب، وابنه وسائر أعدائنا من التراززة، فإذا أمعنا النظر والرأي الخمير، أشار إلى أن أشد الناس عداوة لمحمد لحبيب أنت يا أمري اندر²، وأن أشد الناس نكاية وأحدهم شوكة وأكثرهم آلات حرب أنتم...، واجتمع أمرنا واتفق رأينا على أن نهاجر إليكم لنسلم من الأذى والقتل، ونتعاون نحن وأنتم على محمد لحبيب... واعلموا أننا إذا كنا معكم سقط امكبل³ إلى يوم القيامة وأمنت طريق العلك..."⁴

¹ - وهم: التراززة البيض (أولاد البوعلي، وزنبتى...) والتراززة الكحل (تغرجنت، وأولاد بينوك...) وهؤلاء الآخرون هم الحلفاء المفضلون لمحمد لحبيب ويده الطولى في الممالك النهرية.

² - تطلق على سان لوي.

³ - يقصد بها الإتاوات التي يدفعها الفرنسيون لأمرء البيضان مقابل تأمين التجارة.

⁴ - محمد المختار السعد: الأستقرابية الدينية والسلطة السياسية، مرجع سبق ذكره، ص: 279.

ومن أجل إصابة الجدار البيضاني بالتصدع وعدم التماسك سعى فيدرب إلى خلق انشقاقات داخلية بين القبائل أملا في إصابة قوة محمد لحبيب بالضعف والتشردم، كما قام بإقناع القبائل الأخرى المحايدة، بعدم جدوائية الدخول في حلف الأمير التروزي.

وأرسل فيدرب رسائل إلى المجموعات البيضانية يذرم فيها بخطورة التحالف مع محمد لحبيب، ويذكرهم بالمزايا الكبيرة التي يضمنها لهم الوقوف إلى جانب القوات الفرنسية، ومن ذلك الرسالة التي أرسلها الفرنسيون إلى "شمس أحمد مولود" شيخ قبيلة إيداو الحاج¹ يحثونه فيها على شق عصى الطاعة والخروج على الأمير التروزي، كما يرغبونه فيها بالقدوم إلى سان لوي للتفاوض، وقد اطلع الوالي الفرنسي في السنغال وزير المستعمرات على فحوى هذه الرسالة حيث يقول بأنه أخبره: "..... أن الوسيلة الوحيدة لتحقيق مآربه هي أن يعمل على تكوين حزب ذي بال، داخل القبائل الحسانية، يتبنى رأيه، ويبحث مثله عن السلاح بالخروج على سلطة محمد لحبيب، الذي سيؤدي غروره وتصلبه في الرأي إلى خسران الترابزة المحقق عما قريب، ويبدو أن شمس قد تفهم جيدا مغزى النصيحة التي أسديت له، وأبدى استعدادة للقيام بكل ما في وسعه لحمل الترابزة على الرضوخ وإنهاء الحرب التي عضته وقبيلته بأنيابها..."².

وهكذا بدأ خيار عسكري يلوح في الأفق بين قوة فرنسية ساعية إلى احتلال المنطقة وإخضاع الأطراف الأخرى، وبين قوى محلية رافضة للتدخل الأجنبي ورافضة للتمسك بحوزتها الترابزية.

كان فيدرب سباقا إلى اتخاذ خطوة أكثر جرأة تبين للأطراف الأخرى (الترابزة، والو) أنه ساع في البرنامج الذي قطعه على نفسه، حيث قام بتجهيز قوات

¹ - قبيلة زاوية اشتهرت بالتجارة مع الفرنسيين، شكلت في بعض الفترات قوة اقتصادية لا يستهان بها في إمارة الترابزة، من خلال إشرافها وعملها في بيع العلك.

² - محمد المختار ولد السعد: الأرسوقراطية الدينية والسلطة السياسية، مرجع سبق ذكره، ص: 280

للتدخل السريع، مدعومة بسفن حربية تجوب النهر، معززة بمراكز تموين ومراقبة في عموم المراكز التجارية المطلة على نهر السنغال.

هاجمت القوات الفرنسية قرى والو، وأحرقت معظمها، وفي نفس الوقت هاجمت بعض أحياء الترارزة على الضفة اليسرى لنهر السنغال¹.

واصل فيدرب تقدمه الميداني، فحقق عدة انتصارات من خلال حملاته العسكرية المتواصلة على والو، حيث استطاع خلال عشرة أيام إحراق خمسة وعشرين قرية من بينها العاصمة "اندر Nder" وأكثر القتل في صفوف قوات "والو" وأسر من بينهم مائة وخمسون².

ومن أجل إبعاد خطورة الترارزة، قام فيدرب بنقل ساحة الحرب إلى الضفة الأخرى لنهر السنغال، إلا أن هذا الإجراء لم يمنع الترارزة من شن هجمات خاطفة وسريعة، خلفت وراءها العديد من الخسائر، والرعب النفسي في صفوف الفرنسيين.

وفي نفس الوقت أقدم الجانب الفرنسي على خطوة أخرى استباقية، أراد من خلالها زرع الخوف في صفوف البيضان الموجودين على الجانب الأيسر من نهر السنغال، وهي الإجهاز بقوة على القبائل التي عبرت النهر بحثا عن المراعي الخصبة لقطعان ماشيتها، ويذكر فيدرب غاياته من ذلك الهجوم في رسالته الموجهة إلى وزير البحرية والمستعمرات حيث يقول " .. قامت قبائل أهل القبلة³ (...) بالعبور - كما هي العادة في السنوات الأخيرة - إلى الضفة اليسرى بخيامها وقطعان مواشيها خارقة بذلك خرقا صارما للاتفاقيات بهذا الشأن.. وبما أن هذه القبائل كانت ما تزال على ضفاف النهر، فقد قررت الاستحواذ عليها معا مجتمعة، وكان ذلك ممكنا بفضل توافر العديد من السفن البحرية، فلو انتظرت مجيء أمير الترارزة وطلبت منه إخلاء "والو"، لاعتبر ذلك الزعيم المتعالي القوي جدا [ذلك الطلب]

¹ - السفيوني: مرجع سبق ذكره، 137.

² - نفس المرجع والصفحة.

³ - يقصد القبلة بالكاف المعقودة: الحيز الترابي الذي تشغله إمارة الترارزة والبراكنة.

مجرد فضول ساخر، فمحمد لحبيب لا يتولى اليوم تعيين أمير البراكنة فحسب، بل يدعي تعيين داميل كايور¹، ويقوم ابنه "اعلي" بإهانة ملكة "والو" في عقر دارها وينتزع منها بالقوة ما يحلو له.. ورغبة مني في اتباع جدي للبرنامج الذي رسمت لي، وتصميما مني على استخدام الوسائل الكفيلة بضمان تنفيذه، فقد قررت معاينة الهدف المتمثل في طرد البيضان الفوري من "والو"...².

عباً فيدرب قوة تتكون من 1100 جندي، وواصل بها الحرب خلال صيف 1855 ليتمكن أخيراً من إعلان "والو" منطقة فرنسية في دجمبر من العام نفسه، وأسفرت تلك الحرب عن خراب مملكة "والو" العمراني والاقتصادي والاجتماعي، واحتضار تجارة مصب النهر.

وعندما لاحظت القوات الفرنسية صعوبة موقف التراززة الداخلي والخارجي، بدأت في وضع الشروط من أجل إيقاف الحرب والعودة بالأمر إلى حالة التهدئة، وهي بالطبع شروط الغالب التي يميلها على المغلوب، وقد ربط فيدرب قبوله للصلح بالنقاط التالية؛ والتي على الجانب البيضاني قبولها كأساس للمفاوضات وتتمثل في الآتي:

1. احترام بنود اتفاقية 30 أغسطس 1835³.
2. الاعتراف بأن الفرنسيين وحدهم حماة والو.
3. لا يسمح لأي تروزي مسلح بعبور النهر.
4. كل قافلة تروزية تعبر إلى (والو) يجب أن تمر بنقاط محددة سلفاً.
5. إذا رغبت التراززة في المتاجرة مع الفرنسيين، فإن تلك التجارة ستكون حرة دون محطة معينة، أو إغلاق للموسم التجاري.

¹ - داميل: لقب تلقب به أمراء مملكة كايور.

² - السعد: الأرستوقراطية، مرجع سبق ذكره، ص: 284-285 نقلاً عن: A.N.S.

³ - كنا قد تناولنا بشيء من الإيجاز، فيما سبق هذه الاتفاقية.

6. يتولى والي السنغال ضمان أمن القوافل التجارية التروزية العابرة إلى والو¹.

وقد رد أمير الترازة محمد لحبيب على هذه الشروط بأخرى أكثر جراً وصرامة تحيل إلى عمق الأزمة بين الطرفين وصعوبة حلّها:

- (1) زيادة الإتاوات الممنوحة للترازة ولبراكنة ووالو.
- (2) التحطيم الفوري لكافة القلاع التي بنيت في البلاد.
- (3) منع السفن من الملاحة في النهر.
- (4) دفع إتاوات جديدة مقابل التزود بالأخشاب من سان لويس.
- (5) ترحيل فيدرب إلى فرنسا مذموماً كشرط لأية مفاوضات².

ولم تكن هذه الشروط الصعبة محمد لحبيب عن مواصلة عناده والوقوف في وجه الأطماع الفرنسية الرامية إلى احتلال "والو"، ومنع الإتاوات المفروضة على التجارة، وتقليص نفوذ البيضان إلى ما وراء النهر، وقطع الصلات بينهم والممالك النهرية، وإخلاء المحطات التجارية.

ومن أشد المعارك وقعا على الجانب الفرنسي معركة الركيز³ والهجوم على قرية "كاندون" التي تتمركز فيها قوات فرنسية، أما الأولى (معركة الركيز) فقد جرت قرب بحيرة الركيز إثر قيام قوات فرنسية بالهجوم على أحد أحياء الترازة، وقد تصدت وحدات تروزية لهذا الهجوم، وكبدت الجانب الفرنسي خسائر جسيمة نافت على مائة قتيل⁴.

أما الهجوم الثاني فقد قامت به قوات بيضانية على قرية "كاندون" الولفية في 20 مايو 1857، وقد أسفرت تلك الغارة عن قتل عشرة من رجال القرية، وأسر 80

¹ - السفيني، مرجع سبق ذكره، ص: 141.

² - نفس المرجع والصفحة.

³ - إحدى القرى في الجنوب الغربي من البلاد، وهي اليوم إحدى مقاطعات ولاية الترازة.

⁴ - السعد: الأرستوقراطية الدينية والسلطة السياسية، مرجع سبق ذكره، ص: 292.

من أهلها، والاستيلاء على 450 رأس من الأبقار بالإضافة إلى إحراق القرية بكاملها¹.

وأمام تعارض مصالح الطرفين، تواصلت الهجمات العسكرية مصحوبة بحرب اقتصادية خلفت خسائر مادية وبشرية جسيمة، كانت "الو" والترارزة الأكثر اصطلاء بنيرانها.

ولشل تحركات الترارزة، قام فيدرب بضرب حصار عسكري واقتصادي، توخى من خلاله قطع الإمدادات العسكرية من الممالك المجاورة، ومنع تهريب الأسلحة التي من الممكن أن تسلط على رقاب الفرنسيين، كما توخى من الحصار الاقتصادي ضرب الاقتصاد التجاري البيضاني عن طريق منع القوافل من عبور النهر وبالتالي تكديس البضائع مما ينتج عنه سخط السكان، وعليه يتم قطع الخيط الذي يربط الحاكم والمحكومين، أو تشويبه على الأقل.

وقد استمرت الحرب بين الطرفين إلى حدود سنة 1858 دون أن يستطيع أحد الأطراف حسم الحرب لصالحه، والجدير بالإشارة هو أن فرنسا في إطار تشديد الخناق، قامت بفتح مفاوضات حول بورتانتيك والتي توجت باتفاقية 1857 التي تنازلت بموجبها بريطانيا للفرنسيين عن حقهم في التبادل على ساحل بورتانتيك، مقابل تنازل الفرنسيين لهم عن مركز البريدة على الساحل الغامبي².

وبذلك فقدَ محمد لحبيب واحدة من أهم الأوراق الرابحة، التي كان يعتمد عليها حيث كان يستغل الوجود البريطاني على الساحل، لتصريف مادة الصمغ، مقابل بعض الإتاوات والأسلحة مثلت سندا ماديا ومعنويا لا يستهان به، ظل يستند عليه طوال السنوات الأولى من الحرب.

¹ - المرجع السابق، ص: 293.

² - محمد المختار بن سيدي محمد: النضال الوطني، مرجع سبق ذكره، ص: 36.

وهكذا اضطر محمد لحبيب للقبول بالشروط الفرنسية للسلام والتي تم التوقيع عليها في 20 مايو 1858، اعترف بموجبها محمد لحبيب بالسيادة الفرنسية على مملكة والو، وتغيير شروط التبادل التجاري مع الفرنسيين وضمان سلامة العمليات التجارية، مقابل محافظة التراب في جباية الإتوات من الممالك الولفية، على أن تتولى فرنسا هذه العملية وكانت فرنسا تسعى من رواء ذلك إلى قطع كل الإتصالات المباشرة بين البيضان وهذه الممالك.

وقد أشفع فيدرب هذه الاتفاقية بأخرى مع البراكنة في 10 يونيو 1858 تنص على الاعتراف بالسيادة الفرنسية.

أما على مستوى إمارة لبراكنة المتضررة هي الأخرى من السياسات الفرنسية خصوصا مع قدوم فيدرب واليا على السنغال، فإنها عرفت ركودا في تعاملها التجاري والسياسي مع الفرنسيين، فيما قبل فيدرب وتواصل الأمر مع هذا الأخير.

فخلال الفترة الممتدة من (1850-1854) شهدت العلاقات البركنية – الفرنسية ركودا في انسيابيتها عندما حاولت السلطات الفرنسية القضاء على المحطات التجارية، ومنع الإتوات، غير أن هذا الأسلوب لم يفلح خصوصا عندما مارس التجار البيضان الضغط على الجانب الفرنسي عن طريق الامتناع عن الذهاب إلى المحطات التجارية التي يتمركز حولها التجار الفرنسيون، وكان ذلك تعبيرا عن رفضهم المطلق للمقترحات الفرنسية، وهذا ما أثر على حجم المبادلات حيث يقول فيدرب: "...بأنها جسدت سيطرة البيضان لأنهم كانوا الأمرون الناهون الذين يتحكمون في عمليات التبادل"¹، وقد نتج عن تعيين فيدرب واليا على السنغال وملحقاتها 1854 تطبيقا لسياسة فرنسية جديدة أكثر خشونة اتجاه لبراكنة وباقي الإمارات البيضانية، كانت إحدى تجلياتها الحرب التي دارت بين فرنسا من جهة

¹ - الشيخ أحمد بن الشيخ أحمد: الأبعاد الاقتصادية لأزمة الإمارة في لبراكنة خلال النصف الأول من القرن 19، بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط 1996، ص:33.

والترارزة وحليفاتها لبراكنة من جهة أخرى، والتي انتهت لصالح فيدربر، حيث شرع في تنفيذ أسس جديدة للتعامل السياسي والتجاري في المنطقة – كما مر معنا- تمهيدا للاحتلال، ولم تكن الرحلات الكشفية إلا حلقة من الحلقات التي ساهمت في رسم معالم استغلال المنطقة ووضعها تحت النفوذ الفرنسي المباشر.

رابعاً: الرحلات الاستكشافية

ساهمت الرحلات الكشفية في التمهيد للسيطرة الأوربية على الأراضي التي استهدفتها هذه الرحلات، ومع أن هذه الرحلات كانت في بدايتها شبه عفوية قام بها مغامرون يسعون إلى ارتياد المجهول، فإنها ما لبثت مع تطور الأوضاع العلمية والاقتصادية والاجتماعية في أوروبا أن بدأت تكتسي طابعاً جديداً، هدفه الأساسي جمع المعلومات المهمة عن المجتمعات من أجل تسهيل السيطرة عليهم.

ولم تكن موريتانيا استثناء من هذه الاستكشافات، فقد عرفت في هذا السياق؛ مجموعة من الرحلات جابت طول البلاد وعرضها، واختلفت ظروفها وأغراضها تبعاً لأشخاصها والجهات التي تقف وراءها.

ولعل الدارس للاتفاقيات المبرمة بين القبائل الموريتانية وفرنسا يلاحظ بسهولة أنها سعت إلى تحديد مراكز تجارية يتم فيها التبادل التجاري بين الطرفين، وهنا نلاحظ مسألة في غاية الأهمية من وجه نظرنا سعى كل طرف إلى تحقيقها من خلال هذه المراكز التجارية، ففرنسا كانت مدفوعة بإنشاء هذه المراكز إلى منع التبادل التجاري مع الأطراف الأوربية الأخرى، وبالتالي محاولة الاستئثار والانفراد بالمنطقة، وإبعاد الدول الأوربية الأخرى من حلبة الصراع التنافسي على البلاد.

والقبائل الموريتانية انقادت لإنشاء هذه المراكز – مرغمة في بعض الأحيان – إلى قطع الطرق أمام التوغل الفرنسي داخل البلاد، وبالتالي محاولة جعلها دائماً منطقة مجهولة الإمكانيات أمام الفرنسيين.

غير أن هذه الاتفاقات والمراكز التي يتم فيها التبادل لم تكن كافية في كبح جماح التطوع الفرنسي لمعرفة البلاد ومقدراتها الاقتصادية والاجتماعية، وهذا ما دفع السلطات الفرنسية إلى إرسال مستكشفين لكي يتعرفوا على أعداد السكان وعاداتهم واقتصادهم وطبيعة حياتهم.

وقد تقمص بعض هؤلاء شخصية التاجر، معلنا أنه مكلف بإمكانية التعاون التجاري، وادعى آخرون الانتماء إلى دائرة الإسلام (إما بانتحاله، أو ممارسة شعائره، أو بالسير في حماية إحدى الشخصيات الدينية)¹.

وتختلف دواعي وأهداف الرحلات باختلاف أصحابها والجهات التي تقف وراءهم؛ فمنهم من يدفعه البحث عن الثروة والمكاسب المادية، ومنهم من تدفعه دوافع دينية لنشر دينه عبر مساحات ومجتمعات أكثر، ومن بينهم كذلك من تحركه المغامرة نحو ارتياد المجهول واكتشاف الغريب، ومنهم - وهذا هو الأهم بالنسبة لدراستنا - من تقوده نزعة سياسية استعمارية، تسعى إلى ارتياد مناطق جديدة، وجمع المعلومات حولها تمهيدا لاحتلالها².

وكنا قد أوردنا بشيء من التفصيل في الفصل السابق - عندما تحدثنا عن بدايات الاتصالات الأوروبية بالمنطقة - الرحلات الأوروبية الأولى التي دشنها البرتغاليون، لذا فإننا نوجز الحديث بخصوصها؛ لنقول إنه بعد التطور السريع الذي عرفته وسائل الملاحة البحرية، التي أسفرت عن قيام كشوفات جغرافية كان من نتائجها على المستوى الإفريقي إنشاء مراكز تجارية في عدة نقاط على طول الساحل، أصبحت المناطق الإفريقية معروفة لدى الأوربيين بعد أن ظلت ولفترة طويلة لا يعرفون عنها إلا ما ترويه الأساطير.

¹ - الخليل النحوي: المنارة والرباط، مرجع سبق ذكره، ص: 320.

² - لا تسعى في هذه الأسطر الخاصة بالرحلات الاستكشافية إلى تتبع مسارها والمجال الذي لامسته وطبيعة أفرادها والعراقيل التي تعرضوا لها، بقدر ما نود أن نبرز دورها في تكريس الوجود الفرنسي المباشر الذي تمخض عنه احتلال البلاد مطلع القرن العشرين، ونحيل من أراد الاستزادة والتعمق في موضوع الرحلات الاستكشافية والمستكشفين إلى العمل القيم الذي قدمه الأستاذ محبو بن محمذن المجتمع البيضاني خلال 19 قراءة في الرحلات الفرنسية.

وتعد البرتغال الدولة السبّاقة في ارتياد الساحل الإفريقي، واكتشاف خفاياه خصوصاً الجانب الموريتاني منه، فقد وصله سنة 1444 وأسسوا محطة آركين، وشرعوا من ذلك الوقت في إنشاء مراكز تجارية في المناطق الداخلية¹.

غير أنه مع احتدام المنافسة الإسبانية وتراجع النفوذ البرتغالي تحولت أملاك البرتغال على الساحل الموريتاني إلى إسبانيا سنة 1580، وقد استمرت سيطرة هذه الأخيرة إلى حدود 1638².

بعد ذلك جاءت هولندا التي حاولت احتكار تجارة الصمغ ودخلت في صراع مع الإنجليز من أجل الاستحواذ على تجارة المنطقة والاستفادة من مقدراتها الاقتصادية.

وما يمكننا أن نلاحظه في هذا الصدد هو أن أغراض الرحالة الأوروبيين خلال هذه الفترة – أي من القرن 15 إلى القرن 19 – ظلت تجارية في المقام الأول ولم تظهر فيها النزعة الاستعمارية الساعية إلى السيطرة على الأرض والإنسان إلا مع القرن التاسع عشر عصر الرحلات الكشفية إلى المنطقة.

وتبرز أهمية المعلومات التي تقدمها الرحلات الاستكشافية في كونها جاءت شبه عفوية – مع المغالطات المتعمدة التي قدمها البعض³ – لذا فإن أصحاب هذه الرحلات تركوا معلومات مهمة شملت الجوانب الطبيعية والبشرية والاقتصادية للسكان، في حين لم تشد هذه الجوانب انتباه المؤلفين الموريتانيين فاشتغلوا على مواضيع أخرى أكثر ارتباطاً بالتاريخ الوقائعي (مثل وفيات الأعيان، والحروب...).

كما تبرز أهمية معلومات الرحلات الاستكشافية من جهة أخرى في أنها غطت جل المناطق الموريتانية، مما أعطى لهذه المعلومات – رغم المزالق – قيمة

¹ - محمد المختار ولد سيدي محمد: النضال الوطني، مرجع سبق ذكره، ص: 35.

² - نور الدين الشريدي: مرجع سبق ذكره، ص: 94.

³ - راجع محمد بن محمد: الرحالة الفرنسيون ودورهم في تشويه التاريخ الموريتاني، حوليات كلية الآداب، مرجع سبق ذكره، ص: 21-35.

مضافة خصوصا إذا ما وضعنا في الحسبان، أن أصحابها كانوا شهود عيان حين دونوا معلوماتهم عن السكان، وطرق عيشهم، والمجال الذين يقطنون فيه.

ولا نحاول التركيز على هذه الرحلات، نظرا لعدم أهميتها المباشرة لموضوع البحث – وإن كان الحديث عنها ضروريا في بعض الجوانب – لذلك فإننا سنورد بعض النماذج من هذه الرحلات الكشفية استئناسا بها، وإظهارا لأهميتها بالنسبة للوجود الفرنسي في المراحل اللاحقة، فالمعلومات التي قدمها أصحاب هذه الرحلات؛ هي التي اعتمدت عليها القوات الفرنسية للتغلغل داخل البلاد.

ولعل من أهم الرحالة الذين زاروا المنطقة خلال النصف الأول من القرن التاسع، الرحالة ريني كايي¹ الذي زار منطقة لبراكنة سنة 1824 مدعيا الإسلام، ومحبة اللغة العربية، وشرائع الدين الإسلامي، وقد نشرت رحلته في ثلاثة أجزاء أفرزت حوالي 200 صفحة، خصص الجزء الأول منها لحياة السكان في منطقة لبراكنة وبعض عاداتهم وتقاليدهم².

إن هذه الرحلة مكنت صاحبها من جمع معلومات مهمة متعلقة بالناحية التجارية، والجغرافية، للمنطقة التي لامستها، حيث أشار إلى خصوبة أرض لبراكنة وكثرة المواد الأولية بها، ثم وجود صناعة محلية تلبي الحاجات الأساسية للسكان المحليين³.

ومع ذلك فإن معلوماته حول المنطقة لم تسلم من الأحكام المسبقة والإطلاقات الجاهزة من ذلك ما أورده الرائد جلييه عندما تحدث عن صاحب هذه الرحلة – وهي أحكام وقع فيها جلييه نفسه حيث يقول: " .. وفي وصفه لحي أمير لبراكنة (يعني

¹ - هو المشهور في الأدبيات الشعبية: بولد "كيجه النصراني" ولد في فرنسا سنة 1800، ثم ما لبث أن ظهر شغفه بالترحال والأسفار، وقد كان مولعا بالوصول إلى مدينة تنبكتو التي طالما أثارت فضول الأوربيين وألهبت خيالهم، وبالفعل فقد تمكن في 20 ابريل 1828 من الوصول إلى هذه المدينة بمجهود شخصي منه، بعد أن رفضت الحكومة الفرنسية دعم الرحلة، توفي في فرنسا وهو ما يزال في مقتبل العمر سنة 1838.

² - نور الدين الشريدي : مرجع سبق ذكره، ص: 96.

³ - محمد الرازي بن صدفن.

كاي) يشير إلى السمات الواقعية لطبائع هؤلاء البيضان المتعجرفين والطماعين..."¹ فقد وصف جلييه البيضان بأنهم متعجرفون في معاملاتهم، وطمّاعين فيما في أيدي الآخرين، وهذه الأحكام كثيرة لا يكاد يسلم منها كتابة الذي تتجذر فيه النظرة المتعالية وعدم الموضوعية اتجاه الآخر.

المهم أن جلييه نقل عن كاي قوله: حين وصف حي أمير لبراكنة "كان حي الأمير أحمدو² أيام إقامتي بينهم قرابة 100 خيمة، و 400 إلى 500 من السكان، فإذا حصل الأمير الرسوم العرفية³ امتلاً حيه من الضيوف الذين جاؤوا للحصول على بعض الهدايا، وقد رأيت بعضهم ظل ينتظر ثلاثة أشهر في أمل الحصول على 3 أذرع من قماش النيل.. ويقيم هؤلاء الطفيليون في أول خيمة يتم استقبالهم فيها، ويظنون يتسولون مرتين في اليوم مساء صباحاً... وخلال النهار يظنون يتسكعون في الحي مثنى مثنى"⁴.

ونحن نعتقد أن خروج كاي المبكر من المدرسة وعدم استطاعته تكميل تعليمه الأساسي وعدم معرفته لهجة القوم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وخصوصياتهم الاجتماعية أمور جعلت معلوماته ناقصة وأحياناً مغلوبة ومشوهة وبعيدة عن الحقائق. ولا نستبعد أيضاً أنه تعرض لعدة مضايقات من السكان، بسبب سحنته الأوروبية – خصوصاً إذا علمنا أن العوام يعتقدون أن كل الأوربيين مخالفين للملة ولا يجوز التعامل معهم – مما جعل معلوماته أكثر حدة اتجاه هؤلاء.

وخلال الأيام الأخيرة من سنة 1859 وبالتحديد يوم 9 ديسمبر 1859 سيقوم ضابط البحرية ماج⁵ برحلة نحو تكانت، ساهمت في تدشين التوغل داخل أرض

¹ - جلييه، مصدر سبق ذكره، ص: 90.

² - يقصد الأمير البركني أحمدو بن أعلي الأول.

³ - يقصد الإتاوات التي يدفعها الأوربيون جراء الاتفاقيات التجارية وتأمين طرق القوافل ونقاط التبادل.

⁴ - جلييه، مصدر سبق ذكره، ص: 91.

⁵ - ولد أيجن أبدون ماج في 30 يوليو 1837 في باريس، انضم إلى المدرسة البحرية سنة 1850 ولم يتجاوز الثلاثة عشر من العمر، منح رتبة ملازم بحري أول سنة 1855 وفي السنة الموالية تم نقله إلى القاعدة البحرية الفرنسية بالسواحل الغرب إفريقية، ومنها ستكون صلته بالجنرال فيدرب الوالي العام على السنغال، وستكون

البيضان، حيث يَمّ وجهه شطر "تكانت" بتوجيهات مباشرة من الوالي الفرنسي على السنغال فيدرب، وكانت رحلة ماج هذه تهدف إلى بعض الأمور من بينها:

- ربط صلات دائمة مع السكان.
- توقيع اتفاقيات تجارية مع الزعماء المحليين.
- جمع أكبر عدد ممكن من المعلومات عن المنطقة.
- الوصول إلى المدن الموريتانية المهمة والتي لها وزن تاريخي واقتصادي¹.

وقد تمكن ماج من وضع خرائط مفصلة عن المنطقة، بما في ذلك المسالك الجبلية، ونقاط المياه، والتجمعات السكنية، والمقدرات الاقتصادية التي تتميز بها المنطقة، خصوصا من مادة الصمغ "العلك" الرائدة تجاريا آنذاك².

وفي سنة 1860 أوفدت الحكومة الفرنسية في السنغال المستكشف الفرنسي "فينسان" إلى منطقة آدرار³، ورافقه في هذه الرحلة الطويلة ابن المقداد⁴، حيث استطاع أن يصل إلى أركين، وبرتانتيك، مخترقا بذلك أرض تيرس، ثم اتجه إلى وادان، وشنقيط، وأطار، غير أنه لم يتمكن من دخول هذه المدينة الأخيرة، لاحتجازه من طرف أمير آدرار بعد أن شم فيه رائحة التجسس، مما اضطره إلى الرجوع على آثاره عائدا إلى سان لوي⁵.

صلته بالمجال البيضاني الذي شد الرحال إليه في نهاية عام 1859 وبداية تاليه، أدركته المنون وهو على ظهر سفينة كان يقودها في 18 نوفمبر 1869 وهو لا يزال آنذاك ابن الثانية والثلاثين.

¹ - محمو ولد محمدن: مرجع سبق ذكره، ص: 179.

² - محمد المختار بن سيدي محمد: النضال الوطني، مرجع سبق ذكره، ص: 39.

³ - سلاسل جبلية في الشمال الموريتاني.

⁴ - من أصل سنغالي، اشتهر في الروايات الشفوية المحلية بكرمه وحسن ضيافته، حتى أن البعض يوغل في وصفه بالكرم إلى حد أنه نزع أبواب داره عندما علم أن رجالا من البيضان طرقوه ليلا ووجدوه قد سد الأبواب فباتوا في العراء!!، وقد ربطت ابن المقداد علاقات مع عدد من المجموعة البيضانية خصوصا مع الشيخ سعد بوه الذي استغل توصياته من أجل الحماية من بطش الطامعين، راجع: الخليل النحوي، ص: 326-327.

⁵ - محمد عبد الرحمن بن عمار: مرجع سبق ذكره، ص: 112.

وعلى الرغم من أن فينصان تمكن من جمع معلومات مهمة عن آدرار، لم يسبق لأي أوروبي أن جمعها، فإن فائدة هذه المعلومات كانت كبيرة بالنسبة للجيش الفرنسية حتى بعد نصف قرن، فقد استفاد العقيد غورو gouraud من معلومات فينصان أثناء حملته العسكرية على آدرار سنة 1909¹.

ولم تسلم معلومات فينصان هو الآخر حول السكان من بعض المبالغات والأحكام المطلقة؛ فقد ذكر أن البيضان المحاربون "...كذابون، ومنافقون، وسراق ومصيبة للمجتمع يستوي في ذلك القريب، وصاحب القافلة الغريب، ولا يحترمون شيئاً وقتل الإنسان عندهم أمر زهيد، إذا كانوا يطمعون في الحصول على نهب أي كان وواثقون من عدم العقاب... وكذلك فإن جميع المسافرين مجمعون على طابع المكر والقساوة في البيضان وقليل من أولئك الذين دخلوا هذه الأقاليم وسلموا من نهب أو قتل"².

وهنا نلاحظ بجلاء النظرة المتشائمة والضبائية لهذا الرحالة اتجاه سكان الإقليم، فلم يتورع عن وصفهم بأقبح الأوصاف وأشنعها (كذابون، منافقون، سراق...).

وإذا كانت رحلة ريني كاي إلى لبراكنة وماج إلى تكانت، قد قدمت معلومات لا بأس بها حول المنطقة التي لامستها الرحلتان، فإن هذه المعلومات لم تكن كافية من وجهة النظر الفرنسية، لذلك تم إيفاد كل من ضابط البحرية بورل Bourrel إلى لبراكنة، والملازم السنغالي الأصل علي صل³ إلى لبراكنة ومنها إلى تكانت والمدن التاريخية.

¹ - المرجع السابق 113.

² - جليبه: مصدر سبق ذكره، ص: 99.

³ - علي صل 1830-1863 بعد عودة فنصان من آدرار، وماج من تكانت وتعرضهما للنهب وعدم تمكنهم من دخول المدن التاريخية، بسبب موقف السكان المتشدد اتجاه الأوربيين، قرر فيدر ب إيفاد أحد السنغاليين المخلصين بغية دخول المجال البيضاني ودخول المدن التاريخية التي ظلت مستعصية عليهم، وكان صاحب هذه المهمة علي صل الذي ساعدته معرفته باللغة العربية وإسلامه في إنجاز هذه المهمة.

استطاع بورل إنجاز مهمته بسهولة نتيجة الاستهيلات التي قدمها له الأمير البركني سيد أعلي، فقدم معلومات مهمة عن بحيرة آلاك¹.

أما علي صل، فقد كانت مهمته شاقة ومضنية ونجح فيها إلى حد بعيد، فقد كانت توصيات الوالي الفرنسي على السنغال تقضي بأن يضع حدا للصراعات التي تعصف بإمارة لبراكنة، ثم يتجه إلى تكانت ثم الحوضين² لزيارة مدينة ولاته ثم تنبكتو.

في الشطر الأول من مهمته المتمثل في فض النزاع بين الأطراف المتنازعة، استطاع "علي صل" التوصل إلى تسوية بين طرفي النزاع أولاد نغماش وأولاد السيد³ بعد مفاوضات استمرت ثلاثة أشهر⁴.

ثم اتجه إلى تكانت وحاول استمالت أميرها بكار بن اسويد أحمد⁵، وقاسمه أنه تخلى عن خدمة الفرنسيين وأنه قادم إلى مكة من أجل تأدية الحج، غير أن الأمير بكار لم تقنعه هذه الحجج، فاحتفظ بالراحة علي صل كشبيه أسير، إلى ان تمكن هذا الأخير من الفرار مستغلا ذهاب بكار إلى آدرار، فرجع إلى سان لويس وبجعبته معلومات تهمة الإدارة الفرنسية حول السكان والقيادات المحلية.

وخلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، تسارعت وتيرة الرحلات كما، وكيفا؛ حيث كادت تشمل جميع الأراضي الموريتانية، وكان الرحالة أنفسهم ذو مشارب مختلفة فمنهم المدني، والعسكري، ومنهم العالم المتبحر، ومنهم المأجور المسخر⁶.

¹- جليبه: مصدر سبق ذكره، ص: 105.

²- يقصد بالحوضين: الحوض الشرقي وعاصمته الآن النعمة، والحوض الغربي وعاصمته عيون العتروس المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد.

³- راجع إمارة لبراكنة في الفصل الأول.

⁴- محمو بن محمدين، مرجع سبق ذكره، ص: 156.

⁵- راجع: الترجمة التي قدمناها لهذا الأمير - الذي يعتبر من أطول أمراء البيضان مكونا على كرسي الإمارة - في الفصل السابق.

⁶- من أهم تلك الرحلات:

- رحلة ملازم البحرية شرافير سليلي Solullet 1886 إلى آدرار.

- رحلة دولس Douls 1887 إلى الشمال.

وسيتم في إبريل 1900 إرسال أكبر بعثة استكشافية فرنسية تسيير إلى المنطقة في ذلك الوقت، وهي المعروف ببعثة بلانشي¹.

وكانت هذه الرحلة تهدف إلى زيارة مناطق الترازرة، وإينشيري، وآدرار، وجمع المعلومات حول هذه المناطق، وذلك بهدف تأكيد وجود معادن مهمة بباطن الأرض، كما تهدف هذه الرحلة إلى دراسة إمكانية مد خط حديد بين السنغال، والجزائر، ومخترقا الأراضي الموريتانية².

إن هذه الرحلات الاستكشافية الاستخبارية كانت أداة تمهيد لغزو البلاد مع مطلع القرن العشرين. فالمعلومات التي تم جمعها كانت ضرورية ولا غنى للجيش الفرنسية عنها، فبسببها أصبح الفرنسيون على علم كامل بالمنطقة (الزعماء المحليون، وعدد السكان، ونشاطهم الاقتصادي، وطبيعة التضاريس، والإمكانات التجارية...).

وبناء على معلومات هؤلاء الرحالة والمستكشفون كانت الدوائر الفرنسية تصيغ الخطط الكفيلة بوضع اليد على المنطقة، والاستحواذ على مقدراتها الاقتصادية، وقطع الطريق أمام الدول الأوروبية المنافسة.

غير أن المجتمع لم يقف مكتوف الأيدي حيال السياسات الفرنسية الرامية إلى الاستحواذ على البلاد، فإن كان أصحاب الشوكة (حسان) قد وقفوا في وجه فرنسا عسكريا، فإن أصحاب القلم (الزوايا) وقفوا كذلك في وجهها معنويا من خلال تعبئة المجتمع ضد السياسات الفرنسية.

- رحلة Léon Fabert سنة 1891 إلى الترازرة.
- رحلة Donnet سنة 1894 إلى آدرار.

راجع جلييه مصدر سبق ذكره، ص: 87 إلى 120.

¹ - ولد بول بلانشي 1870 في باريس وقد توفي في دكاك شهر اكتوبر 1900 على إثر الإعياء والتعب الذي أصابه نتيجة فترة الأسر (77 يوما)، قضاها في آدرار هو ورفاقه الفرنسيون، بعدما شموا فيهم رائحة الجوسسة، ولم يتم تخلصهم من الأسر إلا بعد تدخل الشيخ سعد بوه، راجع: محمد بن محمد، مرجع سبق ذكره، ص: 167-171.

² - محمد بن محمد: المرجع السابق، ص: 192.

خامساً: موقف الطبقة العاملة من الوجود الفرنسي خلال القرن التاسع عشر
نحاول في هذه النقطة تسليط الضوء على إسهام الطبقة العاملة¹، في رد القوى
الأجنبية المتكالبة على المنطقة، ودورها في تجييش الرأي العام المحلي، على
ضرورة توحيد الصف والوقوف في وجه الوافد الأجنبي، وسنركز بطبيعة الحال
على القرن التاسع عشر باعتبار أن السياق يقتضي منا ذلك.

وإذا كانت المقاومة العسكرية مطلع القرن العشرين قد رافقتها مقاومة ثقافية²
تمثلت في قطع التعامل مع الفرنسيين ومقاطعة مدارسهم والحث على الابتعاد عن
وظائفهم السياسية، فإنه أيضاً قد وجدت خلال القرن التاسع عشر – مع عدم تبلور
الوجود الفرنسي بشكل كامل – مقاومة ثقافية أحييت من خلال الفتاوى الفقهية،
والأشعار الحماسية، درس المقاطعة الكاملة للتعامل مع "النصارى"³.

لقد تطور الوجود الأوربي عموماً، والفرنسي على الخصوص من تجاري
بحت إلى شبه استعماري مع بداية القرن التاسع عشر، ثم استعماري بشكل واضح
مطلع القرن العشرين، ورغم خطورة هذا التطور فقد ظل منطق الطبقة العاملة من
هذا الحضور دينياً، يعتمد على حماية بيضة الإسلام، وذم التعامل مع المخالفين في
الدين، والهجرة عن الأرض التي لا تقام فيها شرائع الإسلام، دون أن يكون للدافع
الوطني، وحمائته ضد المعتدين حضور في وجدانهم.

إن سياسة الاستعمار الزراعي التي انتهجتها السلطات الفرنسية – كما أسلفنا،
– أدت إلى نشوب حرب بين الأمير التروزي أمير بن المختار (1800-1829)
والفرنسيين، عرفت بحرب الاستعمار الزراعي 1819، والتي توجت بعقد اتفاقية
سلام 1821، وخلال هذه الحرب سعى الطرف البيضاني، إلى الضغط على الجانب

1- نقصد بذلك الفقهاء والعلماء.

2- كما سنرى في الباب الموالي.

3- تعمدنا هذه اللفظة لأنها الأشمل عند العقليّة الاجتماعية المحلية فهي تعني كل الأوربيين على اختلاف جنسياتهم.

الفرنسي عن طريق المقاطعة الاقتصادية، ومنع التبادل التجاري من خلال تحريم بيع مادة الصمغ "العلك" الرائجة حينها.

لم يكن المجتمع المحلي على قناعة واحدة بجدوائية المقاطعة الاقتصادية، فهناك من يبحث عن مصالحه الخاصة، وهناك أيضا الجانب المعارض للأمير الذي يرى في هذه المقاطعة خدمة الأمير، وحاشيته المقربة، دون أن يكون فيها نفع عام يرجع السكان، وبطبيعة الحال سعت هذه المجموعات إلى خرق هذا الحظر، وبادرت إلى بيع المواد التجارية للفرنسيين المرابطين عند المراكز التجارية على النهر، لذا تولت مجموعة من الفقهاء صياغة المشروع الرسمي في فتاوى تحرم التعامل مع الفرنسيين وتحت الساكنة على مقاطعة التعامل التجاري معهم.

ومن بين هؤلاء الفقيه أحمد بن العاقل¹ في فتواه التي جاء فيها²:

"...إنه من أحمد بن العاقل إلى من بلغه من المسلمين، إعلام بأن من أعان الكافرين على المسلمين فقد فارق جماعة المسلمين، وصار من الكافرين، كما دل عليه مفهوم قوله تعالى: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ الآية³، ودلت الآية على أن مودة الكافرين تنافي الإيمان ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾⁴ فيجب على كل مسلم ساكن في بلد لا يقدر فيه على ذب الكافرين عن نهب أموال المسلمين وسبي أحرارهم، أن ينتقل من ذلك المكان إلى مكان آخر يقدر فيه على ذلك، وإلا صار من الكافرين...".

نلاحظ أن أحمد بن العاقل قد أوصل القضية مداها، فهو يعتبر أن مجرد مساكنة الكفار مع عدم القدرة على رد أذاهم عن المسلمين، مخرجا من الملة،

¹ - أحمد بن العاقل: أحد الفقهاء المشهورين ينتمي إلى أسرة أهل العاقل المعروفة بالعلم والقضاء، توفي سنة 1828.

² - من وثائق الأستاذ محمد الأمين بن سيدي أحمد، له منا جزيل الشكر.

³ - سورة المجادلة، الآية 22.

⁴ - سورة النور، الآية: 63.

وينسحب على صاحبه إذا لم ينتقل عن ذلك المكان حكم الكفر، مع ما يترتب على ذلك من الأمر (استباحة الدم، والمال، والعرض).

وهناك مسألة نرجو أن يكون استنباطنا لها سليما، وهي أن الفقيه ابن العاقل في هذا المقطع الساكن ذكر مساكنة الكافرين وجعلها بمثابة الكفر، ولم يذكر تحريم بيع العلك وإعانتهم المادية، فإذا كان - حسب اعتقادنا - قد جعل المكوث في الأرض التي فيها المخالفين للملة كفر، فمن باب أولى الاتجار معهم وتقديم المساعدة لهم، فهي من أشنع الأفعال، وربما القياس هنا حاصل من باب قياس الأمر الأخف على الأشنع، فعندما يحرم الأخف فمن باب أولى الأشنع.

ولم يكن الوعي بالخطر الفرنسي المحقق بالبلاد غائبا عن ذهن الفقيه سيدي محمد بن الشيخ سيديا،¹ عندما صاغ خطورة الموقف في قصيدته "حماة الدين"²، حيث يقول فيها:

أسييرا للصوص والنصارى	حماة الدين إن الدين صار
وإلا يسبق السيف البدارا	فإن بادرتموه تداركوه
لمن والى من طلب انتصارا	بأن تستنصروا مولى نصيرا
من الأسواء كل من استجارا	مجيبا دعوة الداعي مجيرا
تغص به السباسب والصحارى	وأن تستنفروا جمعا لهاما

وكان الشيخ سيدي محمد في قصيدته الطويلة هذه التي اخترنا منها هذا المقطع، ينادي بني جلدته إلى ضرورة التوحد في وجه الأعداء، ويستنهض الهمم إلى المبادرة إلى حماية الدين من اللصوص والنصارى، فإن بادروا وتوحدوا، تداركوا الأمر، وإلا فإن السيف سيسبق العذل، وسيكون الندم حين لا ينفع الندم.

¹ - محمد بن الشيخ سيديا (1832-1869) أحد أبناء الشيخ سيديا الكبير، وهو شاعر وفقه ومنتصوف، له مؤلفات عديدة في الفقه واللغة.

² - راجع نص القصيدة كاملة في المنارة والرباط، مرجع سبق ذكره، ص: 400-401-402.

ويصور الفقيه نصره الدين بأنها عن طريق موالاته، ونصرة من طلب النصره من المسلمين، وعدم التخلي عنه وتركه وحيدا في وجه اللصوص والنصارى، كما يدعوهم إلى الإستنفار جميعا حتى تمتلئ منهم الأودية والصحاري وكل ذلك في سبيل إرهاب العدو.

مثل هذه المواقف نجدها أيضا عند الفقيه اجود بن اکتوشني¹، حينما يحث الناس على مواصلة الحصار الاقتصادي الذي فرضه الأمير محمد لحبيب (1829-1860) أثناء حربه مع الوالي الفرنسي على السنغال فيدر، والتي استمرت من (1854-1858) وكان الفقيه اجود حينها من بين العلماء الذين حثوا السكان على الجهاد إذ يقول في قصيدته الموسومة بـ: "أيها المسلمون شدوا عليهم"²:

جاهدوا في الإله حق جهاد	ولتكونوا لربكم أنصارا
وانفروا للوغي خفافا ثقالا	لا يثبطنكم اللعين اغترارا
لا تخونوا إمامكم وانصروه	إن في خونه لذلا وعارا
فانصروه ينصركم الله طرا	واقتلوا المشركين والفجارا
يا "حبيبا" ³ أوجف عليهم بخيل	وبرجل يهدم الأمصارا
صابروا واصبروا على الجهاد وشبوا	لحروب العدى الكثيرين نارا

كما استغل الفقيه اجود مكانته العلمية إلى حض الناس على عدم بيع العلك للفرنسيين وعلى الالتزام بالحصار المفروض على التجارة حيث يقول:

لا تعينوا بالعلك حزب الأعداي	أتعينون أثمنا كفارا
فاقطعوا عنهم الشراء حذارا	أن يصروا على الأذى إصرارا
فإذا ما أعنتموهم أساؤوا	وأصروا واستكبروا استكبارا

¹ - اجود بن اکتوشني العلوي ت 1872 عالم وفقه، له عدة مراسلات مع فقهاء المنطقة، وأحد الدعاة إلى الجهاد المسلح ضد الفرنسيين.

² - راجع نص القصيدة الكامل في المنارة والرباط، ص: 403-406.

³ - يقصد محمد لحبيب أمير الترارة.

ومن قبل هؤلاء الفقهاء نجحت المساعي الحميدة التي قادها العلامة سيدي الكبير¹ من أجل توحيد صفوف الإمارات البيضانية للوقوف في وجه الأطماع الفرنسية المحدقة بالبلاد، وقد تمخض عن هذه المساعي اجتماع "تندوجة"² الذي ضم كلا من أمير الترارزة، ولبراكنة، وآدرار، وممثلا عن إمارة إدوعيش، وكانت لهذا المؤتمر نتائج طيبة³، أقلها أن الجميع جلس في مكان واحد ليناقد مشاكل تهم الجميع.

كما وقف الشيخ سيدي بابيه، ومريديه، إلى جانب أمير لبراكنة محمد بن سيدي في حربه ضد الجيش الفرنسي المتحالف مع غريمه سيدي بن اعلي الطامع حينها في عرش الإمارة، وقد انهزم الجيش الفرنسي شر هزيمة في موقعة "الركبة" 6 يونيو 1856⁴.

وعموما يمكننا أن نعتبر أن نبرة صوت الفقهاء طبعها الحدة تجاه الوجود الفرنسي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، غير أنه ما إن مالت الكفة لصالح القوات الفرنسية – بعد انتصارهم في الحرب ضد محمد لحبيب، وتوقيع معاهدة 1858 التي تم بموجبها التخلي عن الجانب الأيسر من النهر، وتغيير شروط التبادل التجاري – حتى خفت النظرة العدائية اتجاه الفرنسيين.

وشرع فقهاء المرحلة بعد ذلك، في صياغة الحجج التي تثبت أن هذه المعاهدة بمثابة ميثاق وعهد لا يجوز للمسلمين اختراقه، ويلزم منه الامتنال للبنود الواردة فيه، ما لم ينكل الجانب الفرنسي، ويولي ظهره لتلك الموائيق، ولم تتغير نظرة الفقهاء

¹ - تناولنا هذه النقطة في الفصل الأول.

² - بئر في منطقة الترارزة.

³ - منها : الصلح الذي حصل بين أمير آدرار، واطرارزة، وعليه فقد أغلقت عن هذا الأخير جبهة داخلية كان بإمكانها أن تطعنه من الخلف، وهو يحارب الفرنسيين على النهر.

⁴ - السعد: إمارة اترارزة، مرج سبق ذكره، ص: 565.

المسالمة للفرنسيين - تقريبا - إلا عندما حاول الجانب الفرنسي تقويض النظام
الأميري بداية القرن العشرين¹.

ولا يفوتنا أن نذكر بأن ظروف التنافس بين الدول الأوروبية، أتاحت الفرصة
أمام الأمراء للمساومة والاستفادة من جميع الأطراف، غير أن هذه القاعدة ستتلاشى
بعد خلو الساحة لفرنسا، مما جعلها تتحكم في المبادلات التجارية - مستغلة الخلافات
بين الأمراء وشيوخ القبائل - عن طريق جملة من الاتفاقيات- أدت من بين أمور
أخرى- إلى تغلغل البضاعة الأوروبية في المجتمع، وبعث الخلافات القديمة من
مرقدها بين الأطراف المحلية، وهذا كله أسهم في تدمير البنى الاجتماعية التقليدية
(السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية) وأوجد الأرضية المناسبة للتدخل العسكري
الفرنسي المباشر.

¹ - سنعرض بحول الله لهذه القضية في فصل مستقل أثناء حديثنا عن الدخول العسكري الفرنسي المباشر وردود
الفعل عليه.

الباب الثاني:
الوجود الفرنسي في موريتانيا
بين إثبات الوجود وإكراهات
الاستمرار

كانت فرنسا خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر عازمة على احتلال البلاد، ويظهر لنا ذلك جليا من خلال الرحلات الكشفية التي بعثت بها الإدارة الفرنسية في السنغال إلى المجال البيضاني¹، ولا نستبعد هنا أن نتائج هذه الرحلات والمعلومات التي قدمتها حول الإقليم وساكنته كان لها كبير الأثر على مسيرة الاحتلال بعد ذلك.

وربما من نافلة القول أن العشرية الأخيرة من القرن التاسع عشر (1890 - 1900) قد شهدت تحولا في العلاقات الموريتانية- الفرنسية، رافق ذلك تغير في نظرة هذه الأخيرة إلى المنطقة، ولعل السبب في ذلك راجع إلى عامل ذاتي متعلق بالنظام الأميري وآخر متعلق بالعامل الاقتصادي، فعلى المستوى الأميري أصبح الجهاز الأميري متأكلا وآيل إلى السقوط، وأي ضربة من فرنسا ستؤدي إلى انهياره، أما على المستوى الاقتصادي، فقد أصبحت "مادة الصمغ" - التي مثلت العمود الفقري للتبادلات التجارية، ومثلت كذلك أداة للصراع الأوروبي على المنطقة - في مرتبة ثانوية من الاهتمامات الفرنسية خصوصا بعد ظهور بدائل² عن هذه المادة الغالية نسبيا حينها غير أن التراجع الاقتصادي الذي أصاب البلاد لم يكن ليؤثر على مكانتها في قلب الأطماع الفرنسية، خصوصا إذا ما اعتبرنا أن البلاد تتوفر على معطى أهم وأكثر تأثيرا ألا وهو الموقع الاستراتيجي.

¹ راجع ما كتبناه في الفصل الثاني من الباب الماضي حول هذه الرحلات.
² حاولت فرنسا إيجاد بدائل عن التجارة الصمغ تتعش من خلالها اقتصاد السنغال، وتستغني بها من ناحية أخرى عن الصمغ الذي تنتجه الإمارات البيضانية - والتي لم تكن علاقتها معها في بعض الأحيان على ما يرام - فعمدت إلى زراعة الفول السوداني على مساحات واسعة، وكانت المنطقة الملائمة لزراعته هي منطقة "الو" التي تدعى إمارة الترارزة حينما تبعثها لها، وهذا ما جعل علاقة الطرفين تشهد توتر كنا قد ألمحنا لبعض جوانبه فيما سبق.

فالمجال الذي تتواجد فيه القبائل البيضانية مجال شاسع وشبه فارغ من السكان، لكنه في نفس الوقت يحتل موقعا استراتيجيا نظرا لوقوعه بين مستعمرات فرنسا في شمال إفريقيا (تونس، الجزائر وفيما بعد المغرب)، وأخرى في الجنوب الإفريقي (وهي ما اصطلح على تسميتها بإفريقيا الغربية الفرنسية)¹، وبالتالي فإن الربط بين هذه المستعمرات لن يتم إلا بالسيطرة على ما يطلق عليه حاليا "موريتانيا"².

¹ يجدر التنبيه إلى أن فرنسا ضمت موريتانيا عنوة إلى مجموعة إفريقيا الغربية الفرنسية (A.O.F) والتي كان مقرها في سان لوي، وذلك لبتير كل علاقة لهذه البلاد مع ماضيها خصوصا فيما يتعلق بالروابط الحضارية والثقافية والبشرية مع الشمال الإفريقي.

² اشتهرت البلاد الموريتانية الحالية (موريتانيا) بعدة تسميات عبر الحقبة تاريخية، ولم تعرف اسما جامعا لها فقد عرفت باسم صحراء الملتمين، وبلاد تكرور، والبلاد السائبة، ولعل من أشهر التسميات التي أطلقت على هذه البلاد هي شنقيط التي أطلقها المشاركة خلال القرن 18 رغم أنها من باب "تسمية الشيء ببغضه" فهذه المدينة تقع في الشمال لكنها كان ينطلق منها ركب الحاج في اتجاه الديار المقدسة.

أما تسمية موريتانيا فقد أطلقها الضابط الفرنسي "جان فرانسوا كاي Jean-François / caille" سنة 1843 على هذه البلاد قبل أن يتبناها كزافي كبولاني بنصف قرن ورغم ذلك فإن هذه التسمية لم تأخذ طابعها الرسمي إلا في 27 سبتمبر 1899 عندما أصدرت وزارة المستعمرات الفرنسية قرار يقضي بإطلاق هذا الاسم على البلاد.

- راجع: محمد وبن محمد: بصدد تسمية موريتانيا "ترجمة وتحقيق وثيقة فرنسية مؤلفة 1843 حوليات كلية الآداب، عدد السادس 1999 ص: 53-56.

- أحمد بن الحسن: الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر، مرجع سبق ذكره ص ص 13-23.

- أكمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدياء شنقيط مرجع سبق ذكره ص: 422. وما بعدها.

الفصل الأول: الاحتلال الفرنسي لموريتانيا

عمدت فرنسا على تطبيق سياسية طموحة و متماسكة إلى حد كبير رمت من خلالها التمهيد للاحتلال، فقامت بخلق وتغذية الصراعات والأزمات التي كان النظام الأميري يتخبط فيها، وبالتالي خلق مبررات للتدخل في الشؤون الداخلية، ولعبت دور الطرف الذي "يمكن الاعتماد عليه" في حل النزاعات وفض الخلافات (صراعات قبلية، نزاعات حول مناطق النفوذ، ونقاط المياه، تولية الأمراء....)

وفي ظل هشاشة السلطة الأميرية، وارتباط هذه الأخيرة اقتصاديا بالإدارة الفرنسية، وجدت فرنسا من خلال هذين المعطيين الفرصة المناسبة لعقد مجموعة من الاتفاقيات، قلصت من خلالها من نفوذ سلطة وهيمنة الإمارات على حساب تزايد مستمر للنفوذ الفرنسي.

إن الاتفاقيات التي عقدها فرنسا مع أمراء المنطقة خلال العشرية الأخيرة من القرن التاسع عشر، نجد أنه تسرب إليها معطى جديد، حاولت فرنسا التركيز عليه وربما لم يكن الطرف الآخر مستوعبا لخطورته، وهو مصطلح "الحماية الفرنسية".

فقد نصت اتفاقية 1891 بين أمير البراكنة: سيد أعلي والطرف الفرنسي ممثلا في هنري دولاموت¹، على ما يلي:

"تعتبر الحكومة الفرنسية سيد أعلي أميرا لبيضان البراكنة وابنه أحمد خليفة له، بإسم سيد أعلي وخلفائه في الإمارة يضع البراكنة ورعيته وماله تحت حماية فرنسا، ويتقاضى الأمير ألف بيصة من النيلة² ابتداء من 1892/1/1 وذلك لمدة ثلاثة أشهر³...."

¹ الحاكم الفرنسي على مستعمرة السينغال.

² سبق التعريف بها في الفصل السابق.

³ الشريدي: مرجع سبق ذكره ص:115.

ولم يقتصر الأمر على إمارة لبراكنة، بل تعداها إلى إمارة (دوعيش) فموقع هذه الأخيرة¹ جعلها محط أنظار القوات الفرنسية، لذا نجد الوالي الفرنسي السابق الذكر يوقع اتفاقية مماثلة في 21 مارس 1894 مع شيوخ قبيلة ادوعيش "فرع اشرايتيت" حيث جاء في نص المعاهدة: "... يضع شيوخ اشرايتيت أنفسهم ورعيتهم تحت الحماية الفرنسية ويتعهدون بطرد كل مسلم يقوم بأعمال تخريبية تمس أمن الفرنسيين، كما يتعهدون بحماية التجارة، وفي المقابل تدفع لهم فرنسا 500 بيصة من النيلة سنويا..."²

في 8 مارس من العام الموالي - أي في سنة 1895 - وقع القبطان مالفا يدي Malfayde³ إتفاقية مع الحسين ولد بكار⁴ عن فرع أبكاك وجاء في ديباجتها: "...إعادة العلاقات التجارية بين السنغال وادوعيش ابكاك، باسمي واسم والدي أضع إمارة ادوعيش تحت الحماية الفرنسية، وفي المقابل تدفع لها 600 بيصة من النيلة..."⁵

من خلال ما سبق نلاحظ أن السلطات الفرنسية كيفت اتفاقياتها السابقة الذكر مع كل مجموعة مراعية عامل الخصوصية الذي تتمتع به كل مجموعة على حدة، وبما يضمن المزيد من الفوائد والمزايا للسلطات الفرنسية ففي اتفاقيتها مع لبراكنة ركزت على عامل الشرعية، وبما أن هذه الإمارة كانت تشهد أزمة تولية، أو أزمة شرعية الأمير، حيث أن بعض الأطراف الداخلية لا تعترف بسلطة هذا الأمير فقد تم التركيز على هذه النقطة الحساسة.

وحسب اعتقادنا أن فرنسا أرادت توجيه رسالتين من خلال اتفاقيتها مع البراكنة، الأولى موجهة للأمير البركني والأطراف الموالية له، وهي أن اعترافنا

¹ تقع في وسط البلاد وتربطها حدود مع الإمارات الأخرى.

² محمد الأمين بن عبد الله: مرجع سبق ذكره ص: 92.

³ بعثة الحاكم العام على السنغال للتفاوض باسمه مع هذه المجموعة.

⁴ الحسين ولد بكار ولد اسويد أحمد، وهو ابن أمير تكانت (ادرعيش)

⁵ الشريدي مرجع سبق ذكره ص: 115.

بسلطة الأمير يعني دعمنا له، ولكن في المقابل عليه أن يقوم بعملية تنازل مستمر عن بعض سلطته لصالح فرنسا، وبقدر ما كان هذا المعطى لمصلحة الأمير بقدر ما سلط عليه، الرسالة الثانية – في اعتقادنا – موجهة إلى الأطراف المعارضة مفادها أن من يوالي فرنسا ويخلص لها المعاملة هو من يفوز في النهاية بكرسي الإمارة.

أما فيما يخص الاتفاقيتين الأخيرتين، فالأولى نلاحظ من خلالها أن فرنسا تعدت سلطة الأمير لتعقد اتفاقية مع شيوخ المنطقة، وهذا يعني أن تبحث عن من يضمن مصالحها ولا يهملها من كان، ويظهر لنا كذلك أنها أقدمت أولاً على عقد معاهدة مع أحد أطراف قبيلة ادوعيش فرع "اشراتيت" وهو الأضعف حتى ترغم الطرف الآخر "ابكاك" – وهو الذي بيده السلطة – على الرضوخ لشروطها، فخوف هذا الأخير من أن تصير السلطة مستقبلاً بيد غيره، أرغمه على توقيع الاتفاقية.

ونلاحظ حرص فرنسا على استتباب الأمن لها ومتابعة كل من تسول له نفسه تفويض نفوذها في المنطقة بشكل عام من خلال فقرة "ويتعهدون بطرد كل مسلم يقوم بأعمال تخريبية تمس أمن فرنسا" حيث تم التركيز على كلمة "مسلم" ولم يرد في النص كلمة بيضاني أو غيرها، حتى يكون اللفظ أعم، وحتى تدخل فيه شعوب كثيرة، خصوصاً وأن أصداء حركة الحاج عمر الفوتي¹ لا تزال تتردد في مسامع السودانيين المحاذين لهذه الإمارة.

وفي 1903/7/1 وقعت الإدارة الفرنسية مع أعيان الترابزة اتفاقية، تقضي بجعل هذه الإمارة وسكاناتها تحت الحماية الفرنسية، وتنازلوا عن صلاحياتهم لممثل الإدارة الفرنسيّة وقد جاء في نص المعاهدة ما يلي " سيد أحمد

¹ للمزيد حول حركة الحاج عمر راجع : دمباياتيرا : السودان الغربي والتطورات السياسية والاجتماعية بين القرن السابع عشر والنصف الثاني من القرن التاسع عشر بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ ، معهد جامعة الدول العربية، القاهرة 1991، ص120 ومابعدهما .

وببكر المختار وأخيارهم وأعمر¹ متكلمون بأنهم جاعلون أمرهم بيد نائب الدولة الفرنسية في كل ما فيه صلاح الأرض وعافيتها وكل ما فيه زيادة منافعها، وكل ما فعله النائب المذكور على الوجه المذكور فهو ماض عندهم مقبول"².

وهكذا أصبح الأمراء يخدمون الإدارة الفرنسية ويسهرون على مصالحها، بعد أن فلتت زمان رعاياهم من بين أيديهم، وتخلخت قاعدتهم الاقتصادية، وأصبحت الضرائب العرفية وسيلة للابتزاز، وعلامة لمنح الشرعية وامتيازاً تمنحه فرنسا لمن يخلص في ولائها، على نحو ما حصل مع أمير الترارزة ثم لبراكنة ثم تكانت وأدرار في مشهد لا يخلو من الغرابة³.

والحقيقة أن العمل العسكري الفرنسي فيما أصبح يعرف - لاحقاً - بموريتانيا قد بدأ في عهد الوالي الفرنسي على السنغال فيدر⁴، الذي يعتبر عهده بداية التغلغل الفرنسي في البلاد، ففي عهده وقعت المعاهدات⁵ التي تسمح لفرنسا بعبور النهر إلى الضفة الأخرى التي تتواجد فيها القبائل الموريتانية، وفي عهده كذلك تم توقيع معاهدة مع الأمير محمد لحبيب - كما مر معنا - بموجبها لا يسمح لأي تروزي يحمل السلاح بعبور نهر الضفة اليسرى التي يتواجد عليها الفرنسيون. فقد كانت هذه المعاهدات وغيرها، تكريساً لسياسية توسعية فرنسية محكمة، عملت على تعميق الخلافات بين الأمراء. وإذكاء النزعات الداخلية، حتى تسهل السيطرة على الجميع. وقد طبق خلفاء فيدر على السنغال - الذي كان بمثابة المعمل الذي تدار منه سياسة فرنسا اتجاه موريتانيا - سياسة سلفهم وإن حاولوا في بعض الأحيان الخروج عنها للجنوح إلى الإفراط في استعمال القوة، أو الركون إلى السلم

¹ هؤلاء هم أعيان الترارزة والشخصيات السياسية النافذة حينها .

² أمدنا بنسخة منها - مشكورا - الأستاذ المختار إحمية، ويجدر التنبيه إلى أن النسختين مختلفتين بعض الشيء ، ففي حين كانت النسخة العربية مقتضبة جاءت النسخة الفرنسية أكثر تفصيلاً.

³ محمد سعيد بن أحمدو :السمع العربي مرجع سبق ذكره ص: 316.

⁴ راجع ترجمته في الفصول الماضية.

⁵ كنا قد تطرقنا لبعض المعاهدات المهمة بين الإمارات البيضانية والجانب الفرنسي في الفصول السابقة، وكان تركيزنا حينها على أهم الاتفاقيات التي أبرمت بين طرفين والتي كان لها تأثير فيما بعد على مجرى العلاقات بين الطرفين.

أحيانا أخرى، حسب ما تمليه ظروف الآنية آنذاك، بيد أن كل الولاة المتعاقبون على الحكم السنغالي لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد الموريتانية – مع رغبتهم الجامعة – إلا في السنوات الأولى من القرن العشرين، عندما ظهر على الساحة السياسية المنظر الإستعماري كبولاني، وأصبحت كذلك الظروف المحلية والدولية مواتية للتدخل الفرنسي.

أولا: كبولاني وتأسيس الوجود الفرنسي في البلاد

لقد رأينا فيما سبق، كيف كانت الأحوال تتدهور في الإمارات جراء الأزمات السياسية والاقتصادية المتلاحقة، والتي لم تكن فرنسا بمعزل من تعميقها، ورأينا كذلك كيف بدأ الضعف ينخر في داخل الجهاز الأميري ويتسلل شيئا فشيئا إلى باقي أجهزة الإمارة، وكيف أصبحت فرنسا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر صاحبة السيادة على النهر والمناطق المجاورة له، وكيف استطاع فيدربر وضع حد لنفوذ الإمارات البيضانية على الجانب الأيسر من النهر، وتقليص نفوذهم إلى ما وراء الضفة اليمنى، وقد كانت تلك السياسات كلها تجسيدا لدوافع وهواجس أخذت تراود الأوروبيين نحو التوسع، أملت الحاجة إلى الأسواق والمواد الأولية، فضلا عن الاستحواذ على المناطق الإستراتيجية على السواحل لتأمين التجارة.

وإذا كانت فرنسا على مدى تواجدها في السنغال- 1815 إلى غاية بداية القرن العشرين- قد اعتمدت على سياسة تراوحت بين الترهيب والترغيب، في تعاملها مع النظام الأميري، فإنها ستعتمد هذه المرة أسلوبا جديدا للاستحواذ على المنطقة، يعتمد على محاولة الدخول إلى المجتمع عن طريق شيوخ الزوايا، وليس عن طريق الأمراء أصحاب السلطة الزمنية، مع عدم إهمال هذه الفئة الأخيرة، ولكن التركيز يتم على أصحاب السلطة الروحية (فقهاء، وشيوخ الزوايا...).

وسيكون مهندس هذه السياسة وواضع معالمها المنظم الاستعماري أكرافي كبولاني (X.capolani)¹. أكثر الإداريين الفرنسيين تحمسا لهذه السياسة.

فقد أدرك هذا الأخير أن السلطة الزمنية (الأمراء) محدودة التأثير، إذا ما قورنت بالسلطة الإيديولوجية (الفقهاء) خصوصا في مجتمع شبه ملتزم بالتعاليم الدينية، ومتشبت بكل ماله صلة بالدين، ويشهد في نفس الوقت تراجع لدور السلطة الأميرية في حفظ الأمن وفرض السكينة بين السكان.

وقد ساهمت - حسب اعتقادنا - جملة من العوامل في نجاح مهمة كبولاني، بعضها متعلق بشخصيته، والبعض الآخر متعلق بالظروف المحلية، فالنسبة لما يتعلق بكبولاني، فمعرفته باللغة العربية وبعض اللهجات المحلية، وتصوراته الدقيقة حول الإسلام والمسلمين والمجتمع البيضاني بوجه خاص، جعلته ينجح في تغيير تصورات المجتمع حول الأوربيين عموما، فالسكان المحليون كانوا يرون في الفرنسيين "كفاراً" لا يعرفون لغة "القوم" ولا يعيرون للإسلام اهتماما، فظهر كبولاني كقاعدة شاذة صار معها مصدر إعجاب من طرف بعض الزعماء.

¹ هو كزافي كبولاني (1866 - 1905) سبق التعريف به، لذا فإننا لا نريد تكرارها، وعموما فقد ارتبط اسمه باحتلال البلاد وعملية إخضاعها، بل إنه يعتبر هو مهندس عملية الاحتلال، وقد تزعم مسار النفوذ الفرنسي في البلاد، مستفيدا من وضعية الفوضى التي كانت تعيشها حين إذن، وعازفا على وتر "نشر السلم وإخماد الفتن" مما جعل بعض القبائل تفتن بفكرته وتعلن ولائها له بل وتساعده على دحر المقاومة، ومع أنه أقتنع البعض وأخضع جزءا كبيرا من البلاد إلا أنه لم يكتب له من العمر ما يجعله يرى مشروعه مكتمل البناء، فقد تم اغتياله على أيدي بعض أفراد المقاومة في 12 مايو 1905 في سياق سنعرض له لاحقا

أما نظرتة فإنها تعتمد على أنه مهما كان الخلاف قائما بين الطرق الصوفية، فإن هناك قضية تنفق عليها، وهي مناهضتها للوجود الأجنبي، ولكن هذه الطرق يظل مشايخها أصحاب كلمة مسموعة فيها، وبالتالي فإن الدخول إلى المجتمعات التي توجد بها الطرق الصوفية، يكون عن طريق باب المشايخ أصحاب التأثير الروحي والمعنوي، وذلك بإقناعهم أو إغرائهم، أما الاصطدام معهم فيزيد من قوتهم وتأثيرهم، ويرجع ذلك كله إلى كون مفهوم الدين في البلدان الإسلامية يشاكل مفهوم المواطنة في المجتمعات الأخرى، راجع إزيدية بن محمد محمود مرجع سبق ذكره ص 164.

وقد أتاحت الفرضية لكبولاني أواخر سنة 1898 لزيادة الأراضي الموريتانية، حين اقترح الحاكم العام للسودان الفرنسي على الحكومة المحلية في الجزائر إرسال متخصصين في الشؤون الإسلامية إلى إفريقيا الغربية بهدف الدخول في علاقات مع قبائل البيضان وقبائل الطوارق، وإقناعهم بالدخول تحت السيطرة الفرنسية للمزيد راجع:

- Robert Arnaud Randau, Un corse d'Algérie chez les Hommes bleus, Xavier Coppolani, le pacificateur, Alger, A, Imbert Editeur, 1939, 216p.

أما فيما يخص الظروف المحلية، فقد كانت البلاد وقتئذ تشهد فوضى وانفلات أمني، فلا النظام الأميري قادر على حفظ الأمن، ولا القبائل كذلك قادرة على تجاوز الخلافات البينية، وبالتالي فإن كبولاني عزف على وتر حساس للغاية، وهو أن الفرنسيين جاؤوا لحفظ الأمن "في بلاد سائبة" وحفظ الأعراض، والسماح للزوايا بممارسة شعائر الدين، دون الخوف من تسلط "حسان" أصحاب السلطة الزمنية.

وهكذا تظهر لنا حنكة كبولاني حين أفاض أحد أطراف المجتمع "الزوايا" على الآخر "حسان" مطبقا بذلك مبدأ "فرق تسد"، وذلك من خلال تصوير الطرف الثاني على أنه ظالم ومفرط في استعمال السلطة، وأن فرنسا جاءت لترفع هذا الحيف وتثبت مكانه الأمن والطمأنينة.

وفي إغقاب مهمة كبولاني، قدم مدير الشؤون السياسية في وزارة المستعمرات، إلى وزير المستعمرات الفرنسية "دوكري، Decrais" ملخصا عن رحلة كبولاني جاء فيه: "إن تقرير كبولاني يوضح بجلاء ضعف الحضور الفرنسي في هذه المنطقة وعدم إعطاء السياسة الفرنسية قيمة لهذه القبائل، حالة نأسف لها كثيرا (...). كما أن التقرير تضمن تعهد هذه القبائل بمساعدة الفرنسيين في أي عمل يقومون به في المنطقة حتى ولو كان غير مجد (...). وتجدر الإشارة إلى أن حضارتهم الإسلامية العريقة لها مكانة خاصة لديهم، فهم يتمتعون بمؤسسات اجتماعية غاية في النضج، ولا يمكن أبدا تجاهلها، وتجاهل قيمتها، وتأثيرها وحضورها القوي، فالانتماء الإسلامي والتعلق الحي بالقيم الحضارية والمبادئ الإسلامية يميزهم عن الشعوب التي عهدناها في إفريقيا الغربية، ومن الخطأ الاعتقاد بأن التلاعب بعقولهم ممكن، فالاتفاقيات والمعاهدات التي تعقد معهم وحتى الالتزامات الشفهية التي تعطي لهم لا يمكن أبدا تخطيها، فهم أهل حضارة،

والتلاعب بهم لا مجال للتفكير به، ويمكن الحصول على ولائهم وتسخيرهم لفرنسا واستغلالهم إذا نحن اتبعنا سياسة نوههم بوضوحها، وإذا ركزنا على الأبعاد الأساسية للحضارة الفرنسية وقيمتها الإنسانية، وإذا نحن فهمنا الفوارق الحضارية التي تميزهم عن الشعوب الأقل تعلقا بالتاريخ..."¹.

نلاحظ من خلال هذا الملخص، أن كبولاني نجح في توصيل فكرته القاضية بأن احتلال هذه المنطقة والسيطرة علي سكانها لا يكون عن طريق قوة سلاح، وإنما باستخدام بعض الأطراف المحلية التي التقى بها للسيطرة - من خلالها - على الأطراف الأخرى، كما يظهر لنا كذلك أن فرنسا خلال هذه الفترة قد تخطت مسألة التفكير باحتلال المنطقة، إلى مرحلة الشروع في العملية، وهذا ما جعل وزير المستعمرات يوافق على مقترح كبولاني القاضي ب:

- إنشاء مستعمرة "موريتانيا الغربية" وتكون تحت إمرة كبولاني، وتستمد اعتماداتها المالية من الضرائب التي تفرض على السكان.

- القيام بتأسيس مصلحة تحت اسم "الشؤون البيضانية والصحراوية" تابعة لإدارة الشؤون الإفريقية بوزارة المستعمرات².

ومع أن مشروع كبولاني لقي الإستحسان والموافقة المبدئية من طرف وزير المستعمرات، إلا أن أطراف أخرى لها صلة بالموضوع اعترضت عليه، مما عرقل تنفيذه - ولو إلى حين - فما هي تلك الأطراف؟ وكيف اعترضت على مشروع الاحتلال؟

¹ نور الدين الشريدي مرجع سبق ذكره ص 127
² عبد الرحمن بن عمار: مرجع سبق ذكره ص: 130.

ثانياً: مشروع الاحتلال أمام مفترق طرق

جاء الاعتراض على مشروع احتلال موريتانيا من عدة أطراف، يمثل الطرف الأول وزارة الخارجية الفرنسية، أما الطرف الثاني فيمثله الحاكم العام للسنغال وملحقته، في حين مثل الطرف الأخير عامة التجار في سان لوي:

* فعلى مستوى الخارجية الفرنسية، فإنها أعلنت عن تحفظها على المشروع بحجة الظرفية الدولية خاصة إذا تعلق الأمر ببعض الأماكن الموجودة في "موريتانيا الغربية" المستقبلية¹، وخاصة الناحية الواقعة تحت النفوذ الإسباني من وادي الذهب والتي لم يتم حتى ذلك الوقت وضع حد فاصل لها.

* أما الطرف الثاني المتمثل في الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية في السنغال فقد اعتبر أن الدخول في تنفيذ المشروع سيؤدي إلى نسف العلاقات السلمية التي بناها الفرنسيون مع المجموعات البيضانية، والتي اتسمت بالسلام منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأن أي تغيير يطرأ عليها سيؤدي إلى نتائج خطيرة². * ويعتبر الطرف الثالث ذا تأثير ضيق بالمقارنة مع الطرفين السابقين حيث يمثله التجار الذين لهم مصالح شخصية يحرصون عليها، ويرون في احتلال البلاد، قطعاً لامتيازاتهم الشخصية، وإنهاء لفترة طويلة من احتكارهم لتجارة الصمغ، والتعامل المباشر مع الأهالي، وعليه فإن وجود طرف ثالث "الإدارة الفرنسية" سيقص بالضرورة هذه الامتيازات.

وبالإضافة إلى الحرج الدبلوماسي الذي تخاف الخارجية الفرنسية الوقوع فيه أمام إسبانيا إذا ما احتلت هذه البلاد، فإنها أثارت موضوع آخر يتعلق بتمويل هذا المشروع ذلك أن ميزانية مستعمرة السنغال لا تستجيب، لحاجيات استعمار موريتانيا

¹ تجدر الإشارة إلى أن حدود "موريتانيا" كما سماها كيبولاني ووضع حدودها، فإنها كانت تتعدى حدودها الحالية لتشمل مناطق الصحراء المغربية الحالية، والخاضعة حينها للنفوذ الإسباني.

² محمد عبد الرحمن بن عمار: مرجع سبق ذكره ص: 136.

وتوفير الوسائل الضرورية لذلك¹، خصوصا وأن هذه المنطقة لا تحتوي على أدنى المقومات الأساسية (طرق، مراكز عسكرية، بنية تحتية..).

وربما هذا ما دفع الغرفة التجارية في سان لويس – الممثلة للتجار السانلوبيين – في الاعتراض على الاحتلال، خوفا من فرض ضرائب مجحفة عليهم لتمويل هذا المشروع.

وأمام مختلف هذه الآراء اقترح وزير الخارجية الفرنسية تأخير البت في تنفيذ المشروع إلى حين تسوية المسائل المتعلقة بالوجود الإسباني، وتلك المتعلقة بتوفير الوسائل والظروف المناسبة لتنفيذه على المستوى الداخلي².

وفي هذا الإطار بدأت الاتصالات تعقد بين الجانب الفرنسي والإسباني من أجل إيجاد حلول للمسائل العالقة، وتبديد مخاوف الطرفين، والوصول إلى وفاق يضمن رسوخ قدم الفرنسيين في هذه المنطقة، ويستجيب لتطلعاتهم في ربط مستعمراتهم في الشمال والجنوب، وقد توجت هذه المفاوضات بمعاهدة 27 يونيو 1900 وقد وقعها عن الجانب الفرنسي وزير الخارجية "ديلكاسي" DELCASSE " والسفير الإسباني في باريس "فرنا ندودي ليونى كاستيو"، وقد نصت على تحديد مناطق النفوذ الإسباني جنوبا عند الرأس الأبيض، وشمالا عند رأس جوبي³.

وبعد نجاح فرنسا في تسوية القضية من الناحية الخارجية والتوصل إلى عقد معاهدة تحدد مجال الطرف الإسباني، أخذت الاعتراضات التي أبدتها الإدارة المحلية في السنغال والتجار السانلوبيين تعرف طريقها للحل، حيث شكل رئيس الوزراء في يونيو 1901 لجنة وزارية لدراسة كيفية احتلال البلاد وإخضاعها تحت المظلة الفرنسية، غير أن هذه اللجنة لم تبدي رأيها إلا في 2 مارس 1902 حيث أوصت بضرورة الشروع في احتلال المنطقة⁴.

¹ نور الدين الشريدي مرجع سبق ذكره ص: 137.

² محمد عبد الرحمن بن عمار: مرجع سبق ذكره ص 139.

³ سيد بن محمد الأمين: مرجع سابق ذكره ص: 85.

⁴ المرجع السابق ص 140.

ثالثاً: مرحلة التوغل الفرنسي

بناء على توصيات اللجنة التي شكلها رئيس الوزراء الفرنسي – كما رأينا – والقاضية بتسريع عملية احتلال البلاد، شرع كبولاني بتنفيذ خطته، ولا نبالغ إذا اعتبرنا أن الظروف كانت مواتية لهذا الاحتلال، وأن أي مشروع فرنسي من هذا القبيل (ظاهره الحفاظ على الأمن، وصيانة حقوق المجموعات الضعيفة) سيلقى صدى في آذان السكان، بغض النظر عن من يتزعم القيادة هل هو كبولاني أم غيره، مع إقرارنا بالشخصية الكاريزمية التي تمتع بها كبولاني، ومعرفته العميقة بنفسيات السكان والأمور التي تؤثر فيهم والقضايا التي يتعلقون بها، لذلك ليس من الغريب أن تخضع منطقة الترازرة تحت النفوذ الفرنسي، دون مقاومة تذكر، مع أنها وقفت ولفترة طويلة مستعصية على الفرنسيين، وشكلت العقبة الكبرى أمام محاولاتهم التوغل داخل البلاد منذ ظهور السياسة التوسعية الفرنسية في المنطقة مع فيدربر إلى بداية القرن العشرين.

أ- إخضاع الترازرة "المعادنة السابقة"

ظلت الترازرة قوة تحسب لها فرنسا حساباً خاصاً من بين القوى المسيطرة في المنطقة، وقد حاولت فرنسا بكل الوسائل إذلالها أو تركيعها على الأقل، بدءاً باقتطاع مملكة "والو" التي تعتبرها الترازرة جزءاً من أرضها، ومروراً بحرب "جمبت" مع محمد لحبيب، وانتهاءً – وليس أخيراً – حرب فيدربر ومحمد لحبيب (1854-1858)¹.

ولكن لا نريد هنا الإسهاب في هذا الموضوع، لأننا قد تطرقنا له في مكان من هذا العمل، بقدر ما نود أن نلفت النظر إلى كون الترازرة مثلت جداراً سميكا ومعادلة صعبة، لا يمكن للفرنسيين وقتئذٍ تخطيها، أثناء تفكيرهم في عقد اتفاقيات ومعاهدات مع زعماء المنطقة.

¹ راجع الفصل الأول من هذه الدراسة.

وعليه فإن الإدارة الفرنسية عندما عازمت على احتلال البلاد مطلع القرن العشرين - مع أن الظروف كانت مواتية للاحتلال- كانت تضع في الحسبان القوة القتالية التي طالما تمتع بها أفراد هذه الإمارة، وكل ما كان يخشاه المستعمر هو أن يتولد من وجوده دافع يرغم الجميع علي التوحد في وجهه وحينها ستكون الخسائر الفرنسية فادحة، وسينقلب المشروع الذي رسمه كبولاني إلى كارثة وبصمة عار في جبين فرنسا، لأن توحد هذه المجموعات في كتلة واحد سيصعب من مهمة القوات الفرنسية وقد يرغمها على الانسحاب، وهذا ما قد يشجع المجموعات الزنجية المجاورة على الانتفاض ضدها وبالتالي كسر هيبة القوات الفرنسية.

غير أن الرياح كانت تجري بما يشتهي الفرنسيون، فقد كان الخلاف في إمارة الترازة مستشرياً إلى حد لا يمكن معه الرجوع إلى المفاوضات، أو حتى على الأقل الوقوف في وجه العدو المشترك، بل وصل إلى أبعد من ذلك حين استعان البعض - كما سنرى - بالعدو (فرنسا) على الأخ الشقيق.

كانت الساحة الفرنسية في إمارة الترازة تشهد تنافساً محموماً بين الأمير أحمد سالم¹، ومعارضة سيدي بن محمد فال²، وفي نفس الوقت كانت الخارطة القبيلة داخل الإمارة تتشكل حول هذين الطرفين، دعماً أو معارضة، رأت فرنسا في هذا الانشقاق فرصة ملائمة لدخولها كطرف ثالث.

وفي تلك الأثناء أرسل الوالي العام لإفريقيا الغربية الفرنسية، الرائد "Delaplane" بعثه لتقصي الحقائق في الترازة، وكان الهدف المعلن لهذه البعثة هو الإصلاح بين الطرفين، ولكن الغرض غير المعلن، هو تحليل الوضعية العامة

¹ هو الأمير أحمد سالم بن اعلى الملقب ببيادة، تولى الإمارة (1891-1905) بعد تخلصه من عمه الأمير أعمر سالم ولد محمد لحبيب (1887-1983).

² ناصب العداء الأمير أحمد سالم بعد تخلصه من أبيه، وكان ذلك تجسيدا لقاعدة الاغتيالات المتكررة التي عانت منها الإمارة بين الأعمام وأبناء الأعمام، من جهة أخرى فإن سيدي سيكون من بين أوائل الأمراء الذين وقفوا في وجه التوغل الفرنسي رغم احتفاظه بمطلب كرسي الإمارة.

التي تشهدها الإمارة، ورصد أماكن القوة والضعف حتى يتم التركيز عليها في عملية الاحتلال¹.

وعندما وصلت البعثة إلى ضفة النهر، حاولت الالتقاء بالطرفين وحملهما على السلام، وبعد مفاوضات قبل "سيدي" بتوقيف الحرب، مع اعتراف الفرنسيين بخصمه كأmir، إلا أن السلام لم يدم طويلاً فقد عادت الضغائن إلى سابق عهدها، وانتشرت الفوضى، وعم السلب، وقل الأمن في ضفتي النهر، مما جعل الفرصة مواتية للفرنسيين للتدخل.

انتقل كبولاني رفقة القوات الفرنسية إلى محطة "دكان"² حيث التقى بالأمير "أحمد سالم"، كما التقى بالطرف الآخر الطامع في كرسي الإمارة "سيدي" وبحنكته المعروفة أقنع كبولاني الطرف الأخير بوضع السلاح، والطرف الأول - وهو الممثل الحقيقي للإمارة - بالتنازل عن سلطته للفرنسيين المكلفين بإقامة العدل داخل إمارته مقابل أن يحترم الفرنسيون الدين الإسلامي، والعادات والتقاليد المعمول بها في إدارة شؤون الإمارة واختيار أمرائها³. ولا يفوتنا هنا أن نذكر بأن كبولاني خلال رحلته التي سبق وأن ألمحنا إليها قد ارتبط بعلاقات ودية مع بعض مشايخ الزوايا⁴، مما جعله يستغل هذه العلاقة وبطريقة ذكية تجعلهم يعتقدون أن ما يقدمون عليه من إصدار الفتوى بتحريم محاربة الفرنسيين هو محض الصواب وفيه مصلحة العباد والبلاد.

وفي هذا الإطار كلف كبولاني الشيخ سيديا باب⁵ بالإجابة على سؤال صاغه بطريقة محكمة تتم عن طول باعه في معرفة العلوم الشرعية ونفسيات المجتمع الذي يتعامل معه، وهو "هل يجوز للمسلمين أن يجاهدوا النصارى، والحال أن هؤلاء لا

¹ عبد الرحمن بن عمار: مرجع سبق ذكره، ص: 148.

² محطة تقع على النهر ساهمت في المبادلات التجارية مع الفرنسيين مدة طويل راجع ما كتب عن هذه المحطة في الفصول السابقة.

³ محمد الراطي، مرجع سبق ذكره، ص 58.

⁴ منهم السيدي باب⁵ والشيخ سعدبوه كما سنرى.

⁵ الشيخ سيدي باب⁵ (1860-1924) سنعرض لسيرته في (الفصل الموالي).

يمنعونهم من تطبيق شعائرهم، بل يعينونهم عليها بتنصيب القضاة ونحو ذلك، خاصة وقد علم المسلمون في هذه البلاد أنهم لا يملكون من القوة ما يملكه المسلمون في باقي "أقطار المغرب"¹.

أجاب الشيخ سيديا باب، بأن على المسلمين أن يجنحوا للسلام ما دام الفرنسيون لا يتعرضون لدينهم، وأن الدخول في طاعة السلطان المخالف في الدين إذا لم يتأت العدل إلا بها أولى من الخروج عليه².

كما عرض الشيخ سعدبوه³ في رسالته النصيحة العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرنسة⁴، لقوة فرنسا، في مقابل فقر وتناحر أهل هذه البلاد، وأن الجهاد لا يتأتى إلا بوحدة الصف، وعليه فعلى الجميع الخضوع، وترك السلاح، لأن حمله فيه مضرة للمسلمين.

وقد استغلت فرنسا هذه الفتاوى، والتأثير الكبير الذي يحظى به هؤلاء المشايخ في نفوس الخاصة والعامة لتمرير مشروعها الاستعماري، وتصويرها على أنها لا تريد احتلال البلاد وإنما تريد نشر الأمن والحفاظ على المصالح والمقدرات. وكان توزيع هذه الفتاوى في أنحاء البلاد، كفيلا بإقناع العديد من القبائل لقدمها إلى كبولاني وتقديمها الولاء، وكفيل كذلك بجعل آخرين يضعون أسلحتهم بعد أن أشهروها، غير أن هذا لا يعني - كما سنرى - أن الجميع قد ركن إلى السلم وأغمد سلاحه، وإلا لما كان صاحب المشروع الاحتلالي - كبولاني - قد اصطفى بنار المقاومة عندما تم اغتياله 12 مايو 1905.

¹ الخليل النحوي، المنارة والرباط، مرجع سبق ذكره، ص 329.

² سنتعرض بحول الله بشيء من التفصيل لهذا الموقف في الصفحات القادمة، ونظرا للفوضى والإنفلات الأمني، رجح الشيخ سيديا باب هذا الموقف مستطردا قول الفضيل بن عياض "جور ستين سنة خير من هرج سنة"، وقد ذكر الخليل النحوي موافقة غريبة وهي أن الفرنسيين أيضا قد مكثوا في البلاد ستين سنة، راجع النحوي ص 329.

³ الشيخ سعدبوه بن الشيخ محمد فاضل (1848 - 1917)

⁴ سوف نعرض لها في مكان آخر من هذا البحث.

وبعد خضوع الترابزة السلمي تمت إقامة مراكز إدارية فرنسية¹ الغرض منها وجود ثكنات عسكرية تتولي ضبط الأمن، وردع من تسول لهم نفوسهم الهجوم على المصالح الفرنسية ، غير أن هذه الإجراءات الأمنية لم تمنع أنصار سيدي بن محمد فال، وبعض القبائل الحسانية من تكثيف هجماتها على المصالح الفرنسية خصوصا بعد صدور مرسوم 1903/05/12 من طرف الوالي العام لغرب إفريقيا المتعلق بتنظيم الحماية في بلاد البيضان المتاخمة للسنغال.

ويقضي هذا المرسوم بفرض رسوم فرنسية على المواطنين، وإزالة الضرائب التقليدية التي كانت تدفع لقبائل حسان مقابل حمايتها للقبائل الأخرى². وكان يعني ذلك توجيه ضربة قاسية لاقتصاد قبائل بني حسان التي كانت تسيطر على الشؤون العسكرية والسياسة، وتعتمد في معاشها على الإتاوات التي تدفعها القبائل الضعيفة مقابل توفير الحماية لها من بطش القبائل الأخرى المتسلطة، لذا فإن القبائل التي تحمل السلاح اعتبرت هذا القرار يمس من مصالحها، ويطعن في مورثها الاجتماعي، وربما تصل تبعاته إلى أن تصبح في يوم من الأيام في أسفل الهرم الاجتماعي، بعد أن كانت تتربع على عرشه.

غير أن التأثير الروحي لمشايخ الطرق الصوفية، ودخول قبائل عديدة تحت المظلة الفرنسية، وإعلانهم الولاء، وحنكة كبولاني، وتفرق أنصار "سيدي" من حوله، وعدم توحد القبائل الحسانية المحاربة، أمور جعلت الفرنسيين يمسكون بزمام الأمور، ويوجهونها الوجهة التي يحبون، وقد أدى هذا في النهاية إلى فرض نفوذهم ، وإرغام الخصوم على الاستسلام.

¹ أسس الفرنسيون في بداية وجودهم في الترابزة مراكز مهمة في مناطق حساسة تولت الإشراف على أمنهم وهي (مركز أخروفة في 24 يناير 1903، ومركز نواكشوط نهاية 1903، ثم مركز أبي تلميت.
² محمد الرازي ولد صدقن: مرجع سبق ذكره ص 59.

وبهذا يكون الفرنسيون قد فرضوا سيطرتهم على الترازرة دون أن يفقدوا رجلا واحدا، أو يطلقوا رصاصة واحدة¹، وبالتالي فإن كبولاني قد انجز شطرا مهما من مشروعه، حيث وضع الترازرة تحت الحماية، وأمن حدود السنغال الشمالية. وتكمن أهم النتائج التي توصل إليها كبولاني في هذا الوقت الوجيز في الأمور الآتية:

* فرض الحماية على الترازرة وهي إمارة قوية ومعاندة – كما جربها الفرنسيون- وعدو لدود لهم في السابق.

* إنهاء الإتوات التي كان يدفعها الفرنسيون للترازرة مقابل تأمين التجارة.

* فرض الإتوات على السكان المحليين.

* إنشاء مراكز فرنسية داخل أراضي الترازرة لحماية المصالح الفرنسية وردع الخصوم.

* تأمين السنغال الأدنى من هجمات القبائل البيضانية

كل هذه النجاحات المتوالية في وقت وجيز وبدون خسائر تذكر، أغرت كبولاني بمواصلة مشروعه، وشرع بالتالي في عملية إخضاع البراكنة.

ب. إمارة لبراكنة المحطة الموالية

كنا قد رأينا أن العلاقات البركنية – الفرنسية، لم تسر في خط مستقيم وإنما تأرجحت بين القوة والضعف، والتوتر والانسجام، وتعتبر فترة الأمير سيدي أعلي الثاني (1858 – 1893) الفترة الذهبية بالنسبة للعلاقات الفرنسية – البركنية، حيث يعتبر هذا الرجل حليفا قويا، وصديقا حميما لفرنسا²، وربما يصدق عليه الوصف بأنه "أكبر حليف عرفته فرنسا في المنطقة"، غير أن وفاة هذا الحليف وتولي ابنه

¹ جيلبيه: مصدر سبق ذكره ص 115.

² للمزيد راجع محمد الأمين بن الشيخ عبد الله: العلاقات التجارية بين إمارة البراكنة وفرنسا خلال القرن التاسع عشر، مرجع سبق ذكره، ص 52 وما بعدها.

أحمد بن سيدي (1893 – 1903) سيغير من مجرى علاقات البراكنة مع فرنسا، خصوصا في السنوات الأولى من القرن العشرين، ويرجع ذلك – حسب اعتقادنا- إلى جملة من الاعتبارات:

- رأى البركنيون الوضع الذي آلت إليه إمارة الترارزة، الوعود التي طالما ردها عليهم كبولاني، قد آلت إلى السراب، فقد اشتدت هجمات القبائل المحاربة، على القبائل الأخرى الموالية للفرنسيين، أملا في رجوع هذه القبائل من تحالفها مع كبولاني، كما ظهر أيضا أن أمير الترارزة أحمد سالم عندما وقع معاهدة مع الفرنسيين كان يريد منها كسب الوقت ضد خصمه، وانتزاع اعتراف من الفرنسيين بشرعيته المهزوزة في الداخل، ولا تكاد تجد لها صدى في الخارج.

- إدراك البراكنة – ولو كان متأخرا- للخطر الذي أصبح يمثله الفرنسيون وطموحاتهم الاستعمارية في المنطقة، خصوصا عندما استطاعوا السيطرة على الترارزة وهي إحدى أقوى الإمارات في البلاد، وأكثرهم عنادا ضد الفرنسيين خلال المرحلة السابقة للاستعمار المباشر، غير أن هذا الإدراك البركني بالخطر الفرنسي كانت تغذية جبهة داخلية عملت على تصوير المستعمر بأنه غازي مخالف للدين يريد السيطرة على البلاد ونشر الفساد¹.

ونظرا لأهمية جبال "تكانت" التي من يتحكم بها يتحكم في البلاد كلها، فإنه لا يمكن للفرنسيين السيطرة عليها إلا بعد الاستحواذ على لبراكنة وجعلها مصدرا أساسيا للتموين وقاعدة تحمي ظهورهم من اعتداءات القبائل المحاربة، وهذا ما كان يعيه كبولاني حين رحل إلى البراكنة مستبقا الأحداث، وخائفا في نفس الوقت من إعطاء وقت أطول حتى لا تتوحد الصفوف في وجهه، واستقر في ألاك²، بعد أن أنشئ نقطة تموين في بوكي³، تتألف حسب الرائد جلييه من الآتي:

¹ سنتطرق إلى ذلك عند الحديث عن المقاومة.

² تقع أصلا داخل مجال إمارة البراكنة، وهي الآن عاصمة ولاية البراكنة.

³ بالكاف المعكوفة، قرية في البراكنة.

- * ثلاث كتاب من الفرسان
- * كتيبة من القناصة السنغاليين
- * مفرزة من الحرس الحدودي
- * قسم من المدفعية الجبلية
- * حرس على الخيل¹

ويجدر بنا التنبيه هنا إلى مسألة ذكرها الرائد جلييه لم نعثر عليها في المصادر التي بين أيدينا، وهي أن الأمير البركني أحمد بن واعي خلال شهر يونيو من عام 1903 في "بودور"² وبحضور المشايخ الدينيين، والزعماء المحاربين "عدل الأمير عن الاتجاه السياسي للقبائل المجتمعة تحت سلطته، ووضع أقاليمه تحت حمايتنا"³.

وفي نفس الوقت يذكر جلييه أن إقدام الأمير أحمدو على هذا الفعل لم يكن يريد منه إلا معارضة تقدم الفرنسيين. وعدم إعطاء الفرصة للتقدم نحو الداخل⁴، وهذا الأمر إن صدق فإنه يعتبر حنكة ودهاءا سياسيا يحسب للأمير، أخر على الأقل عن إمارته التدخل الفرنسي المباشر بضعة أشهر.

وأثناء استعداد كبولاني وبعثته للتربص بالبراكنة، رحل أمير هذه الأخيرة، موليا وجهه شطر "تكانت"⁵، حيث الأمير بكار ولد إسويد أحمد⁶ المشهور بعدائه للفرنسيين وسياساتهم في المنطقة⁷، إلى حد أن الرائد جلييه وصفه بأنه "جعل من نفسه قلب المقاومة"⁸.

¹ جلييه، مصدر سبق ذكره، ص 142.

² مركز للتبادل التجاري على النهر كانت إمارة البراكنة تسيطر عليه.

³ جلييه: مصدر سبق ذكره، ص 142.

⁴ نفس المصدر والصفحة.

⁵ منطقة جبلية في وسط البلاد، وهي المجال الذي يقع تحت سيطرة إمارة إدوعيش

⁶ سبق التعريف به

⁷ كان بكار من قبل أن يذهب إليه أحمد بن أعلي ملاذا للمعارضين لفرنسا في الضفة اليسرى من النهر ومن أمثال الذين احتموا به: عبدول بكار زعيم قبيلة بوسيا، ومحمد شيخو زعيم المقاومة في فولتا.

⁸ جلييه، مصدر سبق ذكره، ص 143.

ومما زاد من قوة موقف الأمير أحمدو بن أعلي، هو وقوف مشايخ الزوايا معه، على العكس مما كان عليه الأمر في الترارزة، فكما رأينا سابقا، فإن الشيخ سعدبوه، والشيخ سيديا بابه قد استغلها كبولاني لتبرير الخضوع لفرنسا، وعدم شرعية محاربتها في حين كانت البراكنة لا تخضع روحيا لتأثير هؤلاء المشايخ، وإنما تخضع لتأثير آخرين من أمثال عبد الجليل ولد الشيخ القاضي¹، الذين كانوا يرون في الوجود الفرنسي خطر على الدين والبلاد، لذلك فليس من الغريب أن يناهضوا الاستعمار، ويصيغوا الحجج الشرعية لتبرير محاربتهم، كما سنرى لاحقا. غير أن كبولاني كان يضع في حسابه عقبتين قد تواجهان مشروعه في ضم إمارة البراكنة ووضعها تحت النفوذ الفرنسي على غرار ما حصل في الترارزة، وتكمن العقبة الأولى فيما قد يترتب على التوسع الفرنسي في البراكنة من مشاعر الكراهية التي من الممكن أن تتولد لدى السكان المحليين اتجاه فرنسا، خصوصا وأن علماء ومشايخ قد دخلوا على خط المعركة، معلنين عدائهم الصريح لفرنسا، وسياستها.

وإلى جانب ذلك فإن البراكنة بها قبائل ذات شوكة من "حسان" تخشى فرنسا أن يمتد إليها نسيم كراهية فرنسا الذي أصبح يهب على مناطق عديدة من لبراكنة. وفي المقابل فإن كبولاني عندما يفكر في هذه المسائل التي تكبح جماحه حول المزيد من التقدم داخل البراكنة، فإنه أيضا يفكر في المزايا العديدة التي ستجنيها فرنسا من احتلال هذه الإمارة، حيث تعتبر هذه الأخيرة بوابة مهمة لمن يريد احتلال "تكانت" ثم "آدارار".

أما العقبة الثانية فهي تجار سان لوي الذين سبق وأن ألمحنا إلى قوة تأثيرهم في سياسة فرنسا في المنطقة، فقد كانت منطقة النهر مسرحا لعمليات مربحة

¹ أحد المشايخ البارزين الذين تولوا الوقوف في وجه النفوذ الفرنسي في البراكنة.

تخصصت في بيع الأسلحة¹، والرقيق ، لذا فإن التجار السانلويون اعترضوا على استمرار التوغل، خوفا على مصالحهم التي قد تتعرض للضياع جراء اشتعال نار الحرب بين القبائل وفرنسا.

وعلى الرغم من ذلك فقد أدركت فرنسا أن عليها تنفيذ هذه المرحلة الهامة من مشروع الاحتلال، مستغلة فرصة الحرب التي ظهرت بين قبيلتي "اولاد أبييري" وقبيلة "اجيدبة"²، للدخول بحجة فرض الأمن، ومنع القبائل من القتال. واصلت القوات الفرنسية التوغل حتى وصلت إلى بودور³، التي أسست فيها موقعا عسكريا يقرب المسافة بين سان لوي وكيهيدي⁴، ويفسح المجال أمام تأسيس موقع آخر أكثر أهمية في "الأك" حيث تلتقي الدروب المتجهة من تكانت والترارزة إلى أعالي النهر⁵.

لم تكن الوحدات الفرنسية على حد كبير من المرونة، وهذا ما جعل كبولاني يسافر راجعا إلى سان لوي ليطلع الحاكم غرب إفريقيا على حيثيات الأمور، وطلب منه ما يلي:

- وضع حرس الحدود مع ضباطهم تحت قيادته وفصلهم عن الإدارة في سان لويس

- وضع الرماة والفرسان تحت إدارته

- تكليف حاكم "دكانة" و "ماتام" و "بكل"⁶ باتباع تعليماته فيما يخص

الموريتانيين⁷.

¹ يجدر بنا التنبيه هنا إلى أن فرنسا عندما أرادت احتلال البلاد منعت الاستمرار في بيع الأسلحة التي كانت تباع للقبائل في حروبها البينية، خوفا من أن توجه هذه الأسلحة ضدها، كما أن تلك الفترة شهدت حظرا لبيع العبيد والتجارة بهم.

² هما قبيلتان من الزوايا، الأولى يعتبر معظم مجالها الطبيعي الذي تنتشر فيه هو الترارزة، في حين تنتشر الأخيرة في لبراكنة.

³ نقطة تبادل تجارية سابقة.

⁴ قرية على النهر

⁵ سعد خليل: ص مرجع سبق ذكره، ص 273.

⁶ محطات كانت من قبل تستعمل للتبادل التجاري مع الفرنسيين وقد سبق التعريف بها.

⁷ عبد الرحمن عمار، مرجع سبق ذكره، ص 77.

وبعد استجابة الحاكم العام لمطالبه ، رجع كبولاني إلى لبراكنة، وعند وصوله إلى "بودور" أرسل رسلا إلى الأمير أحمدو لمحاولة إقناعه بالعدول عن محاربة الفرنسيين، غير أن أحمدو لم يستجب لهذا المطلب، بل اعتقل الرسل، وقام بهجوم مباغت على معسكر "الأك" ليلتا 8 و 9 ديسمبر 1903¹.

وبعد ذلك بأيام، وردا على الهجوم الذي قام به الأمير أحمدو، قاد النقيب "شوفو Chauveaux"² مفرزة مؤلفة من كتيبة من الفرسان وقناصة بمباغطة حي الأمير أحمدو في "شكار" على بعد 35 كلم شمال أك³.

ومع أن الرائد جلييه وهو المصدر الذي استقيننا منه هذه المعلومة لم يذكر عدد القتلى والجرحى في صفوف الأمير وجماعته على غير العادة - فإننا نتوقع أن الخسائر كانت طفيفة- فلو كانت جسيمة لما فوت صاحبنا هذه الفرصة⁴.

ورغم التحمس الذي حظي به الأمير أحمدو وأعوانه، والدعم المادي والبشري الذي قام به أمير "تكانت" فإنهم لم يستطيعوا إيقاف الفرنسيين ومنعهم من التوغل إلى الداخل - وذلك لأمر سنعرض لها لاحقا-، لذا فإننا نجل القول فنقول إن المقاومة أصبحت بعد كل يوم تجد نفسها في عزلة، فقد تمكن كبولاني من دخول لبراكنة، وتأسيس مركز "أك" المهم حينها، وكسب الفرع الأكبر من الأسرة الحاكمة في براكنة، وعين سيد أعلي خلفا للأمير أحمدو، وكانت تلك ضربة قوية وجهها كبولاني بدهاء للنظام الأميري في لبراكنة حيث أن العديد من الأسر صاحبة النفوذ، والقبائل الموالية للفرنسيين، والأخرى المغلوبة على أمرها، جاءت لتبايع الأمير الجديد، وتعلن الخضوع للفرنسيين.

¹ سعد خليل، ص 276.

² كان يتولى قيادة الرماة والفرسان في السنغال سابقا.

³ جلييه: مصدر بق ذكره، ص 143.

⁴ نشير إلى أنه لا يمكننا الاعتماد على جلييه مع أنه عاصر الحدث، لإنحيازه الواضح في كتاباته، ومع ذلك فإننا نستأنس به في بعض الأحيان مع التحفظ والحذر.

لم تكن المقاومة التي تزعمها الأميران: الأمير البركني، وأمير "تكانت" في مجال إمارة لبراكنة، تمتلك من القوة ما يجعلها تقف وجها لوجه أمام الوحدات الفرنسية، وإنما اعتمدت في الأساس على أسلوب المباغته¹، ومع ذلك فإنهم تكبدوا خسائر هامة فعلاوة على الخسائر في جانب الأرواح، كانت هناك خسائر في الجانب المادي، تمثلت في مصادرة 500 رأس من الإبل وأعداد كبيرة من الأغنام تقدر بالآلاف في المعركة الأولى، ومصادرة 10000 رأس من المواشي خلال المعركة الثانية².

هذه الهزائم هي التي أرغمت القبائل على مفاوضة فرنسا، وإعلان الخضوع لها، خوفا على مصالحهم التي أصبحت على المحك، وبذلك يكون الفرنسيون قد استطاعوا السيطرة على لبراكنة - مع وجود هجمات من طرف المقاومة، كثيرا ما عكرت صفوفهم- وجعلوها قاعدة تحمي ظهورهم ومركزا أساسيا للتموين يعتمدون عليه اثناء احتلالهم لجبال "تكانت".

ج. جبال "تكانت" مفتاح السيطرة الفرنسية

بعد السيطرة على الترابزة ثم لبراكنة، أصبحت الرقعة التي يسيطر عليها الفرنسيون شاسعة ويسكنها شعوب وقبائل مختلفة لا تتوفر على نسق اجتماعي واحد، لذا كان على الفرنسيين التعامل مع بعض الأمور بحزم وحيوية حتى يضمنوا استمرار السيطرة على المناطق التي أعلنت خضوعها، ثم وضع المناطق الأخرى تحت النفوذ الفرنسي، ولعل أهم هذه الأمور هو الاهتمام بالقضية الأمنية، فالبلاد تتوفر على مجموعات مختلفة وتشكيلات اجتماعية عديدة، على فرنسا أن تحافظ على الأمن بينها، دون أن تقوى إحدى الطوائف على الأخرى، وهي سياسة معروفة (إضعاف القوى، وتقوية الضعيف) ولكن لا يعني ذلك تقويته وجعل "الحبل له على

¹ سنفرد للمقاومة فصلا خاصا بها، لذلك فإننا لا نريد هنا الإسهاب في الكلام عنها لأننا سنعالجها في مكان خاص بحول الله.

² محمد الراطي: مرجع سبق ذكره، ص 61.

الغارب" بقدر ما يعني تقويته ليضرب به الآخرون، وحتى يستطيع خدمة المصالح الاستعمارية الفرنسية .

كذلك من بين الأمور التي كان على فرنسا الاهتمام بها، شيوخ القبائل، فبعد احتلال لبراكنة بدأ يتسرب إلى قلوب الكثيرين أن فرنسا جاءت بالإفساد وليس الإصلاح، والتدمير وليس الإعمار، وعليه فإنه ليس من الغريب أن يتحالف خصما الأمس (أمير الترارزة أحمد سالم، ومنافسه السابق سيدي) ضد الفرنسيين من جديد، رغم قبولهم الحماية من قبل، مع إعتقادنا أن معارضتهم للوجود الفرنسي في هذه الظرفية لم تكن نابعة من قناعات شخصية لدى الاطراف بضرورة إخراج الأجنبي، والوقوف في وجه الغازي، بقدر ما هو ربما ناجم عن فقدان مصالح ذاتية، ومنافع كان الفرنسيون تعهدوا بها.

وبناء على مستجدات الساحة، قدم كبولاني مقترحا إلى الحاكم العام في السنغال ينبني على ثلاثة أسس:

- تعيين أمير أو مجموعة من الأمراء في المناطق الخاصة، يختارون من بين القبيلة المنافسة للأسرة الأميرية الشرعية، التي رفضت الخضوع للفرنسيين والتعامل معهم.

- استعمال شيوخ الجماعات واستغلالهم في توطيد مرتكزات الاحتلال , وذلك مقابل بعض الامتيازات.

- تجنيد فرق من "الأهالي" قصد استعمالها في حفظ الأمن وردع المقاومة¹.

كل هذه الترتيبات والاستعدادات إدراكا من كبولاني لمدى الصعوبة التي يمثلها الدخول إلى جبال "تكانت"، فهي من جهة منطقة جبلية صعبة التضاريس تصلح لحرب العصابات، عكس الترارزة ولبراكنة اللتان تتميزان بانبساط أرضهما.

¹ نور الدين الشريدي: مرجع بق ذكره، ص 170.

ومن جهة أخرى تمثل "تكانت" مركز استقطاب للمقاومة، فهي تضم أمير لبراكنة "أحمدو ولد اعلى"، وأمير الترارزة "أحمد سالم" وابن عمه ومنافسه السابق "سيدي" بالإضافة إلى أمير تكانت و بعض القبائل التي رفضت الوجود الفرنسي، وهاجرت إلى هذه المنطقة.

وعليه فإننا لا نستغرب الاستعدادات الفرنسية التي سبقت التوجه إلى "تكانت"، ففي البداية صدر قرارا من الحكومة الفرنسية في 18 أكتوبر 1904. اعتبرت بموجبه موريتانيا منطقة مدنية، وعين كبولاني مفوضا عاما للحكومة بها¹. ويعطي هذا الإجراء صلاحيات أكثر للمفوض تمكنه من اتخاذ القرارات دون الرجوع إلى السلطات في السنغال.

من بين الاستعدادات كذلك المراكز التي أقامها الفرنسيون (أخروفة، نواكشوط، كيهيدي، مال، ألاك...) لتسهيل عمليات تحركاتهم، وضمت تشكيلة هذه المراكز فرقا متنوعة وكثيرة فيها سنغاليين، وجزائريين وبيضان إلى جانب الضباط الفرنسيين².

وفيما كان أهل "تكانت" يترقبون هجوما فرنسيا على مواقعهم الأمامية، بدأ كبولاني بترتيب قواته، ووصله دعم جديد مؤلف من:

- 120 جزائريا على الجمال والخيول.
- فريق من السود الأفارقة وبعض قبائل البيضان بقيادة النقيب "فريرجان"³.
- فريق أرسله بعض المشايخ الدينيين في الترارزة تعبيرا عن صداقتهم⁴.

¹ جلييه: مصدر سبق ذكره ص 146.

² المصدر السابق 148.

³ "لويس فريرجان Louis Frèrejean" (1869 – 1917) أحد الضباط الفرنسيين الذين أشرفوا على إخضاع البلاد. وقد شارك في الحملات على "تكانت، وأدرار" راجع حوله:

Louis Frèrejean, Mauritanie 1903 – 1911, Mémoires de radonnées et de guerre au pays des Beidanes, Paris, Kartala 1995.

⁴ جلييه: مصدر سبق ذكره ص 148.

ولعل الملاحظة التي يمكننا الخروج بها بناء على هذه التعزيزات التي وصلت كبولاني، هي أن هذا الأخير بدأ يتخلى نوعاً ما عن سياسته السابقة – التي تنبني على السلم- وانتهج سياسة القوة، لترويض المقاومين، والقضاء على المعاندين، وهذا ما يفسره الاستعداد العسكري الكبير للجيش الفرنسي.

بدأت انطلاقة الحملة الفرنسية من المراكز التي أسسها الفرنسيون في لبراكنة (الأك، مال)¹. ولما كانت على مقربة من حدود "تكانت"، أرسل كبولاني رسائل إلى القبائل يخبرهم برغبته في السلم². وهذه سياسة معهودة من كبولاني سبق وان أشرنا إليها، في معرض حديثنا عن "الترارزة، ولبراكنة"، وذلك أن كبولاني عندما يقدم على منطقة يبدأ بمراسلة قبائها، وزعمائها السياسيين، وشيوخها الدينيين، ويركز على القبائل التي ليست لها سلطة سياسية، ولديها أحقاد على قبائل أخرى وتود الانتقام منها.

كانت القبائل في "تكانت" منقسمة اتجاه الفرنسيين إلى ثلاثة طوائف:

- الطائفة الأولى: تود قدوم الفرنسيين ولديها رغبة في مبايعتهم³.
- الطائفة الثانية: تتألف من بعض قبائل الزوايا، وتعتبر مغلوبة على أمرها لا تود إظهار العداء للفرنسيين، وفي المقابل لا تريد التحالف معهم، إما خوفاً من بطش أمير "تكانت" والقبائل المتحالفة معه، وإما نزولاً على فتوى علماء "تكانت" بتحريم التعامل مع الفرنسيين.

- الطائفة الثالثة: قبيلة ادوعيش (الفرع الحاكم منها في "تكانت") والقبائل الموالية لها، وقد وجدت هذه الطائفة الأخيرة أكثر من مسوغ يجعلها تقف في وجه الاستعمار الفرنسي، فهي بحكم وقوعها تحت تأثير شيوخ دينيين مناهضين

¹ سبب تمركز الفرنسيين خلال هذه المرحلة في هذين المركزين، ناجم عن قريهما من إمارة تكانت، فكانا بمثابة الخطوط الأمامية للجيش الفرنسي.

² نور الدين الشريدي: مرجع بق ذكره، ص 180.

³ مثل بعض أفخاذ قبائل: كتنة، وتجانن، ولعل سبب رغبته هي محاولة الانتقام من السلطة الأميرية في "تكانت".

للاستعمار, جعلها أولا عقبة في وجه كبولاني, من جهة أخرى تم المساس بمصالحها السياسية والاقتصادية. ففي الترابزة ولبراكنة تم إلغاء الإتوات التي تدفعها فرنسا للأمرء مقابل حماية التجارة, وألغيت المحطات التجارية, وفرضت الضرائب على السكان, وجعل أمرء مكان الأمرء الأصليين, ووجد حسان من امتيازاتهم, وقدمت بعض القبائل على أخرى تبعا لموالاتها لفرنسا, كلها أمور جعلت هذه الطائفة تعارض الوجود الفرنسي, غير أنه لا يفوتنا هنا أن نذكر بأن ما زاد من قوة هذا المجموعة وجود أمير قوي له نفوذ ومتصلب الرأي, حاقد على فرنسا, ومارس العداة ضدها من قبل على نحو ما بينا.

وأمام هذا الموقف الصعب أرسل أمير "تكانت" وفدا إلى السلطان المغربي مولاي عبد العزيز يطلب منه المساعدة للتصدي للفرنسيين¹, الذين باتوا على مشارف إمارته, ويتوفرون على الإمكانيات العسكرية والبشرية والمادية, ولديهم عزيمة قوية على دخول "تكانت" وتصفية الحسابات مع المقاومين.

في المقابل بدأت الهجومات من طرف المناهضين للاستعمار على بعض القبائل الزاوية الموجودة تحت الحماية الفرنسية, كان الغرض منها إرسال رسالة إلى هذه القبائل المتحالفة مع فرنسا, وإلى الأخرى التي تنوي التحالف, "أن فرنسا لا تستطيع حمايتهم من هذه الهجمات".

بدأت بعثة كبولاني بالتحرك نحو "تكانت" في 15 فبراير 1905, وبعد مسيرة طويلة علمت أن "ادوعيش" قد شددوا الحراسة على مداخل المنطقة المحاذية للأماكن التي من المفترض أن يأتي منها الفرنسيون, غير أن معلومات تسربت إلى كبولاني, مفادها أن الممرات الشمالية خالية من الحراسة, مما جعله يغير سير جيشه, خوفا من الاصطدام بإدوعيش الذين تمركزوا قبله في المكان ويعرفون مداخله ومخارجه, فالقدوم من هذا الطريق يجعل منه مغامرة كبيرة, قد لا تكون

¹ عبد الرحمان بن عمار, مرجع سبق ذكره, ص 167

محمودة العواقب على الفرنسيين، من ناحية أخرى فضل كبولاني الطريق الآخر ليوهم سكان "تكانت" أنه ما جاء للحرب، وإنما يريد السلام للجميع، لذا فإن عليه ألا يستهل قدمه بأعمال عسكرية.

وبالتالي فإن كبولاني رأى أن يحبط مخططات إدوعيش، ويتركهم مرابطين في الممرات المؤدية إلى تكانت من جهة الجنوب ويسلك ممر "ديكل" الذي يؤدي إلى الشمال، حينها ستجد المجموعات المعاندة للجيش الفرنسي قد دخل "تكانت" ولا تجد بالتالي بدا من الانصياع لطلباته.

بدأت البعثة الفرنسية بالسير في الطريق المؤدي إلى الشمال، وبحذر شديد وصلوا إلى إقليم "تكانت" دون أن يعترض أحد طريقهم، غير أن نبأ وصولهم جعل إدوعيش ينسحبون خوفاً من أن يكون قد أحيط بهم من الشمال والجنوب.

كلف كبولاني فرقة من جيشه بتتبعهم، إلا أن مجموعة من إدوعيش مكونة من مئات من الرجال أحست بهذه الفرقة، فهاجمتها وقتلت منها ثلاثة عشر، وجرح قائدها جرحاً بالغا في فخذه، مما اضطره إلى اللجوء إلى معسكره، الذي هوجم هو الآخر في نفس الليلة من قبل جماعات من المقاومة¹.

وأمام التضيق الحاصل من طرف الفرنسيين على "إدوعيش" ووصول إمدادات متكررة قادمة من المراكز التي أنشأها كبولاني، اضطرت مجموعة إدوعيش إلى الانسحاب نحو العصابة²، في خطوة تكتيكية المراد منها الابتعاد عن مركز قوة العدو، وقطع الإمدادات القادمة إليه، ووجود مجال آمن تسهل منه الحركة، والمباغلة إذا أراد الفرنسيون الدخول إليه.

¹ جلييه: مصدر سبق ذكره ص 149.

² منطقة محاذية لتكانت وأكثر انبساطاً، كما أنها تفصل تكانت عن الحوضين.

غير أن كبولاني هو الآخر قام بخطوة استباقية , عندما بعث النقيب "فريجان Frère Jean"¹ على رأس قوة عسكرية كبيرة لتصفية الأمير بكار ولد اسويد أحمد، الذي كان يتهيأ لشن هجوم على المراكز الفرنسية الجنوبية، وبالفعل فقد تمكن النقيب ووحدته العسكرية من الوصول إلى المكان الذي يستقر فيه الأمير ورجال المقاومة الذين معه، ونتيجة لعنصر المفاجئة والأسلحة الثقيلة التي استعملها الفرنسيون، تفرق المقاومون مخلفين العديد من القتلى من بينهم الأمير بكار ولد اسويد أحمد².

لقد مثلت معركة "بوكادوم"³ التي استشهد فيها بكار، أكبر ضربة وجهها الفرنسيون إلى ادوعيش، فبعد مقتل هذا الأمير –الذي كان يمثل الرئة التي يتنفس بها المقاومون الإدوعيشيون – فقدت المقاومة في "تكانت" عنصر التوحيد , والقيادة التي يلجأ إليها الجميع في حالة النوائب.

وبعد مقتل بكار تنفس الفرنسيون الصعداء، لأنهم أزاحوا عن طريقهم عقبة كبيرة، ثم بعد ذلك شرعوا في بناء القلاع التي تأمنهم من هجمات المقاومين حيث أسسوا موقع تجكجة⁴ الذي سيموت بداخله قائدهم كبولاني.

وقد تم اختيار موقع تجكجة كقلعة يتحصن بها الجيش الفرنسي لعدة اعتبارات لعل أهمها الارتفاع الذي تحظى به تجكجة، فمن يسيطر عليها بإمكانه أن يأمن هجمات العدو بسبب تضاريسها الوعرة، كما أنه أيضا يستطيع أن يرى من مسافات بعيدة، هذا بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي.

كل هذه العوامل أغرت كبولاني علي تأسيس موقع تجكجة في 12 إبريل 1905، ومنه بدأ في استقطاب القبائل المبايعة، والمعلنة ولاءها لفرنسا، وكان من

¹ النقيب فريجان أحد الفرنسيين الذين لهم دور بارز في تثبيت الوجود الفرنسي في البلاد، وهو قائد مركز نواكشوط أيام كبولاني، راجع التعريف السابق له.

² - نور الدين الشريدي: مرجع سبق ذكره، ص 184.

³ موقع في ولاية العصابة استشهد فيه الأمير بكار ولد اسويد أحمد.

⁴ تقع في وسط البلاد، وهي الآن مركز إداري تابع لولاية "تكانت".

بين القادمين عليه للتفاوض "الحسين ولد بكار" بعد وفاة والده¹، وتفرق كلمة إدوعيش، وخروج بعض القبائل عن ولائها لهم.

غير أننا نعتقد أن قدوم ابن الأمير على كبولاني، لم يكن رغبة في الصلح، وإنما كان أملاً في كسب الوقت حتى ينظم صفوف قومه، ويوحد كلمتهم، بعد الفراغ السياسي والروحي الذي خلفه مقتل والده في موقعة "بوكادوم". من جهة أخرى أراد الحسين من هذا الصلح مع الفرنسيين، الحصول على رخصة تموين على النهر، ليعوض بها الخسائر المادية التي لحقت به وبقومه بعد الحملات الفرنسية على "تكانت" وما خلفته من أضرار.

كما أعلنت جماعة الحل والعقد من "إدوعلي"² لكبولاني عن قبولهم للحماية، وقد جاء في نص المعاهدة: "الحمد لله الذي أمر بالعدل والإحسان ونهى عن الظلم والجور والبهتان، وبعد فإن جماعة العلويين أعني أهل تججك³ كاتبوا الفرانصيص بما كاتبهم به السالك بن بابا والشيخ سيدي ودخلوا في حمايتهم، وأرضنا تكانت ومسكننا تججك⁴.

ولضرب اقتصاد القبائل المقاومة، وإرغامهم على الخضوع، أعطى كبولاني تعليماته لجنوده بحرق الأشجار وإتلاف النخيل الذي كان يمثل مصدر عيش مهم لهذه القبائل، بل أكثر من ذلك فرض على أهل تججكة إمداده بمائة رجل يوميا، قصد بناء قلعة لمخيماته، ومساكن لإقامة الجنود، وأرغم القبائل في "تكانت" على تزويد الجنود الفرنسيين بما يحتاجونه من اللحوم والمواد الغذائية الأساسية⁵.

وبدأ كبولاني بتحسين جنوده وذلك ببناء قلعة تججكة وسورها القوي، وبناء مساكن تقيم بها عساكره، واستقبال التعزيزات العسكرية القادمة من "بودور"،

¹ الطالب أختيار: مرجع سبق ذكره الجزء الثاني، ص 187 والحسين هو ابن الأمير بكار بن اسويد أحمد أمير تكانت قبل أن يستهد على أيدي الفرنسيين في إبريل 1905.

² قبيلة لها مكانة علمية ووزن ديمغرافي في البلاد.

³ هذا هو الاسم الاصلي لتججكة.

⁴ الطالب أختيار: مرجع سبق ذكره ج 2 ص 736.

⁵ الشريدي: مرجع سبق ذكره ص 187.

و"الأك"، كل هذا إستعدادا لحملة آدرار¹، فقد أغرت كبولاني انتصاراته السريعة، وخبرته العميق في تفكيك التحالفات، في التطلع إلى احتلال آدرار، غير أن آمال كبولاني ستلتطم بصخرة المنون، ذلك أن مجموعة من المقاتلين بيتوا أمرهم بليل، واجتمعوا على أن يقطعوا الرأس المدبر "كبولاني" للوجود الفرنسي في البلاد، ويريحوا منه العباد والبلاد.

لقد استيقظت الدوائر الفرنسية يوم 12 مايو 1905 على خبر مفزع من العيار الثقيل، كانت نتيجته تغييب واضع الأسس الأولية للوجود الفرنسي في البلاد (كبولاني) عن الساحة السياسية والعسكرية المحلية إلى الأبد، فكيف كانت مسيرة اغتياله؟ وماهي نتائجها وانعكاساتها على الأرض؟ .

بعد احتلال "تكانت" وإعلان معظم القبائل لخضوعها للحماية الفرنسية، بدأ كبولاني يفكر في احتلال آدرار² وضمها إلى المناطق حديثة الاحتلال، إلا أن مجموعة من المقاومة تمكنت من إنجاز عملية هجوم مباغت على معسكر كبولاني وتمكنت من اغتياله وذلك بعد أقل من شهر من استشهاد زعيم المقاومة في "تكانت" الأمير بكار بن اسويد أحمد على يد القوات الفرنسية.

مثلت حادثة مقتل كبولاني صدمة عنيفة أرقت الإدارة الفرنسية، نظرا لطبيعة العملية غير المألوفة من قبل، فلم يكن من المتوقع أن تهجم طائفة صغيرة على معسكر كبير ومحصن، وتقتل قائده وبعض الضباط، وتنسحب دون أن يتم القبض عليها أو الإمساك بها فكيف حصل ذلك؟

تشير الرواية الشفوية³ أن سيدي ولد مولاي الزين⁴، عندما دخل كبولاني "تكانت" ودحر تجمع ادوعيش، وفرض بالقوة علي القبائل الخضوع لفرنسا، رأى

¹ المنطقة الجبلية شمالي البلاد.

² منطقة جبلية في شمال البلاد، راجع الفصول الماضية.

³ هذه الرواية شائعة داخل البلاد، لكننا اعتمدنا فيها على الطالب أخيار: مرجع سبق ذكره، ص216، حتى تكون أكثر مصداقية، فالرواية الشفوية في مجتمع قبائلي عادة ما يشوبها تمجيد الذات، وتخليد بطولات القبيلة، فحينئذ تتجاوز الحقيقة، وتختلط فيها الأحداث، ويظهر فيها الإطناب.

⁴ هو العقل المدبر لهذه العملية، وهو أحد أفراد الطريقة الغظفية الصوفية.

في المنام أنه وجد ثعبانا كبيرا فقطع رأسه ، وفي الصباح ذهب إلى شيخه وقص عليه الرؤيا، فأولها بأنه سيقتل كبولاني، وأعطاه سيفا كان عنده ليستعين به على هذه المهمة الصعبة.

فانطلق ولد مولاي الزين من "الزرقة"¹، وفي طريقه استطاع تجنيد عشرين رجلا معظمهم من قبيلة إديشلي²، وكانت أسلحتهم من النوع القديم، وفي طريقهم إلى تجكجة التقوا بـ "احمد ولد بوبوط"³ فأخبروه بوجهتهم ، وطلبوا منه مرافقتهم ، لكنه اعتذر عن ذلك نظرا لكون الفرنسيين يعرفونه، غير أنه وصف لهم الشكل الداخلي للمعسكر وتحركات أعضاء الجيش خلال الليل والنهار⁴.

وعندما وصلوا إلى القرب من تجكجة التقوا بشخص سبق له وأن عمل في المعسكر، فأخبرهم عن حالة الحرس وأماكن تموقعهم، وأفادهم بأن المعسكر مربع الشكل له باب شمالي وآخر شرقي يتمركز فيه قلة من الجنود، بعد ذلك انقسمت الجماعة إلى قسمين: قسم توجه إلى البوابة الشمالية ويقوده سيدي بن مولاي الزين، أما القسم الآخر فتوجه إلى الباب الشرقي، وما إن دخلوا المعسكر حتى صاح ولد مولاي الزين بالتكبير، وأنقض على أحد الضباط بالسيف فشج رأسه، ورد عليه الضابط برصاصة من مسدسه، سقط على إثرها شهيدا، أما كبولاني فقد أطلق عليه النار "أحمود بن علية"⁵ فأصابه إصابة قاتلة⁶، وصعد على الحائط وصاح بأن كبولاني قد مات، فانسحبت المجموعة إلى النخيل في اتجاه الخارج تحت وابل من

¹ تقع في آدارر بين شنقيط وأوجفت.

² قبيلة محاربة تسكن آدارر.

³ أثناء دخول الفرنسيين "لنكانت" كان من المتعاطفين مع المقاومة هو ما جعل كبولاني يقوم باحتجازه لبعض الوقت.

⁴ الطالب أختيار: مرجع سبق ذكره ص 217.

⁵ من أكثر هذه الجماعة شجاعة وكان من المتحمسين لمقتل كبولاني.

⁶ تشير إلى أن الروايات شفوية مختلفة، ففي حين يعتبر البعض أن سيدي ولد مولاي الزين هو من قتل كبولاني، يعتبر آخرون أن ولد الصفرة من أجهز عليه، أما أحمود فإنه تمكن من إصابه فقط.

الرصاص يطلقه الجنود الفرنسيين مما نجم عنه جرح أحد أفراد المقاومة، وشل حركته حتى لحقه فريجاه فقتله¹.

وإذا كانت الرواية المحلية تسرد هذه الحكاية ، فإن الروايات الفرنسية جاءت متباعدة معها، إلى حد يمكننا أن نقول إن الروايتين المحلية، والفرنسية متباينة، وسنعرض أولاً لرواية "راندو Robert Randu"² الذي يعتبر مصدراً معاصراً للحدث، حيث يقول "...قبل الهجوم كان كبولاني ممتدداً على كرسي كبير، مستغرقاً في تفكير عميق وخاطب النقيب جرار قائلاً "كم هو مزعج عدم استمرارنا في الزحف على آدرار"، بعدها وقف كبولاني وقال يا جرار أنا ذاهب لأنام، ولكن بدلاً من أن يذهب إلى خيمته لينام فيها، ذهب ليستنشق الهواء النقي، واستند إلى الحائط الذي هو إلى اليسار عن باب المعسكر قرب المطبخ، وفي هذه اللحظة فوجئ بحركة غير عادية في الخارج، وصاح: دالو مسدسي، انطلقت عدة عيارات نارية خمسة أو ستة من مسلحين من المور³ ببنادق ذات طلقتين يداهمون الممر المغطى الغير محروس، والذي يعتبر المدخل الرئيسي للمعسكر، زهاء خمسة عشر وثبوا من فوق السور الصغير الشمالي، في تلك اللحظة وجدت صديقي القديم قد أصيب بجرح قاتل على عتبة داره، وجدت كبولاني مستنداً إلى إطار الباب، ونظر إلي لحظة وقال لي بصوت ضعيف ولكنه هادئ: أرنو أنا ميت، لقد قتلني البؤساء، لاحظت حينها أن الدماء تسيل بغزارة على ملابسه البيضاء... توجهت للبحث عن طبيب البعثة، راففته إلى غرفته عند حراسة المدخل ... حيث تم تمزيقه، ولم نتغلب على الجراح الكثيرة بسبب العديد من الرصاص ... تم تمديد كبولاني على الحصير الذي كان

¹ الطالب أخيار: مرجع سبق ذكره ص 218.

² عسكري فرنسي، خلف كبولاني بعد موته في تسيير الأمور السياسية والعسكرية، قبل أن يعين "مونتاني" من قبل الإدارة الفرنسية مفضلاً عما سئرى لاحقاً.

³ المور يطلقها البعض ويقصد بها الموريتانيون أصحاب البشرة البيضاء الضاربة في السمارة.

يغطي طاولة كبيرة، لم يفقد وعيه ومازال صابرا وصامتا، نزعنا عنه ملابسه بمقص، وتركناه عاريا والدم يسيل بغزارة من جرحيه، أحدهما أسفل ثديه الأيسر، والآخر وسط جوفه... وقد لا حظنا عندما حاولنا رفعه قليلا بقعة من الدم تحته، فأخبرني الطبيب أن اختراق الرصاص الذي أصابه في الجوف قد مزق ظهره.... أحد المور وقد خطه الشيب ظهر فجأة أمام الملازم "Etievant" وقد حمل بيديه كليهما سيفا يريد ضرب رأس الضابط وبدفعه من الملازم استطاع أن يجندل المهاجم أرضا ونزع السيف منه وغرز السيف في بطنه وبعد هذا بقليل فر المهاجمون¹.

أما الرائد جليبية فإنه له هو الآخر تصويرا خاصا لحيثيات الحادثة حيث يقول: "...وفي تلك الأثناء تمكن متعصب من آدرار يدعي سيد ولد مولاي الزين من تأليف مجموعة من 20 شابا يرافقونه في مهمة تقوده إلى الحوض حسبما أعلن لهم، وفي أثناء الطريق كشف لهم عن نياته الحقيقية، وقال لهم إنه رأى في المنام أن الله ألهمه بأن كبولاني سيموت على يده، فتمكنت المجموعة الصغيرة من أن تصل إلى تجكجة دون عرقلة، وفي يوم 12 مايو عند الساعة العاشرة مساء انسابت المجموعة تحت غطاء النخيل في جنح الظلام حتى وصلت إلى المدخل الذي لا يزال قيد البناء وقتلت بطلقة نارية واحدة عن كذب كبولاني الذي كان نائما مستندا إلى الحائط .

وخلال المعركة القصيرة التي تلت تلك الحادثة كانت خسائرنا أربعة قتلى وبعض الجرحى، وطردهم البيضان خارج المعسكر من قبل الملازمين (شيرى Cheruy، وأتيوفه Etievant) وكان هذا الأخير تلقى ضربة حسام من الشريف في رأسه فأدمته، ولكنه أخذ مسدسه وقتل الشريف².

¹ الطالب خيار، مرجع سابق ذكره، ص ص 221-222 .

² جليبية: مصدر سبق ذكره ص: 154.

ومع إقرارنا بأن الرواية المحلية ربما يصيبها التضخيم أو التقرير تبعاً لتوجهات أصحابها وقربهم وبعدهم النسبي أو الطريقي من منفذي العملية، فإن الرواية الفرنسية طبعها في أحد جوانبها "المركزية الأوروبية" التي لا تُسلم بالهزيمة، وتنقص الآخرين قدرهم ولا تعترف بقدراتهم، وإلا فإن مجموعة بسيطة ذات سلاح وعتاد أكثر بساطة، تخترق التجهيزات الأمنية المحصنة، وتتمكن من دخول أكبر معسكر حينها في البلاد، وتقتل قائده وبعض ضباطه، وتحدث بلبلة داخل هذا المعسكر، وهي خطوة جبارة وتعتبر تقديمية بمقاييس المرحلة.

ومهما يكن من أمر فإن الهجوم أسفر عن سقوط أربعة شهداء في صفوف المقاومة، وجرح سبعة، عثر على أحدهم بعد يومين من الواقعة¹، وشكلت بعد ذلك محكمة عسكرية لمعاقبته، حكمت عليه بالقتل شنقاً، أما الموتى فقد أمر النقيب "فريير جان" بجعلهم في حفرة وإضرام النار عليهم، حتى يكونوا عبرة لمن يحاول مرة أخرى الهجوم على القوات الفرنسية².

بعد ذلك أمر النقيب فريير جان، بإجراء تحقيق حول مقتل زعيمه والقائد السابق للقوات الفرنسية (كبولاني) وقد اتضح من نتائج التحقيق:

- أنه عندما قتل زعيم المقاومة في تكانت الأمير (بكار بن سويد أحمد) عثر الفرنسيون على مراسلات بينه وبين أمير آدرار، والشيخ ماء العينين³، وبعد حادثة الهجوم على المعسكر الفرنسي وقتل كبولاني، تم اختفاء هذه الوثائق مما يحيل إلى إمكانية ضلوع هذه الأطراف أو بعضها في العملية.

- أكد التحقيق صدق ما كان يتكهن به كبولاني من أن مصدر التحريض والممانعة ضد الفرنسيين نابع من أمير آدرار⁴.

¹ يتعلق الأمر بأحمد بن أباهما الذي عثر عليه الفرنسيين وهو لا يزال يواصل طريقه إلى آدرار، غير أن جرحه الغائر أبطى حركته ولم يتمكن من الالتحاق بأقرانه.

² الطالب أخيار: مرجع سبق ذكره ص 222..

³ سوف نعود بشيء من التفصيل لدور الشيخ ماء العينين في دعم المقاومة.

⁴ عبد الرحمن بن عمار، مرجع سبق ذكره ص: 181.

غير أن التحقيقات في مقتل كبولاني لم تكن هي الشغل الشاغل لفرنسيين في "تكانت" بقدر ما كان شغلهم توفير الإمدادات الكافية لإعاشة الجنود، وبما أن الكثير من القبائل قد أعلن العصيان، ونقض التحالف مع الفرنسيين، وصاروا بالتالي في حل من الموائيق السابقة، فإنهم صاروا يتربصون الدوائر بالقوافل الفرنسية القادمة من الجنوب، والتي تحمل إمدادات اقتصادية وعسكرية للقوات الفرنسية، وبالتالي فإن هذه الأخيرة المرابطة في "تكانت" لم يصبح أمامها إلا الاستيلاء بالقوة على قطعان الإبل، بغض النظر عن مالكةا.

إن مقتل كبولاني غير الخارطة السياسية – ولو لوقت يسير- وأفقد الوجود الفرنسي تلك الانسيابية السريعة، والاستيلاء المتواصل على المواقع، وانقسمت بالتالي الآراء حول مواصلة ما بدأه كبولاني إلى عدة اتجاهات:

- يمثل الاتجاه الأول القبائل التي رفضت الوجود الفرنسي منذ البداية، ، والقبائل الأخرى التي أعلنت الخضوع لكنها كانت مرغمة على ذلك، ووجدت في مقتل كبولاني الفرصة في انسحابها من الموائيق التي أبرمتها مع الفرنسيين، بالإضافة إلى هذه القبائل يوجد أمير آدرار وبعض المشايخ الدينيين، وتقوم فكرة أصحاب هذه الاتجاه على أن الاستعمار جاء لسلخ الناس من دينهم ومعتقداتهم ونزع الملك من أصحابه، وإبدالهم بآخرين، وتقليص امتيازات الأمراء....

- إن هذه الأمور وغيرها جعلت هذه المجموعة تقف في خندق واحد، وهو خندق رفض الوجود الفرنسي بكل أشكاله وألوانه، خصوصا أن أصحاب هذه الفكرة، قد أخذوا الدرس من احتلال الفرنسيين للمناطق السابقة على "تكانت"، فقد كان الفرنسيون في كل مرة يحتلون فيها مكان ويعقدون تحالفات مع قبائله، إلا ويتطلعون إلى السيطرة على مناطق أخرى، وبالتالي فإنهم لن يهدأ لهم بال حتى يسيطروا على البلاد كلها، فالأجدر عند أصحاب هذا الاتجاه هو محاربتهم في "تكانت" قبل أن يتحركوا إلى المحطة القادمة (آدرار).

-أما الاتجاه الثاني الرافض لاستمرار الوجود الفرنسي وطريقة معاملة السكان المحليين. فقد مثله التجار الفرنسيون المقيمون في سان لوي، فقد جدد هؤلاء التجار - كما فعلوا في السابق عندما عزم كبولاني على احتلال البلاد - رفضهم عمليات التوسع التي يقوم بها الجيش الفرنسي لأنها تضر بالروابط التجارية القديمة والمتجددة التي نسجها الفرنسيون مع السكان.

-في حين تشكل الاتجاه الثالث من الضباط وأصحاب السياسة، ويعتقد أصحاب هذا التوجه أن فرنسا قد حققت الكثير في موريتانيا في وقت يسير وبخسائر بسيطة وعليها أن تواصل ما بدأت، وأن أي تراجع عن استكمال مشروع الاحتلال يعني الهزيمة، لأن ذلك سيعطي قوة إضافية للمقاومة، ودعم نفسي ومعنوي، قد يغريهم على محاولة إخراج الفرنسيين من البلاد، بل إن ذلك لن يكون دافعا للمقاومين في موريتانيا فحسب، بل في عامة غرب إفريقيا، لأنهم بكل تأكيد سيتأثرون بما يحصل في موريتانيا.

وبما أن الاتجاهين الأول والثاني لم يكن لهما تأثير على السياسة الفرنسية المرسومة سلفا، والقاضية باحتلال البلاد كلها في أسرع وقت، فلم يكونا ليضيفا تغيرا يذكر على التوجهات الفرنسية آنذاك، (وذلك لأن رجال المقاومة لا تنفع معهم إلا قوة السلاح) - حسب نظرة الإدارة الفرنسية - أما التجار السانلويون فنظرتهم ليست نظرة المستعمر الهادفة إلى استكمال بناء الإمبراطورية الفرنسية في غرب إفريقيا، بقدر ما هي مصالح شخصية وذاتية، ولا تتعدى إلى المصلحة العامة الفرنسية.

وعليه تم تعيين "مونتاني كابدبوزك Montane Capdebosec" خلفا لكبولاني في منصب مفوض الحكومة العام في موريتانيا، وكان ذلك تنويجا لسياسة الاستمرار في احتلال البلاد وإخضاع ما تبقى منها، وعدم الركون إلى توقيف الحملات على "تكانت، وأدرار" لما يسببه ذلك من تضييع لهيبة فرنسا ومكانتها كقوة

لا تقهر في نفوس ساكنة غرب إفريقيا، وهذا ما يفسره وصول المفوض الجديد (مونتاني) إلى مركز تجكجة محملا بتعزيزات عسكرية وبشرية قصد إكمال مشروع الاحتلال وإخضاع منطقة آدرار التي تمثل حصنا للمنشقين عن فرنسا.

د. آدرار آخر القلاع وجه فرنسا

لقد مثلت "تكانت، و آدرار" عقبة كبيرة في وجه الفرنسيين، لما تحلى به أهل هاتين المنطقتين من صلابة في الموفق، وجلد في القتال، وإذا كان كبولاني بدهائه وخبرته العسكرية، قد استطاع أن يصل إلى قلب "تكانت" ويبنى قلعة تجكجة" ويرغم القبائل على الخضوع للفرنسيين، عن طريق التلويح بالقوة أحيانا، واستعمالها أحيانا أخرى، إلا أنه -وكما سبق - لم يكتب له التعمير حتى يرى مشروعه مكتمل البناء.

فقد كان يعد الأيام والليالي من أجل الوصول إلى آدرار، التي تعتبر مركزا للمقاومة، وحصنا تنبثق منه كل الحركات التي تزعج وتعرقل السياسية الفرنسية، كان آخر تلك الإزعاجات الهجوم على معسكر تجكجة وقتل كبولاني وبعض الضباط، وإثارة الفوضى داخله، وإعلان بعض القبائل بعد هذا الحادث خروجها عن السيطرة الفرنسية، وانضمامها إلى صفوف المقاومين.

غير أن الإدارة الفرنسية حاولت أن تجعل من موت كبولاني حدثا عابر، لا يغير من سياسة فرنسا اتجاه المنطقة، وفي نفس الوقت حاولت استكمال مشروع الاحتلال، الذي يحتم عليهم احتلال جبال آدرار، وهذا ما عبر عنه (وليام بونتي Wiliam Ponty¹) بقوله: "لأن القبائل البيضانية تنطلق في مقاومتها من مناطق وهي: النهر، تكانت، آدرار، وتنتقل هذه القبائل بين هذه المناطق باستمرار، ويكفي أن تصبح سيذا على هذه المناطق التي هي مراكز للتموين، حتى تنفرد بالسيطرة

¹ الوالي العام لفرنسا على إفريقيا الغربية الفرنسية.

على هذه القبائل المشار إليها.... إنا قد حصلنا على النهر، وتكانت، ويبقى لنا أن نضمن سلطتنا على آدرار¹."

لقد مكنت المراكز الدفاعية التي استولى عليها "مونتاني" - الذي خلف كبولاني - من الامساك بزمام الأمور في تكانت، لكن السلام لم يتوطد بشكل كافي، فبين الحين والآخر تظهر عمليات إغارة خاطفة، تقوم بها بعض القبائل والمجموعات القادمة من آدرار، مما جعل مهمة الأمن جد صعبة، ويجب على الإدارة الفرنسية مبادرتها قبل أن يستفحل الأمر، ويقوى عود تلك القبائل، وتذهب الرهبة والخوف الذي في قلوبهم من القوات الفرنسية ، وهذا ما أدى في النهاية استدعاء "غورو Gouraud"²، ليكون مفوضا عاما خلفا "لمونتاني".

وفي 25 أكتوبر 1907 وصل "غورو" السنغال ومنها انتقل إلى موريتانيا، وقبيل وصوله إلى هذه الأخيرة، تسلم رسالة من الحاكم العام لإفريقيا الغربية الجديد³، يشرح فيها السياسة الفرنسية التي يجب إتباعها، والتي تسير على الخط الذي رسمه منظرها ومنهدسها في موريتانيا "كبولاني" وقد جاء في الرسالة مايلي:

"..... إن الحكومة باختيارها لك لتكون مفوض الحكومة العام في موريتانيا، لم تراع كفاءتك العسكرية، ومهارتك في الإدارة، وما تتصف به من الحزم وحسن التصرف، وإنما أيضا لتظهر رغبتها الأكيدة في استمرار العمل الذي بدأه كبولاني وكسر له نفسه، وتبعه فيه مونتاني بلا نكد أو ملل... وكما ذكر الحاكم العام السابق روم في تعليماته بتاريخ 1905/5/29، فإن الأمر يفتضي بمتابعة نفس الأسلوب الذي أثبت نجاحه في موريتانيا وتحدد بموجبه منهاج السياسة الفرنسية تجاه هذا البلد....

¹ الراطي: مرجع سبق ذكره ص 63.

² غورو (1867-1946) عقيد في الجيش الفرنسي له خبرة في ترويض الخارجين على فرنسا في كل من الهند والجزائر وإفريقيا، وهذا ما اكسبه شهرة كبيرة، واشتهر على الخصوص في حملته على آدرار، والهادفة إلى إخضاع المناطق الشمالية من البلاد

³ يتعلق الأمر ب "وليام بونتي Wiliam Ponty الذي خلف "روم" على السنغال

إن تغيير القيادة لا يعني تعديلا في السياسة أو اختلافا في توجه العمل الذي بدء به، والمداومة على نفس النهج، وخاص فيما يتعلق بسياستنا إزاء المواطنين شرط أساسي للنجاح...¹.

تكفينا إطلالة سريعة لنفهم فحوى هذه الرسالة التي بعثها الحاكم العام لفرنسا على إفريقيا الغربية إلى مفوض موريتانيا، وهو في الأيام الأولى من تسلمه منصبه، حيث يرشده إلى أهمية انتهاج الطريق الذي عبده كبولاني، وسار عليه خليفته مونتاني، وتقوم فكرة هذا النهج على استخدام السياسة بدل القوة، وإثارة الخلافات بين المجموعة الواحدة حتى تفترق وتتشتت كلمتها، تقوم كذلك على تقريب بعض الجماعات، وإبعاد أخرى كانت لها في السابق حظوة وسمعة، حتى يتم ضرب الطبقات الاجتماعية بعضها ببعض، وحتى أيضا تشتغل القبائل في النزاعات الداخلية، والهموم البيئية، وتنسى العدو المشترك.

لكن كل هذا يتم بشيء من الحنكة والخفاء لا يستطيع معه السكان المحليين تمييزه وهذا ما نجح فيه كبولاني على الأقل في مرحلته الأولى (احتلال الترارزة، والبراكه) وسار عليه خلفه مونتاني، ولم يستطع أن يسايرهما في النهج "غورو" - كما سنرى- ولأن هذا الأخير بطبعه عسكري، فقد كان يتقن لغة السلاح أكثر من لغة السياسة، مع جنوحه في بعض الأحيان إلى التسييس، إلا أن ذلك لا يخرج من كونه "كان يحكم بققازين من حرير داخلها يدان من حديد".

عكف "غورو" على دراسة المراسلات والتقارير التي كان يبعثها ويتلقاها كبولاني من وإلى الإدارة الفرنسية في السنغال، وكذلك إلى الزعماء المحليين، وبعد دراسة هذه المراسلات تكونت عنده فكرة حول الخارطة الاجتماعية للبلاد، وطريقة المعاملة مع المشايخ التقليديين الذين اتخذهم كبولاني كقنوات يسرب من خلالها سياساته الاستعمارية، وكدروع فكرية تدافع عن مشروعية الاحتلال، وتجرم

¹ عبد الرحمن عمار، مرجع سبق ذكره، ص 204.

مقاومته، لذا فإن "غورو" قرر الاستفادة من الزعماء لتنفيذ سياسته، والسير على نهج أسلافه (كبولاني، مونتاني) الذين ثبتت نجاعة سياساتهم اتجاه السكان في خدمة مشروع الاحتلال، كما رأى أن يدعم هذه الأفكار بتحركات ميدانية تضمن له إصلاح الخلل وتفادي نقاط الضعف التي من الممكن أن يستغلها رجال المقاومة، وفي هذا الإطار عمل على تشكيل فرقتين من الهجانة¹، وزودهما بما يلزم من الجمل لضمان كفاءة عملهما².

لقد كانت المقاومة في آدرار قوية نوعا ما، في تحركاتها، واستطاعتها الوصول إلى القوات الفرنسية، وتكبيدها الخسائر، فقد استطاع رجال المقاومة أن ينفذوا ما يقارب من 135 هجوما خلال الفترة الممتدة من مارس إلى نهاية نوفمبر 1907، وبسبب هذه الهجمات استطاع أن يكبدوا الجيش الفرنسي خسائر مهمة تمثلت في قتل 3 ضباط و 5 من ضباط الصف و 134 قناصا و 7 أوربيين و 40 من البلديين جرحى، بالإضافة إلى نهب العديد من قوافل التموين، وقطع أسلاك التلغراف أكثر من 20 مرة ونهب الكثير من المواشي³.

وأمام هذه الوضعية الحرجة للقوات الفرنسية - هجومات متكررة، خسائر فادحة في الأنفس والممتلكات الفرنسية، عدم القدرة على حماية القبائل التي خضعت للحماية- كان لابد من التفكير الجدي في احتلال المنبع الذي تصدر منه هذه الهجمات (آدرارا) ويحتمى إليه المقاومون بعد تنفيذ كل عملية وفي هذا الإطار يقول العقيد غورو: "... الكل يبين أن عقدة القضية في آدرار وأنه لا يمكننا ضمان السلم ما لم نرد هذه القبائل عاجزة، فأدرار معقل الحجارة وسط الرمل بواحاته الأربعين، وما تنتجه من تمر وعير وقمح هو مخزن غلال الصحراء، هنا يجد تعساء البدو سد

¹ فرقة أنشأها القائد مونتاني، تعتمد على التحركات السريعة ومطاردة العدو، وعادة ما تتخذ الجمل وسيلة لتحركاتها.

² سعد خليل: مرجع سبق ذكره، ص 368.

³ جلييه: مصدر سبق ذكره ص 206.

رمقهم، وهنا في حماية الجبال يدبرون في غبطة عملياتهم، وينفذونها بسهولة ذلك أن 250 كلم فقط تفصل آدرار عن الترازة وتكانت بالكثير، ونظرا لجودة مطاياهم ومعرفتهم العميقة بالصحراء، ومن بين صفوفهم منشقون من الجنوب، قادة متميزون، يختار النهابون مواقعهم وأوقاتهم، وبعد القيام بالعملية وخلال الأربع والعشرين ساعة يكونون خارج المتناول، حيث لم تكن تسمح الأوامر حينئذ بالمطاردة، وبعد دخولهم إلى آدرار يخفون غنائمهم أو يبيعونها في واحد من القصور الأربعة: أطار، شنقيط، وادان، أوجفت، فكانت حرفتهم هذه أكثر مردودية مما كان يمارسه أصحاب النهب ضد القوافل القديمة على حساب تجارة السنغال¹.

من خلال ما سبق يمكننا - دون مشقة - أن نخرج بعدة استنتاجات من كلام "غورو" السالف الذكر :

* أهمية آدرار بالنسبة للمقاومة والفرنسيين على السواء، فهي تمثل للمقاومة مركز الانطلاق، ومركز الاحتماء بعد تنفيذ أي عملية، وهي بالنسبة للفرنسيين تمثل مصدر الإزعاج الذي تنبثق منه كل المصائب، وبالتالي فإن كلا الطرفين يتشبث بهذه المنطقة.

* أن عقلية "غورو" العسكرية لم تجعله يهمل الجانب الاقتصادي، خصوصا في مجتمع صحراوي، يمثل تأمين الغذاء غاية مطلب كل تشكيلاته، وبالتالي فإن ما تنتجه الواحات من تمر وقمح وشعير... يمثل مصدر عيش هؤلاء السكان، ومن يحتل هذه الواحات فإنه يسيطر على كل القبائل، وكان كبولاني قد تنبأ بهذه الحقيقة من قبل عندما قال "في الصحراء من يضع يده على النخيل يضع يده على الرحل"².

¹ جلييه: مصدر سبق ذكره ص 207.

² مريم بنت أحمد الأمين: مرجع سبق ذكره ص 48.

* إن معرفة نقاط قوة الخصم أساس الانتصار عليه، وعليه نلاحظ أن "غورو" يعرف قوة المقاومة (جودة مطاياهم، معرفتهم العميقة بالصحراء، وجود قادة متميزين من الجنوب، اختيار الأماكن والأوقات...)، وفي المقابل لم يركز المقاومون على معرفة نقاط قوة المستعمر لأن معرفتها تحيل إلى معرفة نقاط الضعف وبالتالي استغلالها للقضاء عليه.

* الغنائم التي يحصدها المقاومون، أصبحت تمثل لهم مصدر قوة، ومصدر نفع، وعوضت لهم بالتالي الخسائر الناجمة عن امتناع فرنسا عن دفع الضرائب إلى الأمراء، من جهة أخرى فإن هذه الغنائم أشغلت القبائل عن الاقتتال فيما بينها لتشتغل بعدو مشترك يمثل النصر عليه، الكثير من الغنائم يتم استغلالها في تدبير المعاش.

لقد كان "غورو" يدرك حقيقة آدرار (منطقة جبلية وعرة، مقاومون أقوياء، ونقاط مياه قليلة، واحات متناثرة...) لذا فإنه كان عليه أن يتعامل مع هذا الملف الشائك بكثير من الصبر والحيلة، بدءاً بإعداد قواته الموجودة على أرض "تكانت"، وتحصين مواقعهم، وجلب الإمدادات العسكرية والبشرية من المراكز الفرنسية الأخرى (لبراكنة، والترارزة) مروراً بمراسلة شيوخ وزعماء القبائل ومحاولة استمالتهم، وأخيراً السعي لاكتساب مناصرة وزير المستعمرات، أثناء زيارته للسنغال لبحث مشاكل المستعمرات في غرب إفريقيا، ومن بين تلك المشاكل الوضع في آدرار، الذي يمثل السيطرة عليها حماية المناطق الجنوبية من البلاد (الترارزة، لبراكنة) التابعة لفرنسا، والتي كان احتلالها هي الأخرى أساساً لحماية مستعمرة السنغال.

انتهز العقيد "غورو" زيارة وزير المستعمرات، وشد الرحال إلى السنغال ليقابله هناك لمحاولة إقناعه بضرورة احتلال آدرار قبل أن تؤثر عليه أفكار

المطالبين بالانسحاب من موريتانيا¹، خصوصا وأن هجمات المقاومة على المراكز الفرنسية تضاعفت بنسبة كبيرة، وعموما فقد تمت المقابلة، واقتنع الوزير بأهمية إعداد حملة آدرار، ووعد بعرض الفكرة على حكومته، وأن يتولى هو شخصيا تأييدها².

وفي التاسع من يونيو 1908 أرسل الحاكم العام للسنغال "بونتي" إلى وزير المستعمرات تقريرا يستعجله فيه على إعطاء موافقة من حكومته في البدء بعملية الاحتلال، وجاء في التقرير: "إن احتلال هذه المجموعة من واحات آدرار ضرورة لا بديل عنها لتأمين سلامة موريتانيا، ولقد كانت هذه الخطوة تشكل جزءا من برنامج بعثه كبولاني، وما كان ليتأخر لولا موت رئيس البعثة... إن حقوقنا الحالية لم تجابه بأي معارضة، وبالتالي يمكننا اختيار الوقت المناسب للعمل في هذه البلاد.. وأية محاولة في هذا الشأن لا يمكن أن تتم طالما لن يتحقق استكمال الاحتياجات الضرورية لعنصري القتال اللازمين وهما: إدارة للمعلومات تسمح بالعمل على أساس سليم وليس اعتباطيا، ووحدات من الهجانة تامة التنظيم والتدريب..."³.

ونظرا لتردد الإدارة الفرنسية في باريس بجدوائية مواصلة الاحتلال وضم آدرار مقارنة بالخسائر التي من المحتمل أن تتعرض لها القوات الفرنسية، فإن الرد على رسالة الحاكم العام "بونتي" لم يتم إلا في 11 سبتمبر 1908 حيث تلقى برقية من وزير المستعمرات يشعره فيها بموافقة الحكومة الفرنسية على إعداد عملية عسكرية إلى آدرار، وقد جاء فيها "... صادقت الحكومة في اجتماع مجلس الوزراء على التدخل في آدرار، وفي إطار اقتراحكم... ويمكنكم تحريك الحملة بمجرد أن

¹ كنا قد ناقشنا فيما سبق أن هناك تيارا يمثله التجار الفرنسيون في السنغال يطالب بانسحاب فرنسا من البلاد، ويعتبر أن هذا البلد الصحراوي لا يستحق أن يموت فيه الجنود الفرنسيين (كما حصل مع كبولاني وغيره من الضباط)

² عبد الرحمان بن عمار: مرجع سبق ذكره ص 214.

³ سعيد خليل: مدر سبق ذكره ص 395.

تروا الاستعدادات قد أصبحت تامة، وأن الموسم موات، وإني أجدد وصيتي لكم بالاهتمام بعدم تجاوز البرنامج السياسي والعسكري والمالي الذي أرسل إلي...¹. وقد يكون من بين الأسباب التي جعلت وزير المستعمرات يوافق هو وحكومته على تسيير حملة عسكرية إلى آدرار، تزايد هجمات المقاومة على المراكز الفرنسية - خصوصا مع بداية العام 1908- وقطعها الإمدادات والإعانات الموجهة إلى هذه المراكز، بالإضافة إلى تخريب أجهزة المواصلات التي تستغلها القوات الفرنسية للتواصل مع وحداتها العسكرية، وبقدر ما استغلت المقاومة العمليات الهجومية للضغط على الحكومة الفرنسية لسحب جيوشها من المنطقة، بقدر ما استغلها "غورو" والحاكم العام لإفريقيا الغربية "بوتني" لإقناع حكومتها بضرورة الموافقة على هذه الحملة، ودعمها المادي واللوجستي، لأن كرامة الجندي الفرنسي أصبحت على المحك.

والحقيقة أن المقاومة وحتى تلك اللحظة - نهاية 1908- كانت في موقع قوة بالمقارنة مع القوات الفرنسية، فقد تمكنت من قتل كبولاني، وأوقفت الزحف الفرنسي نحو آدرار ولم يستطع الفرنسيون تجاوز "تجكجة" رغم الإمدادات المتكررة من قبل الإدارة في السنغال، وبقيت الإغارات المتكررة على المراكز الفرنسية دون ثأر، وتم إخلاء موقع أكجوجت، وأصاب الاضطراب القبائل التي أعلنت خضوعها لفرنسا وبقيت قوات هذه الأخيرة في موقع دفاع وليس هجوم طيلة هذه الفترة.

اختار "غورو" بلدة "المجرية"²، لتكون قاعدة عسكرية لقواته، ومنها جهز حملته إلى آدرار، والتي بلغت 1000 رجل من بينهم 700 من الرماة، و 240 من الجمالة، و 30 من الفرسان و30 من أصحاب المدافع الثقيلة، هذا بالإضافة إلى

¹ نفس المصدر السابق، ص 397.

² تقع في تكانت، والسبب الذي جعل الفرنسيين يجعلونها قاعدة عسكرية ينطلقون منها، هو بعدها نسبيا بالمقارنة مع تجكجة، وكون هذه الأخيرة أصبحت معروفة لدى المقاومة، وأي تحرك منها سوف يشد انتباه رجال المقاومة، ويحسبون له حساب.

200 من الرماة الموريتانيين والذين لم يكونوا داخل التشكيلة العسكرية للحملة الفرنسية السابقة¹.

إن هذا الإعداد الكبير لحملة آدرار يفسر لنا مدى أهمية هذه المنطقة في السياسة الفرنسية وفي هذا الإطار يعلق الرائد العسكري في الجيش الفرنسي "جلييه" قائلا: "... ولهذا الغرض تم تجميع رتل من جميع أنواع الأسلحة يبلغ عدد أفرادها ألف رجل تحت قيادة غورو بدون علم العدو الذي ظن أنه في أمان في قلعته الصخرية، وخلال المرحلة العصيبة من نهاية سنة 1908 وبالرغم من نشاط الأعداء والخسائر المتكررة التي كبدونا، والغارات المتكررة، التي زعزت ثقة الموالين لنا فينا، وبالرغم من الأخبار التي تتردد بأننا سوف نخلي تكانت، وبالرغم أخيرا من إحباط أصدقائنا، ومن سلبية وسوء نية كثير من القبائل، وبالرغم من كل ذلك فقد ظل تحضير وتنظيم هذا الرتل يسير بنشاط في بلد تجوبه عصابات النهب، وكان التركيز على المجرية إذ تم اختيارها كقاعدة للعمليات والرجال والجمال والذخيرة والمعدات والمؤن، لأنها لا تلفت انتباه المنشقين الذين كانوا بسبب غرورهم بنجاحاتهم ربما يعتبرون ذلك تهيئة لإخلاء تكانت..."².

وتم تجميع الفرق الفرنسية المكلفة باحتلال آدرار، وتقسيمها إلى مجموعتين، إحداها تنطلق من تكانت برئاسة العقيد "غورو" وهي الأهم، والثانية تنطلق من الترارزة ويرأسها الرائد فيررجان، وقد غادر المجموعة الأولى "المجرية" في 6 دجنبر 1908 وكانت تتكون من كتيبة كبيرة تسمى كتيبة موريتانيا مقسمة إلى أربعة فرق تتشكل في مجموعات من:

* 550 قناصا

* مفرزة الجمال 113 قناصا

¹ مريم بنت أحمد الأمين: مرجع سبق ذكره ص 35.
² جلييه: مصدر سبق ذكره ص 210 - 211.

* قسم المدفعية الجبلية (محمولة على الجمال)

* كتيبة من الفرسان معهم 30 حصانا، ومجموعة من البيضان يتقلدون 60 بندقية، بالإضافة إلى 300 شحنة بارود احتياطية لكل فرد، و 500 عيار مدفع ثقيل، ومؤن غذائية تكفي لمدة شهرين، ومعدات صحية وطاقم لنقل الماء¹.

أما المجموعة الثانية التي تنطلق من التراززة فإن قيادتها كانت بيد "فريرجان"²، وتتألف من فرقة سنغالية، وفرق من البيضان معهم الجمال، وقد غادرت هذه المجموعة أرض التراززة في 12 ديسمبر 1908 متجهة إلى آدرار، في شكل تخفي، حتى لا تتعرض لهجمات المقاومة قبل أن تلتقي مع المجموعة الأخرى القادمة من تكانت³.

وبعد رحلة شاقة دامت ثمانية عشر يوما، دخلت القوات الفرنسية التي يقودها "غورو" آدرار، ثم توغلت إلى قرية "أوجفت"⁴، التي لم يجدوا فيها مقاومة، وكان ذلك راجع إلى أن رجال المقاومة كانوا يترقبون قدوم الفرنسيين من جهة التراززة (فرقة فريرجان) في حين سلك غورو طريقا لآخر حتى لا يتم رصده من قبل المقاومة.

وفي 25 من ديسمبر، قام الملازم "دجيلالي Djilalli" بحملة استطلاعية لمعرفة الأماكن التي يتواجد فيها المقاومين، إلا أن هؤلاء الآخرون استطاعوا نصب كمين لهذه البعثة وتم قتل جميع أفرادها ما عدى ثلاثة أشخاص استطاعوا الفرار⁵.
غير أن ذلك لم يعرقل القوات الفرنسية في متابعة المسير والوصول "أماطيل" التي تتمتع بموقع مهم فهي من جهة مفتاح الطريق إلى "أطار" عاصمة

¹ المصدر السابق ص 211.

² سبق التعريف به.

³ للمزيد من المعلومات حول هذه الحملة راجع:

Gouraud (Le Colonel), La pacification de la Mauritanie, journal des marches et opérations de la colonne de l'Adrar, Paris, Emile larose, sans date, 287 p.

⁴ إحدى قرى آدرار، تبعد 70 كلم من أطار عاصمة آدرار.

⁵ جلييه: مصدر سبق ذكره ص 214.

آدرار، من جهة أخرى تتوفر على العديد من الآبار والمراعي الخصبة، وربما يكون وجود الماء في "أماطيل" هو الذي جعل الفرنسيين يتحصنون بها قبل المسير إلى "أطار"، وبالفعل كانت هذه خطة موفقة إذا ما علمنا أن الماء يمثل أهم طرف في معادلة البقاء خصوصا في مكان صحراوي قد يسير الشخص فيه مئات الكيلومترات ولا تصادفه نقطة مياه.

أما القوات الفرنسية القادمة من التراززة والتي يقودها "فريرجان" فقد تعرضت لهجمات عديدة من قبل المقاومة قبل أن تصل إلى "آزوكي"¹، وأفادت المعلومات بأن هذه القوات تحتاج إلى المساعدة، لذا قرر "غورو" أن يسير بمجموعة من قواته، ويترك الباقين في "أماطيل"، وما إن علمت المقاومة بخروج "غورو" وبعض قواته حتى نفذوا هجوما قويا على الموقع استطاعوا من خلاله السيطرة على المكان، إلا أنهم لم يثبتوا نظرا لضربات المدافع الثقيلة التي يوجهها الفرنسيون إليهم².

إننا في هذا المقام لا نريد أن نسرد الأحداث سردا، لأن ذلك سيطيل هذا العمل، ويجعله بدون فائدة، غير أننا أيضا لا نرغب في إهمال بعض الأحداث، خصوصا المهمة منها، والتي ترتبت عليها أمور أخرى خلال تلك الحقبة، وعموما فإن القوات الفرنسية التي يقودها العقيد "غورو" والأخرى التي يقودها الملازم "فريرجان" قد اجتمعت في 1 يناير 1909، لتعلن توجهها إلى "حمدون"³ مرور "بأم آتيل" التي تتواجد بها بقية القوات الفرنسية.

وخلال عبور ممر حمدون الضيق، تعرضت القوات الفرنسية لهجوم من قبل المقاومة، رغم أن الأدلاء استطاعوا بخبرتهم ان يجنبوا الجيش الفرنسي الوقوع

¹ مدينة تاريخية قديمة، يوجد بها قبر الإمام الحضرمي قاضي الدولة المرابطية.

² محمد عبد الرحمان بن عمار: مرجع سبق ذكره ص 220.

³ إحدى واحات آدرار.

في كمين، ورغم ذلك فإن هذا الهجوم هز ثقة قوات "غورو" ولم يستطيعوا الصمود إلا بعد تدخل قوات المدفعية¹.

بعد ذلك أصبح الطريق سالكا إلى مدينة "أطار"، محط أنظار القوات الفرنسية لما تمثله هذه المدينة من مكانة ليس في نفوس أهل آدرار فحسب بل في نفوس الفرنسيين أيضا، فهي إلى جانب كونها عاصمة إمارة آدرار وإلى جانب ثقلها التاريخي، مثلت مدينة استقطاب لكل فئات المقاومة طيلة الفترة السابقة على (1909)، وبالفعل تمكن الفرنسيون في 9 يناير 1909 من دخول هذه المدينة، ولا حظوا بعد ذلك أن المقاومة قد انسحبت من المدينة ولم يبقى فيها إلا الرعاة والمغلوبين علي أمرهم.

ثم بعد ذلك شرع قائد القوات الفرنسية 'غورو' في بعض الإجراءات الإدارية والسياسية والعسكرية، فعلى المستوى الإداري والسياسي قام بفرض غرامات على القبائل التي كانت قد أعلنت ولائها للفرنسيين، ثم بعد ذلك أعلنت تمردا ودخولها في صفوف المقاومة، وكان الغرض من ذلك تأديب هذه القبائل، ومن ناحية أخرى تنبيه القبائل الأخرى من مغبة الخروج على المواثيق الفرنسية.

ونزولا على سياسة كبولاني اتجاه السكان - "فرق تسد" - عمل "غورو" على تنصيب "المختار بن عيدة"² أميرا لآدرار، بدلا من الأمير "سيدي أحمد بن عيدة"، حتى يفرق شمل القبائل بين مؤيد ومناهض، وبالتالي يتم ضرب بعضها ببعض، وفي المقابل بعث إلى القبائل من أجل القدوم وإعلان خضوعها للإدارة الفرنسية.

أما من الناحية العسكرية فإن غورو أعاد تنظيم قواته، وبدأ في بناء الحصون التي تحميه من هجمات المقاومة، وركز على جلب الجمال التي هي وسيلة النقل في الصحراء، وبما أن معظم الجمال التي بحوزته قد أنهكها طول المسير، وقلة

¹ جليليه: مصدر سبق ذكره ص 218.

² تولى وهو شاب صغير وقد أراد الفرنسيون من ذلك تشتيت الأسرة المالكة في آدرار وقد كانت الإمارة في أسلافه قبل أن تنتقل إلى أسرة سيدي أحمد بن عيدة.

الماء، وبعضها سقط غنيمة في يد المقاومة، لذا فإن "غورو" بعث إلى المناطق الخاضعة للنفوذ الفرنسي يستجلب منها الجمال، الضرورية لملاحقة العدو، والتنقل داخل صحراء مترامية الأطراف.

كان "غورو" يعتقد أن موسم "القيطنة"¹ الذي أوشك على البدء، فرصة مناسبة لحمل القبائل على الخضوع، ذلك أن هذه القبائل ستكون أمام أمرين أحلاهما مر، إما أن تدافع عن واحاتها بما يعنيه ذلك من تفوق للخصم في العدة والعتاد، وإما الهروب إلى داخل الصحراء، وتكون في هذه الحالة عرضة للهلاك بسبب العطش والمناخ القاسي، وتكون في المقابل قطعانها لقمة سائغة في أيدي الفرنسيين.

غير أن الحدث الأهم -حسب اعتقادنا- في تاريخ حملة آدرار، وكاد أن يئدها في بدايتها، هي الرسالة التي بعثت بها الحكومة العامة في باريس، إلى غورو عن طريق الحاكم العام للسنغال، وتفيد بأن مجلس الوزراء قد لمس النتيجة غير الحاسمة للحملة رغم طول المدة وحجم العمليات. وعليه فإن الحكومة تطلب ضرورة التجهيز الفوري لعودة الحملة، وفي ظروف لا تعرضها لمخاطر كبيرة، كتلك التي سبق وأن تعرضت لها، كما طلبت الرسالة من الحاكم العام في السنغال "بونتي" تنفيذ هذه الأوامر بما يتفق مع مصلحة فرنسا وكرامتها"، كما اقترحت الرسالة بديلا لحملة آدرار، وهو تشكيل وحدات من الهجانة تقوم ببعض العمليات خفيفة الحركة، والتي من خلالها يمكن من تحقيق بعض الاحتلال المحدود، وهذا من شأنه أن يقلل من النفقات الفرنسية على حملة بهذا العدد الوفير من الأفراد².

إن هذه الرسالة تثير مدى الشكوك الفرنسية حول جدوائية الحملة على آدرار، رغم اقتناع الأوساط الإدارية بضرورتها، إلا أن ما انفق عليها وما فقده الجيش الفرنسي من الأفراد، جعل الإدارة الفرنسية في باريس تطلب توقيفها، فلو أن

¹ يعني فترة نضج التمر.

² محمد عبد الرحمان: مرجع سبق ذكره ص 231.

المقاومة الوطنية في تلك اللحظات ركز جهودها وقامت بتوجيه ضربات قوية ومنظمة للجيش الفرنسي المرابط في آدرار، وربما توقفت الحملة ورجعت على أعقابها.

غير أننا أيضا يجب أن لا نطلق العنان للألماني، فنحن نعرف – كما سبق وأن بينا- أن الحاكم العام في السنغال "بونتي" الموجه إليه الرسالة هو صاحب اقتراح حملة آدرار، وأحد المطالبين بها والمدافعين عنها، بل هو الذي انتدب الجنرال "غورو" لهذه المهمة، فلا نتوقع منه إنهاء مباشر للحملة، وقد أحرزت انتصارات مهمة على الأرض، تمثلت في دخول "أوجفت وأطار وحمدون..."¹ خصوصا وأن الرسالة اشتملت على فقرة مهمة تجعل "بونتي" في سعة من أمره "بما يتفق مع مصلحة فرنسا وكرامتها".

استغل "بونتي" مرونة التعليمات الواردة إليه ليضيف تعليقا على هذه الرسالة عندما بعث بها إلى "غورو" وجاء فيه "... أعتقد أنه عند وصولك هذه التعليمات ستكون قد اشتبكت مع المجموعات المعادية، التي قررت منعها من الوصول إلى مناطق النخيل، بل على العكس لدي ثقة تامة أن الشدة التي ستقوم بها تلك العمليات ستصل إلى نجاح حاسم من الناحيتين المادية والمعنوية، وستتوج عملياتنا العسكرية بنفوق كما حدث في أماطيل، وحمدون، ورأس ريم..."¹.

لقد أصبح من المتعين على "غورو" أن يقوم بهجمات سريعة وقوية ضد المقاومة حتى يحرز نتائج مرضية، تبيض وجهه أمام الحاكم العام في السنغال، الذي أنقذ الحملة من مصير سيئ كان من الممكن أن يلحقها، لو نفذ الأوامر الموجه إليه من طرف الحكومة الفرنسية في باريس، والقاضية بتوقيف الحملة، وخروجها السريع من آدرار، قبل ان تفقد المزيد من الخسائر المادية والبشرية.

¹ جلييه: مصدر سبق ذكره ص 226.

تنامى إلى القوات الفرنسية في أطار أخبار تفيد بأن المقاومة وصلت إلى "أقصير الطرشان"¹ وهي في طريقها إلى أطار، فخرج النقيب "ديبرتويس" على رأس فرقة لعرقلة سير المقاومة، إلا أنه لم ينجح في ذلك، وفي الثامن والعشرين من يونيو، تقدم رجال المقاومة باتجاه أطار، ف وقعت اشتباكات بينهم وبين قوة استطلاعية يقودها الملازم "فيولي" الذي قتل في هذه المعركة، وأصاب الارتباك قواته، وكاد المقاومون أن يسطروا عليها، لولا أن تعزيزات أولية من الترارزة، والجمالة، أنقذت الموقف².

وفي الوقت الذي كانت القوات الفرنسية تعرقل سير المقاومة نحو أطار، قاصدة من وراء ذلك كسب الوقت وإنهاك خصمها، كانت قوات فرنسية أخرى تحتل مدينة شنقيط³، ثم ودان⁴، ثم تتابع مسيرها لطرده المقاومين وإجبارهم على الهروب إلى الصحراء حيث لا ماء ولا مرعى وجعلهم يموتون عطشا ووحشة، وفي الثامن والعشرين من أغسطس 1909 هاجمت القوات الفرنسية - في شكل مباغت - حي أمير آرار السابق والمطلوب من طرف فرنسا الأمير سيد أحمد عيدة⁵، وتم الاستيلاء على العديد من الغنائم⁶.

بعد هذه الانتصارات المتتالية للقوات الفرنسية، واستعمالهم أسلوب الأرض، المحروقة، وتفرق قوة المقاومة، وإنهاك القبائل بسبب طول الحرب، ونهب الجيش الفرنسي لممتلكاتهم، وهروب أمير آرار وجماعته من أطار، وعدم تمكنهم من توجيه ضربات قوية إلى الجيش الفرنسي ترغمه على الانسحاب، وسيطرة القوات

¹ يقع على بعد 25 كلم من أطار عاصمة آرار.

² جلييه: مصدر سبق ذكره ص 223.

³ مدينة تاريخية قديمة، ولا تزال قائمة حتى الآن، وقد تم في فترة من الفترات إطلاق شنقيط علي كل ساكني هذا القطر، خصوصا في المشرق العربي، وذلك راجع إلى كون ركب الحجاج كان في القديم ينطلق من هذه المدينة؛ للمزيد راجع حماه الله ولد سالم: موريتانيا في الذاكرة العربية مرجع سبق ذكره

⁴ مدينة تاريخية هي الأخرى، وإحدى المدن المهمة في آرار، سميت بوادان حسب الرواية الشفوية لأن بها وادان هما، واد علم، وواد تمر.

⁵ شكل هذا الأمير جبهة ممانعة ظلت تقض مضاجع الفرنسيين، ولم يضح السلاح حتى توفي 1934.

⁶ محمد عبد الرحمن بن عمار: مرجع سبق ذكره ص 235، يذكر جلييه أن "من بين تلك الغنائم ما يقارب 500 من الجمال راجع جلييه: ص: 224

الفرنسية على مواد المياه، والواحات، ومنع المعارضين من الاستفادة منها، كلها أمور جعلت القبائل تعلن خضوعها للسياسة الفرنسية، وتأتي رغبة ومرغبة في نفس الوقت من أجل إعلان الولاء والطاعة.

وقد أثر حضور هذه القبائل إلى الإدارة الفرنسية في أدرار من أجل مبايعتها، على قبائل أخرى في تكانت والترارزة، لم تضع إلى ذلك الحين أسلحتها، ولا زالت في حالة حرب مع فرنسا، وفي هذا الإطار حضر الأمير "احمد ولد محمد فال ولد سيدي"¹ إلى مركز "أبي تلميت"²، وأعلن ولائه للفرنسيين، ورغبته في العيش معهم بسلام، وقبل كل الشروط التي اقترحتها الفرنسيون من أجل الصلح، بما فيها إعادة الأسلحة التي اغتنتها خلال حربه ضد القوات الفرنسية³.

ومهما يكن فإن الوجود الفرنسي في البلاد، قد اصطدم برفض بعض الأوساط الدينية ذات التأثير الروحي، وبعض الأوساط السياسية ذات التأثير السلطوي، وسيتخذ هذا الرفض في نهاية شكل مقاومة عنيفة ومنظمة ضد المستعمر، استمرت إلى حدود سنة 1934، أرغمته في بعض الأحيان على التفكير في الرحيل عن البلاد وتركها، وأحياناً أخرى على تغيير خطته وسياساته.

¹ هو أحمد بن محمد فال التروزي، الملقب بـ أحمد ولد الديد أمير قوي وشجاع -حسب الرواية الشفوية- ناهض الوجود الفرنسي، وجرت بينه معارك قوية مع الجانب الفرنسي أشهرها معركة "لقويشيش" 1908.
² من أوائل المراكز التي أسسها الفرنسيون في البلاد، ويبعد حوالي 150 من العاصمة نواكشوط.
³ جلييه: مصدر سبق ذكره ص 228.

الفصل الثاني: محاولات التصدي للوجود الفرنسي

سبق وأن بينا أن الفرنسيين منذ قدومهم للبلاد، حاولوا نسج علاقات مع سكان البلاد، ظلت لفترة طويلة تتميز بطابعها التجاري، قبل أن يتسلل إليها البعد التوسعي الاستعماري خلال القرن التاسع عشر، حينما حصل خلل في ميزان علاقة الطرفين الناجم عن رسوخ قدم فرنسا في منطقة السنغال ومحاولة بسط نفوذها على منطقة النهر.

وإذا كان الوالي الفرنسي "لويس فيدربر" والولاة الذين تعاقبوا بعده على السنغال قد حاولوا بالقوة أحياناً، وبالدهاء السياسي تقويض النظام الأميري واحتلال المنطقة، فإن ذلك لم يكتب لأحد منهم، إلا مع قدوم الإداري "كبولاني" الذي استثمر ثقافته العربية الإسلامية، وخبرته في المجتمع البيضاني لترويض معارضي الوجود الفرنسي، وإقناع المثقفين (علماء، ومشايخ الطرق الصوفية، وأمراء) قبل العامة بمزايا الخضوع لفرنسا، ومغبة الخروج عن طاعتها.

استغل كبولاني الأوضاع السياسية الناجمة عن أزمة الخلافة في إمارة الترارزة، والأزمة الاقتصادية التي أحدثها كسوف تجارة الصمغ وتغلغل البضائع الأوروبية في المجتمع، لعقد معاهدات للحماية¹ بين فرنسا والمجموعات المحلية، وساعده على ذلك احتدام الصراع بين الأمراء، وحالة الفوضى الأمنية واقتناع بعض أصحاب النفوذ الروحي، بشعاراته البراقة القائلة بنشر الأمن، ووضع حد لعمليات النهب، وإعادة الاعتبار لأهل الدين.

وبالرجوع إلى الوضعية السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية للبلاد آنذاك، ندرك أن نفوس أغلب القوم كانت متدمرة من الأوضاع العامة المعيشة، ولم يكن ذلك ليخفى على كبولاني الذي باشر عملية الإخضاع، فعمل على كسب الزعامات الدينية، وضممان ولاء أصحاب الطرق الصوفية، وما تبقى من رموز السلط السياسية، وأول

¹ - كنا قد تطرقنا لجانب منها في الفصل الماضي.

خطوة قام بها في هذا المجال هي طرحه لسؤاله المشهور على الفقهاء، وهو ما يعبر عن خبرته في استعمال الدين السياسي، لتمرير قرارات الاحتلال وقبولها بين الجمهور المحلي.

لقد وجه كبولاني سؤالاً إلى الشيخ سيديا بابه¹، على الشكل التالي: "هل ينبغي للمسلمين أن يجاهدوا النصارى في أرض هم بها غير متعرضين لهم في شيء من دينهم بل يساعدونهم على اتباع الدين بنصب القضاة وما أشبه ذلك، وهذا مع علم المسلمين أن لا قوة لهم على الجهاد كأهل الجهة القبلية من أرض المغرب؟"².

أولاً: الوجود الفرنسي يتحول إلى نازلة فقهية:

كان جواب الشيخ سيديا، مكتوباً بعث به إلى الفرنسيين جاء فيه "الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي وساداتنا النبيين وجميع عباد الله الصالحين، الجواب أنه يتعين على المسلمين في هذه الحالة أن يهادنوا النصارى ولا يقصروا فيما يجلب لهم العافية، ولا يتعبوا أنفسهم بالمحاربة لهم كما تشهد له قواعد الشريعة ونصوصها، قال خليل³: (وللإمام المهادنة لمصلحة إن خلا عن كشرط بقاء مسلم وإن بمال لا خوف ولا حد وندب أن لا تزيد على أربعة أشهر وإن استشعر خيانتهم نبذهم وأنذرهم ووجب الوفاء وإن برد رهائن ولو أسلموا كمن أسلم وإن رسولا كان ذكر).."⁴

ثم يعدد الشيخ سيدي أسباب سقوط الجهاد والهجرة عن أهل المنطقة "و..ولا يخفى عجز أهل هذه البلاد عن مقاومة شوكة النصارى على كل من كان له قلب أو

¹ - هو الشيخ سيديا بابه بن الشيخ سدي (1860-1924) عالم وشيخ حضرة صوفية ومؤرخ، سليل قبيلة أولا أبيير العلمية، ينحدر من أحد كبار بيوتات العلم في بلاد شنقيط، فجدته الشيخ سيدي الكبير (1776-1868) هو الذي استطاع بخبرته السياسية وهيئته العلمية أن يجمع أمراء الإمارات البيضانية في اجتماع واحد من أجل الوقوف أمام الخطر الأجنبي خلال القرن التاسع عشر - كما أشرنا سابقاً - أما أبوه سيدي محمد (1830-1869) فلا يقل شأناً عن جده، وإن كان لم يعمر طويلاً، ألف صاحبنا في العقيدة والأصول، والتاريخ، وترك مجموعة من الرسائل، تتعلق بأحكام الجهاد وموقفه من الفرنسيين، سنحاول في هذا المقام التعرض لها والإستفادة منها بقدر ما تملبه طبيعة الموضوع.

² - نسخة بحوزتنا منقولة من نسخة الأستاذ محمد الأمين بن سيدي أحمد قرية إدين 58 كلم شرقي نواكشوط.

³ - المقصود خليل بن إسحاق (ت776) صاحب كتاب المختصر، الذي يعتبر عمدة الفقه عند أهل هذه البلاد.

⁴ - راجع النص في الملاحق.

ألقى السمع وهو شهيد من كل جهة، كعدم اتفاق الكلمة، وعدم بيت المال للمحتاج إليه في كل شيء، وعدم السلاح المساوي والمقارب لسلاح النصارى وغير ذلك، وكما أنهم معذورون في ترك جهادهم بل متعين عليهم تركه، فهم أيضا معذورون في ترك الهجرة عن أرضهم التي دخلوها عليهم لأجل الضعف عنها من كلهم أو جلهم حسب ما يعلمه العارف بالأحوال، ولعدم أرض لائقة بهم أمانا ومعاشا يهاجرون إليها، مع أن حال النصارى على ما ذكر في السؤال عن عدم التعرض للدين ومن الإعانة عليه ببناء المساجد ونصب القضاة، والقيام بكثير من غير ذلك من المصالح ككف المتلصقين والمحاربين، وجعل السلم بين القبائل المتحاربة في هذه البلاد السائبة...¹.

وقد ساند الشيخ سعد بوه² هذا الاتجاه القابل للاستعمار الفرنسي، وسلم بصحة جواب الشيخ سيدي على سؤال كبولاني، وقرظه نثرا وشعرا حيث يقول:

"ما كتبه الشيخ عمره الله معافى أعني الولي ابن الوليين العالم بن العالمين الشيخ سيدي، مسلم صحيح وما حمله على كتبه والبحث هنا إلا ما جعل الله في قلبه من الرحمة والرافة بالمؤمنين والسياسة وحسن التدبير، وراثة من آبائه الكرام رضي الله عنه وعنهم وعنا، فمن علم أن النصارى في أوفر عدد وعدة قد هدموا الدول القوية الوافرة العدد والعدة في مشارق الأرض ومغاربها، وعلم أن الشيخ عمره الله معافى ورضي عنه وعن سلفه أولى بوارثة النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم من غيره، سلم مكتوبه هذا لا محالة، ومن اتهم الشيخ فاليأت بالأفعال لا بالأقوال وإلا فحجة داحضة وتهمة باطلة..."

1 - نفس المصدر السابق.

2 - الشيخ سعد بوه بن الشيخ محمد فاضل (1848-1917) ولد قرب مدينة النعمة في الحوض الشرقي من موريتانيا، وكان عادة والده عندما تظهر علامة التميز على أحد أبنائه أن يبعثه خارج منطقة الحوض، لنشر العلم وتعليم الناس أمور دينهم، فقد بعث من قبل أخوه ماء العينين سنة 1869، ولما شب الشيخ سعد بوه وحفظ أغلب المتون أشار عليه والده بالانتقال إلى منطقة الجنوب الغربي "الكبلة"، فوافق وحط رحاله من منطقة "النمجات" وبها أسس زاوية وتصدر للتدريس والإفتاء، ترك مجموعة من المؤلفات يهمنها منها هنا الجانب المتعلق بموقفه من الفرنسيين مثل الجواب المحتوم للمنكر علينا أمر الروم، والنصيحة العامة والخاصة في منع محاربة أفرانسه.

قل للمحاول شأو الشيخ سيدي
أتى بنبذة علم لا نظير لها
كانها جمعت آي الكتاب وما
لا تتعب لنفسك ذات الزيغ والأود
كالدر إن برزت في سالف الأبد
سن النبي لنا في يومنا وغد¹

إلا أن جماعة أخرى من الفقهاء ومتعاطي العلم، لم تسلم بصحة جواب الشيخ سيدي، ونسجت الأدلة على ضرورة الجهاد، وإخراج الفرنسيين من البلاد "أدلة وهم صاغرون"، فحصلت إذن بين الطرفين سجلات معرفية كل يحاول إقناع الطرف الآخر بسلامة أطروحاته، وانقسمت بالتالي الساحة العلمية – وانقسمت معها الساحة السياسية – بين قابل ومقبل وحاضن للاستعمار، وبين معارض ودافع له بكل ما أوتي من قوة.

أ- آراء مساندي الاستعمار الفرنسي:

لم يكن اختيار الاستعمار لرواد وزعماء هذا الاتجاه من أجل الدفاع عنه، بمحض الصدفة، وإنما كان نتيجة خبرة – أثمرها الاحتكاك الطويل – بالمجتمع ومراكز التأثير فيه، ولم يكن كذلك تخندق هذه الطائفة من العلماء والفقهاء والمشايخ الصوفيين مع الاستعمار، وصياغتهم الأدلة بتحريم محاربتهم اعتباريا، بل كان نتيجة معرفة بفقہ النوازل، والأحكام السلطانية، والاستنباط من الكتاب والسنة، وفعل السلف².

¹ - راجع نص جواب الشيخ سيدي نسخة بحوزتنا.

² - سوف نقوم بدراسة أدلة اتجاه قبول الاحتلال الفرنسي، بناء على رسائل الشيخ سيدي بابه، ورسائل الشيخ سعد بوه وخصوصا النصحية العامة والخاصة في التحذير من محاربة لفرانصة، والجواب المحتوم في المنكر علينا أمر الروم، وكلها رسائل أصلية بخط مؤلفيها جمعناها من مناطق وأشخاص مختلفين لكل واحد منهم جزيل الشكر، غير أن تركيزنا على الشخصين (سيدي باب، وسعد بوه) يجب ألا يفهم منه أنهما وحدهما الذين قبلا وباركا الاستعمار الفرنسي في البلاد، بل لكونهما إضافة إلى كونهما فقيهين متبحرين، شيخا زاوية وحضرة مشهودة، ولهما تأثير علمي وسياسي معروف، والأهم من ذلك كله – ونحن بصدد دراسة تاريخية – أنهما تركا مخزونا وثائقيا ومادة علمية لا يمكن للدارس إهمالها أو الاستغناء عنها أو حتى الركون إلى غيرها.

حاول الشيخ سيدي باب من خلال رسائله¹، التركيز على الجانب الأمني في بعده الحضاري والإنساني وغياب السلطان الرادع، وضياع مصالح الناس جراء ذلك نتيجة الظلم، والحروب، والسبية والتسيب، "فهذه البلاد الصحراوية منذ قرون في سبية ما كان يرجى زوالها قبل هذا الأمر ولا يخفى ذلكم، كما لا يخفى أنما يتخيل في بعض الأوقات من زوال سببتها غير حقيقي، ولا يرتفع فيه التقاتل والتناهب والتظالم، وإن كان في بعضها أكثر منه بالنسبة إلى بعضها ولا يخفى ما في السبية من المفسد، والعيان فيه مغن عن البيان وإلى ما في كلام العلماء والحكماء مثل قول مالك² والثوري³ (سلطان جائر سبعين سنة خير من أمة سائبة ساعة من نهار)⁴.

ونفس الشيء نجده في رسالته الموجهة إلى أهل إفريقيا الغربية، التي يحضهم فيها على السمع والطاعة لفرنسا، وعدم محاربتها، وشكرها على ما وفرت من أمن وحقق للدماء، والضرب على يد الظالمين، وحفظ الأموال، وهذا كله يسوغ به الشيخ سيدي، مشروعية احتلالها، وهو ما يفهم منه نقيضه من تحريم الخروج عليها ما دامت متغلبة وليس بالإمكان دفع أذاها، "الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى سائر ساداتنا الأنبياء والمرسلين والصالحين، أما بعد فإن هذه الإفريقية الغربية لم تزل منذ قرون كثيرة بلاد سائبة يتقاتل أهلها ويتظالمون ويفقدون مصالح عظيمة ومرافق كثيرة إلى أن غلبت عليها الدولة الفرنساوية، فحققت الدماء وحفظت الأموال وأصلحت الأحوال، فوجب شكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة ثم شكر هذه الدولة المصلحة وربما تسخط من ضرب على يده من ظلم كان يعتاده أو

¹ - مثل رسالته إلى أهل مدينة أطار، ورسالته إلى محمد ولد حبت، ورسالته الموجهة إلى أهل إفريقية الغربية وجوابه على سؤال كبولاني، وفتواه المتعلقة بالهجرة والجهاد، وسنعرض لها كلها.

² - يقصد مالك بن أنس إمام دار الهجرة (93-179) أحد الأئمة الأربعة وإليه ينسب المذهب المالكي الذي يقتدي به أهل هذا القطر، وهنا يجدر بنا التنبيه إلى أن الساكنة المحلية ظلت متشبثة بالمذهب المالكي وظل مختصر خليل، ورسالة أبي زيد القيرواني أهم الكتب المعتمدة عند مدرسي الفقه في المحاضر (المدارس الأهلية العلمية) خصوصا المتعلقون منهم بالفروع إلى درجة أن بعضهم ظل يردد قول القائل "نحن خليليون إن ضل ضللنا وإن إهتدي إهتدينا".

³ - محيي الدين أبو زكريا يحيى بن الشرف الخوارزمي (631-676هـ).

⁴ - سيدي باب: رسالة موجهة إلى جماعة أهل أطار، بحوزتنا نسخة منها منقولة من نسخة أحمد بن مولود بن داداه، دار السلامة قرب أبي تلميت.

كلف بشيء من مصالح الأرض التي لم يكن يعرفها وغفل عن مصالح هي أعظم في دخول هذه الدولة ونسي مفاصد هي أدهى وأمر كانت حاصلة قبلها...¹.

أما الشيخ سعد بوه فإن علاقته مع الفرنسيين² قد شهدت تطورا ملحوظا، فالتأمل في كتابه "الجواب المحتوم للمنكر علينا في أمر الروم"³ يجده يحرص على لعنهم، والتهرب من مقابلتهم، والابتعاد عن التودد لهم، حيث يذكر أن سبب التقائه بهم كان عندما زار مدينة سان لوي، ونزل ضيفا على ابن المقداد⁴، الذي عرض عليه مقابلة الفرنسيين إلا أنه رفض، ومع ذلك فقد تم اللقاء على غير موعد مسبق، حين رفع مريدي الشيخ سعد بوه أصواتهم بالذكر، فجاءهم بعض الجنود الفرنسيين ونهروهم "فأتانا جماعة من النصارى لعنهم الله تعالى وزجرونا عن الذكر فقام إليهم مريدنا محمد الأمين بن عيسى، وصفع رئيسهم فأدمى أنفه وملاً دمه لحيته وثوبه، فأرسل النصارى مريدهم إلى رئيس قريتهم فجاء عاجلا وتكلم بعض الكلام فأغضبني حتى حلفت له أن لا يتكلم أحد لنا ولا لمريدنا هذا، إلا وخسف بالقرية فارتاعوا والله الحمد غاية الروح، ووجلوني غاية التبجيل وأهدوا إلي غاية الهدية، وطلبوا مني العهد فتعاهدت معهم على أن أمن من وصل بلدا أنا فيه، وأؤمنه من بني حسان ما داموا لم يقع بينهم وبينهم حرب، لا أزيد ولا أنقص، وعاهدوني على أمور

¹ - سيدي باب: رسالة إلى أهل إفريقية الغربية، راجع الملاحق.

² - كنا تعرضنا لحياته في الصفحات الماضية، أما علاقته مع الوافد الأجنبي فإننا سنتلمسها من خلال آثاره العلمية، خصوصا الجواب المحتوم، والنصحية العامة والخاصة.

³ - يحاول فيه المؤلف التعرض لبدايات اتصاله بالفرنسيين، ولموقفه منهم بعد إنكار البعض عليه تحاوره معهم، غير أن موطن الخلاف بين هذا الأثر والنصحية العامة والخاصة، هو أن صاحبنا هنا موقفه غير متأكد منه نتيجة - على ما يبدو - ما صدر من المنكرين عليه، وبالتالي فإنه همه وشغله الشاغل إقناعهم بأنه ليس نصيرا للفرنسيين وأن ما يقوم به خدمة للدين، أما النصحية العامة والخاصة فعلى ما يظهر - لنا - أن موقفه أكثر صلابة، وقناعته به أكثر رسوخا وامتانة لذلك لا يجد حرجا في سرد الأدلة واستنباط الأحكام بسقوط الجهاد والهجرة.

⁴ - هو محمد بن المقداد، سنغالي درس بداية حياته في الجنوب الغربي الموريتاني (الترارزة) ثم أصبح بعد ذلك مترجما رئيسا لدى الإدارة الاستعمارية بالسنغال، عرف عنه تفانيه في خدمة الاطماع التوسعية فرنسية راجع حوله:

- محمّد بن محمّد: قراءة في الأرشيف السنغالي، مرجع سبق ذكره، ص:28.

أنهم لا يصدون أحد عن الذكر جهاراً، وأن لا يؤذى في أرضهم أحد من تلامذتي فتفرقنا على ذلك والله يحكم لا معقب لحكمه"¹.

في حين نلاحظ أن موقفه هذا تغير بدرجة كبيرة عندما بدأت النية الفرنسية باحتلال البلاد تتضح معالمها، ففي "النصيحة العامة والخاصة"² نلاحظ أنه أصبح واحد من أبرز المعول عليهم في تشريع المشروع الكبولاني، وبالتالي فإنه في هذه الرسالة – النصيحة العامة والخاصة – يعرض للأحاديث الناهية عن حمل السلاح، ويقوم بإسقاطها على من أراد الجهاد وإخراج المستعمرين "... إن السلاح وإن كان حمله من سنته ﷺ وقد أمر به في عدة أحاديث، كالحديث الذي معناه {من قطع شبراً بغير سلاح فليس منا} والذي فيه {رزقي تحت ظل رحمي} وغير ذلك مع ما في القرآن من ذكر القتال وأخذ الحذر والاستعداد بالقوة وغير وغير، فلا يخفى على كريم علمكم ما كان يوصيكم به من ضد ذلك عند ظهور الفتن التي أولها قتل عثمان كما فهمه جل الصحابة رضوان الله عليهم كالحديث الذي فيه {قطعوا أوتاركم وكسروا قسيكم} والذي فيه {اتخذ سيفاً من حطب} والذي فيه {الماضي فيها خير من الساعي والقائم خير من الماشي والقاعد خير من القائم} والذي فيه {يوشك أن يكون خير مال المسلم}.. إلخ، والذي فيه {كن خير ابني آدم} يعني قابيل وهابيل، أي كن المقتول ولا تكن القاتل، والذي فيه {ولو أن تمسك بأصل شجرة حتى يأتبك الموت...}³.

يحاول الشيخ سعد بوه هنا توظيف ما أمكن توظيفه من الأحاديث الزاجرة عن الفتن والمطالبة بالابتعاد عنها، حتى لا يكون المسلم وقوداً تشتعل به تلك الفتن، ويصطلي بنيرانها باقي أفراد المجتمع، ومع أن هذه الأحاديث واردة في الحث على

¹ - سيدي محمد بن ملاي أحمد بن جعفر: حروب التوغل الفرنسي، مطبعة الدستور، الطبعة الأولى، نواكشوط 2009 ص:48.

² - هي في الأصل رسالة وجهها إلى أخيه الشيخ ماء العينين يثنيه فيها عن حمل السلاح، بحوزتنا نسخة منها.

³ - النصيحة العامة والخاصة: مصدر سبق ذكره، راجع الملاحق.

الابتعاد عن الفتن داخل المجتمع المسلم، بمعنى أن طرفيها مسلمون، فإن الشيخ أسقطها على محاربة الغازي الأجنبي، وأوردها كأدلة ترغيب في الانعزال وترك الجهاد.

وعموماً فإن المجموعة المهادنة للاستعمار، والراغبة في وجوده ركزت على مجموعة من القضايا أثناء طرحها "القضية مسألة المخالف في الدين"، و"مودة الكافرين" وهي مسائل اعتمدوا فيها على سقوط الجهاد، ونفي وجوب الهجرة، والإحسان على الآخر...

1. سقوط الجهاد عن أهل البلد:

استنتجت هذه المجموعة جملة الإكراهات المانعة من وجوب الجهاد، وذلك نتيجة الفوضى السياسية، والانفلات الأمني، وعدم وجود الإمام العادل الذي يقيس المصالح والمضار، ويسهر على الشأن العام، واستخلصت الحجج من استقراء التاريخ وسرد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فكيف صاغت تلك البراهين؟

تمكنت هذه المجموعة من الدفاع عن موقفها بتحديد المقصود من الجهاد والحكمة منه، فهو قتال المشركين لإظهار الحق، ودخول غير المسلمين في هذا الدين، مع وجود القوة المتكافئة أو المتقاربة، "واعلم أن الجهاد المذكور هو قتال أهل الشرك والطغيان على إعلاء كلمة الله، ليتنافسوا بذلك إلى الدخول في دين الله طوعاً أو كرهاً، وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى، مع نفاذ البصيرة وخلوص النية والغيرة على دين الله، وكل ذلك بشرط القوة المكافئة أو القريبة منها، ومهما اختل ركن أو شرط مما ذكر كان إلى الفتنة أقرب منه إلى الجهاد، بل نقول إن الجهاد الشرعي قد تعذر منذ أحقاب فكيف نطلبه اليوم، فإن كنت تسارع إلى الحرب لتدركه جهلاً منك بحقيقة الأمر فاعلم أنك تسارع إلى إيقاد نار الفتنة وإيجاد العدو إليك السبيل وإمكانه من تغريبك وتسليطه على السبي لحريمك ومالك ودمك"¹.

¹ - النصيحة العامة والخاصة، مصدر سابق.

إلا أن التنافس في دخول الدين، الذي جعله الشيخ سعد بوه كنتيجة من نتائج الجهاد الشرعي، لا يتأتى في هذا البلد نتيجة ما عرفته البلاد من تفكك سياسي وما صاحب ذلك من عدم الاستقرار على جميع الأصعدة، وهذا ما عبر عنه الشيخ سيدي في رسالته إلى أهل أطار "كما لا يخفى أن ما يتخيل من بعض زوال سيبتها غير حقيقي ولا يرتفع فيه التقاتل والتناهب والتظالم وإن كان في بعضها أكثر منه بالنسبة إلى بعضها ولا يخفى ما في السببية من المفاصد والعيان فيه مغن عن البيان"¹.

نلاحظ إذن أن هم السببية، كان شغلا أخذ حيزا من تفكير أصحاب هذا الاتجاه، وهذه السببية مرتبطة عندهم بالتفكك السياسي، وغياب السلطان، مما جعلهم يركزون على فوائد الحاكم إلى جانب مضار غيابه "اعلموا أرشدكم الله أن في وجود السلطان في الأرض حكمة لله تعالى عظيمة ونعمة على العباد جزيلة، لأن الله سبحانه وتعالى جبل الخلق على حب الانتصاف وعدم الإنصاف ومثلهم بلا سلطان مثل الحيتان في البحر يزدرد الكبير الصغير، فمتى لم يكن لهم سلطان قائم، لم ينتظم لهم أمر، ولم يستقم لهم معاش، ولم يهنأوا بالحياة، ولهذا قال بعض الحكماء (لو رفع السلطان من الأرض ما كان لله في أهل الأرض حاجة) ومن الحكم التي في إقامة استقامة أمور العالم واعتداله بغير مدبر ينفرد بتدبيره كذلك لا يتوهم وجوده وترتيبه سلطانان في بلد واحد لا يستقيم إلا هان للعالم، والعالم بأسره في سلطان الله تعالى كالبلد الواحد في يد سلطان الأرض"².

وأسهب الشيخ سيدي بابا في مزايا السلطان³ وعظم نفسه على عامة الناس، فقاس مضاره بجانب منافعه على المطر الذي تحيي به الأرض وترحم به الدواب، وفي نفس الوقت يتأذى به آخرون فيسقط البنيان ويهلك آخرون بسبب سيوله، كما قاسه على الرياح، والصيف والشتاء، والليل والنهار، وكأنه يلوح بفكرة ضرورة

¹ - الشيخ سيدي رسالة إلى أهل أطار مصدر سبق ذكره.

² - الشيخ سيدي بابا: فتوى متعلق بالجهاد والهجرة، بحوزتنا نسخة منها.

³ - راجع نفس المصدر السابق.

نصب الإمام، ويحث بني جلدته على ذلك، ويذكرهم بفوائده العامة والخاصة، حتى لو كانت تلك الفوائد تمثل لآخرين مصائب، مثل... مضار السلطان في جنب منافعه مثل الغيث الذي (هو) سقيا الله تعالى وبركات السماء وحياء الأرض ومن عليها، وقد يتأذى به المسافر ويتداعى البنيان وتكون فيه الصواعق ويدر سيوله فتهلك الناس والدواب والذخائر ويمود له البحر فتشتد بليته على أهله ولا يمنع ذلك الخلق إذا نظروا إلى آثار رحمة الله تعالى في الأرض التي أحيى، والنبات الذي أخرج والرزق الذي بسط والرحمة التي نشر أن يعظموا رحمة ربهم ويشكورها... ومثاله أيضا مثل الرياح التي يرسلها الله نشرا بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب، ويجعلها لقاحا للثمرات ورواحا للعباد ويتنسمون منها ويتقلبون فيها وتجرى بها مياههم وتوقد بها نيرانهم وتسير بها في البحر أفلاكهم، وقد تضر بكثير من الناس ولا يزيلها ذلك عن منزلتها من قوام عبادته وتمام نعمته...¹.

بل إن الشيخ سعد بوه ذهب أبعد من هذا عندما اعتبر الجهاد ضد الفرنسيين فتنة وليس جهادا، وتمثل بالأبيات التالية التي كان السلف يرددونها عند حصول الفتن، تنفيرا منها، ودعوة للابتعاد عنها:

الحرب أول ما تكون فتية	تزهو بزينتها لكل جهول
حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها	ولت عجوزا غير ذات حليل
شمطا تغير لونها وتنكرت	مكروهة للشم والتقبيل ²

ثم أورد سعد بوه كلام القسطلاني³ حول الأبيات السالفة (المراد بأنهم يتمثلون بهذه الأبيات يستحضرون ما شاهدوه وما سمعوه عن الفتن، فإنهم يتذكرون بإنشادها

¹ - المصدر السابق.

² - النصحية العامة والخاصة: مصدر سبق ذكره.

³ - شهاب الدين القسطلاني (851-923هـ) أحمد بن محمد بن أبي بكر بن علي القسطلاني، له مؤلفات أهمها تحفة السامع والقارئ بختم صحيح البخاري، ومناهج الابتهاج لشرح الجامع الصحيح...

ذلك فيصدهم عن الدخول فيها حتى لا يغتروا بظاهر أمرها)، فإذا تأملت أيها الأخ وأخذت خبر ما حصل فيما مضى من جهادهم هذا، والنتيجة والمفسدة فيه، علمت أن أسلافنا رحمهم الله مصيبون في ترك السلاح¹.

ويبدو أن وجهة نظر صاحب الاستقصا² حول محاربة الكفار، لم تكن غائبة عن الداعمين للوجود الفرنسي، وقاموا بإسقاطها على المجتمع والظروف التي يعيشها، ومع تقارب الظرف الزماني والمكاني الذي أنشئ فيه الناصري، وأصحاب هذا الاتجاه، وتقاطعهم في الغايات، إلا أن ذلك لم يمنع هؤلاء من استخدامها كحجة لمنع الجهاد، وتحريم الوقوف في وجه المستعمر "وقد قال أيضا صاحب الاستقصاء قبل كلامه السابق ببسير ما نصه: (فهذا القطر المغربي تدارك الله رمقه، على ما نرى من غاية الضعف وعدم الاستعداد، فلا ينبغي لأهله المسارعة إلى الحرب مع العدو، والكافر مع ما هو عليه من غاية الشوكة والقوة، وقد تقرر في علم الحكمة أن المعاندة والمدافعة إنما تحصل بين المتضادين والمتماثلين ولا تحصل بين المتخالفين، وحالنا اليوم مع العدو ليس من باب التضاد ولا من باب التماثل بل هو من باب التخالف فلو فرضنا أن العرب اليوم مماثلون العدو في القوة والاستعداد لما كان ينبغي لهم ذلك لأنه ليست العدة وحدها كافية في الحرب ولا كثرة الرجال والمقاتلة وحدها بالذي يغني فيها شيئا، بل لا بد مع ذلك من اجتماع الكلمة وكون الناس فيها على قلب واحد، ولا بد مع ذلك من ضابط يجمعهم وقانون يسوسهم حتى تكون الجماعة كالبدن الواحد يقوم جميعا، وهذا معنى ما صح في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم {المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا}، فإن لم يكن قانون ولا ضابط فلا بد من نفاذ البصيرة في الدين وقوة اليقين والألفة فيما بين المسلمين

¹ - الشيخ سعد بوه: النصحية العامة والخاصة، مصدر سبق ذكره.
² - أحمد بن خالد الناصري السلاوي.

والغيرة على الحريم والوطن وجودة الرأي والتمرس بالحروب ومكايد المشركين وأهل الغرب اليوم منسلخون من هذا كله أو جله...¹.

ونجد هذه المجموعة تربط بين وجود السلطة، وتطبيق الدين، وإسقاط الجهاد، والتعامل مع الأجنبي لتبرير الاحتلال الفرنسي، وهذا راجع في مجمله إلى فهمهم لظرفية المجتمع، ودلالات النصوص الشرعية²، وعلى هذا الأساس فهم مستعدون للتعامل مع أي سلطة بغض النظر عن طبيعتها، أو ديانتها، أو أفكارها، ما دامت ستوفر جوا من الأمن يستطيع معه الفرد إقامة شعائر الإسلام دون الخوف على نفسه، أو ماله أو عرضه، وما دامت أيضا هذه السلطة متغلبة بالقوة ولا يتوقع زوالها "وبالجمع فمبنى ما ذكر في باب الإمامة على الاختيار والافتقار، وأما عند العجز والاضطرار واستلاء الظلمة والكفار والفجار وتسليط الجبابرة الأشرار، فقد صارت الرئاسة الدنيوية تغلبية وبنيت عليها الأحكام الدينية المنوطة بالإمام ضرورة، ولم يعبأ بعدم العلم والعدالة وسائر الشرائط، والضرورات تبيح المحذورات"³.

ومن خلال ميزان قوة الطرفين (الجانب الفرنسي، والجانب المحلي) بنى الراغبون في وجود فرنسا رأيهم في عدم وجوب الجهاد، فالقوة المتكافئة، أو المتقاربة عندهم شرط يدور معه حكم الجهاد وجوبا، وتحريما، وما دام الطرف المحلي لا يتوفر على ما يرد به هجوم القوات الفرنسية من العدة والعتاد، فإن وقوفهم أمامها يعتبر إلقاء بالنفس إلى التهلكة، وليس جهادا شرعا، جرى ذلك من خلال مقارنة قوة الطرفين على نحو لا يخلو من غرابة، ومبالغة واضحة "وتفكر في أمر هؤلاء النصارى ولا تظن أنهم كالدول التي ترى، لا ومعاذ الله فإن قصرا واحد من قصورهم التي في البر، كاندر⁴ وخاي⁵ ودكار وغير ذلك يشتمل على ما لا يحاط به

1 - الشيخ سعد بوه، مرجع سبق ذكره، ص:7.

2 - حسب ما فهمناه من خلال الفتاوى التي أصدرها وسبقت الإشارة إليها.

3 - سيدي بابيه: فتوى بشأن التعامل مع الفرنسيين، مصدر سبق ذكره.

4 - المقصود بها محليا، سان لوي.

5 - تقع في السودان الغربي (مالي).

من السلاح والنفقات والجنود، مما لا يكون إلا للعثمانيين وأمثالهم وأحرى ما في معاقلمهم ومواطنهم في جزائر البحر، والدليل على ذلك أنني أدركت عند مجيئي للساحل جميع السودان مشحونة بالدول القوية والملوك والجبابرة والأمراء والعلماء فما زال الفرنسيون يقتحمونهم قرية قرية ويقهرونهم ملكا ملكا، عاما بعد عام إلى أن بلغوا الغاية القصوى، مثل أمراء إيسنغان كالتجاني ونجور وأبدل وهال بر وأمراء أفسريز على كثرتهم وبلاد فوته وأمرائها كابن المام وابن عالي دند وكابن الحاج عمر الذي صح أنه يوم ذهب من عندهم ذهب بألف بغل موقرة ذهبها فما أغنى عنه ماله ولا جنوده شيئا.. فما زالوا يناوشون كل ملك حتى يدخلوا عليه حصنه ويقبضوه أو يهرب منهم طريدا ذليلا... وأما نحن أهل هذه الصحراء فالغني من أهل بوادينا من عنده ذود من الإبل القليل ومن أهل قرانا من عنده حظيرة أو اثنتان من النخيل أو أعبدة قليلة... أما النصارى فالفقير منهم من يجهز جيشا كثيرا أعواما عديدة من نفسه دون بيوتات أموالهم ولا ينقص هذا من ماله إلا ما ينقص البحر من رام نزحه بأشداقه"¹.

ورغم إعطاء هذه المجموعة لمسألة الجهاد ما تستحقه من الاعتناء، من خلال سرد الأدلة الشرعية، والعقلية، وعمل السلف وآراء أهل العلم، فإنهم جعلوا قضية الهجرة مسوغا آخر لعدم لزوم الجهاد، ومبرار لقبول الأمر الواقع، وطرح السلاح، والمكوث في البلاد، وحط عصى الترحال.

2- عدم وجوب الهجرة:

هناك علاقة قوية بين الجهاد، والهجرة تجعل هذه الأخيرة ساقطة عند الجماعة المؤيدة للتعامل مع النصارى²، فعندما أوردوا الأدلة المانعة من الجهاد،

¹ - النصحية العامة والخاصة، مصدر سبق ذكره، ص:12.

² - أحيانا نجدنا مضطرين لاستعمال هذا المصطلح (النصارى) نظرا لكثرة وروده في المصادر المعتمدة، ونظرا كذلك لشيوع استعماله بين أفراد المجتمع، وهو ينصرف إلى الأوروبيين عامة والفرنسيين خاصة.

ركزوا أيضا على مسألة الهجرة وسقوطها عن أهل القطر، بسبب ارتباط الجهاد والهجرة من الناحية الشرعية، وتوحد أدلتها.

واعتبر هؤلاء أن الهجرة الواجبة هي على من خاف على دينه من الفتن، وأما حالة البلاد - عندهم - فهي مخالفة لذلك، فالفرنسيون لا يتعرضون للدين ولا يردون الناس عن عقيدتهم "فقد تقرر في قوانينهم المتفق عليها بينهم منذ حين عدم التعرض لأحد من أهل الأديان كائنا من كان، وأن من تعرض لصاحب دين من المسلمين وغيرهم يعاقب معاقبة شديدة، وقد رأينا من أسلم من الفرنسيين وغيرهم في اندر واندكار (المقصود دكار) لا يتعرضون له بقليل وكثير بل يكادون تكون النصرانية وسائر الملل عند جمهورهم الآن سواء"¹.

وبخصوص الهجرة أفتى الفقيه محمد الأمين بن أحمد زيدان² بعدم وجوبها على أهل البلاد لأن أكثرهم لا يطيق الهجرة لضعف جسمه، وقلّة ذات اليد، وغياب البلاد الملائمة لسكناهم، وطالما أن الفرنسيين لا يمنعونهم من ممارسة عباداتهم، وشعائرهم فلا تجب عليهم³.

وقد قام الفقهاء الذين أسقطوا الهجرة، بتحليل الأدلة الواردة فيها وأبانوا أن الهجرة الواجبة، هي عندما كان المسلمون قلّة يخافون بطش المشركين، أما عندما انتشر الإسلام لم تبق واجبة إلا على من أسلم في دار الكفر وقدّر على الخروج، وأشاروا إلى قول عائشة رضي الله عنها في بيان مشروعية الهجرة وأن سببها الخوف من الفتنة، والحكم يدور مع علته، واستدلوا بأن حديث "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين المشركين" على أنه محمول على من لم يأمن على دينه،

¹ - سيدي بابيه: رسالة إلى سيدي محمد بن حبت، مصدر سبق ذكره، ص:2.

² - محمد الأمين بن أحمد زيدان الجكني (1813-1916) عالم وشيخ محظرة ترك العديد من المؤلفات منها: الرجز المفيد (5000 بيت شرح فيها غريب القرآن).

- مراقي الصعود إلى مراقي السعود.

³ - إزيد بيه بن محمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص:225.

وبحديث البخاري "لا هجرة اليوم، كان المؤمن يفر أحدهم بدينه إلى الله وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، فالمؤمن يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية"¹.

والإقامة عند هؤلاء أفضل من الهجرة لما يرتجي عندهم من دخول الغير إلى الإسلام، وبالتالي زيادة سواد المسلمين، واتساع رقعته، والبلاد التي يستطيع فيها الشخص إظهار شعائر دينه تعتبر دار إسلام، ولا عبرة بكونها من بلاد الكفر أم لا، إنما المعتبر هو تمكنه من تأدية العبادات دون الخوف من الفتنة².

كما رد أصحاب هذا الاتجاه على الذين قاسوا هجرة أهل البلاد، بهجرة سكان الأندلس، واعتبروا أن هذا قياس مع الفارق، فأهل الأندلس تم تسهيل أمر عودتهم، الأمر الذي يختلف مع ساكنة البلد، كما أنهم كانوا يتعرضون لفتن عظيمة من قبل النصارى الإسبان، وهناك منطقة بها سلطان مائة لساكنهم بإمكانهم الهجرة إليها، فيحفظوا دينهم بذلك، ويصلحوا أمر دنياهم، ويكثروا جمع المسلمين، في حين لا تتوفر هذه الخصائص في أهل البلد، ومع هذا فإنهم لم يغفلوا جانب مودة المخالف في الدين ومشروعية مساعدته والاستعانة به.

3- مودة المخالف في الدين ومشروعية الاستعانة به:

ترى هذه المجموعة أن التعامل مع المخالف في الدين لا يتنافى مع مبادئ الشريعة الإسلامية، وفرقوا بين المودة في أمور الدنيا، والمودة في الدين، فهذه الأخيرة غير جائزة، أما الأولى فلا حرج فيها، واستدلوا بجواز نكاح الكتابية، ومن المعلوم أن الزوجة يحصل بينها وبين زوجها مودة وألفة، وهذه المودة لو لم تكن مباحة لما سمحت الشريعة بها، ولأغلقت الباب دونها سدا للذريعة، أما الركون

¹ - سيدي بابيه: رسالة إلى أهل إفريقيا الغربية، مصدر سبق ذكره.

² - سعد بوه: النصحية العامة والخاصة، مرجع سبق ذكره، ص: 11.

المنهي عنه فهو "الرضى بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب، أما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون"¹.

وفسروا المراد ب ((ومن يتولهم منكم)) أي من تولى اليهود والنصارى دون المؤمنين، ونصرهم على المسلمين، فإنه من أهل دينهم وملتهم "فإنهم لا يتولى متول أحد إلا وهو وبدنيه وبما هو عليه راض، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه"².

أما مشروعية الاستعانة بهم وعونهم فقد استخلصوها من استقراء التاريخ الإسلامي، ذلك أن فتح مكة كان نتيجة من نتائج موالاة خزاعة للنبي ﷺ، ذلك الحلف الذي يجد جذوره ما قبل الإسلام، عندما تحالفت خزاعة مع بني هاشم واستمر ذلك في الإسلام، بل إنه تم إقراره واستعمل في الاستعانة على قريش والاستنصار عليها، "ويستفاد منه جواز استنصاح بعض ملوك العدو استظهارا على غيرهم ولا يعد ذلك من موالاة الكفار ولا موالاة أعداء الله، بل من قبيل استخدامهم وتقليل شوكة جمعهم، وإنكار بعضهم ببعض"³.

ومهما يكن فإن مهادني الاستعمار – بناء على نصوصهم التي بين أيدينا – نجد أنهم خلصوا إلى الأمور التالية:

- أهمية السلطان وأحقيته بالمهادنة، وبالفعل فقد تم عقد اتفاقية للحماية مع الطرف الفرنسي، وباركها كلا من الشيخ سيدي بابيه، والشيخ سعد بوه كما سبقت الإشارة.

¹ - سيدي بابا: رسالة إلى إفريقية الغربية، مصدر سبق ذكره، ص:13.

² - نفس المصدر، والصفحة.

³ - سيدي بابيه : رسالة إلى أهل إفريقية الغربية المصدر السابق، ص:14.

- سقوط الجهاد عن أهل البلد نظرا للفوضى الأمنية، والتفكك القبلي، والانقسام السياسي، وغياب الركيزة الاقتصادية (بيت المال)، كما استندوا في سقوط الجهاد أيضا على أن أفعال العقلاء مصنونة عن العيب، وأن الوسيلة إذا لم يترتب عليها مقصدها لم تشرع، وبذلك يكون جهاد الفرنسيين عندهم ضرب من العيب لا طائل من روائه لعدم اتحاد الكلمة، وقلة السلاح، وعدم الصنائع المقاومة، ونحو ذلك من سائر أسباب القوة¹.

- عدم وجوب الهجرة: لاعتبارات منها، عدم القدرة، وعدم وجود مكان ملائم وعدم تعرض الفرنسيين للدين، بل على العكس من ذلك - حسب هؤلاء - يعينون عليه من خلال بناء المساجد ونصب القضاة...

- ضرورة إحلال السلم بين القبائل المتناحرة، والضرب على أيدي النهابين واللصوص، وإبدال الفوضى أمانا وعافية واستقرارا، ولن يكون ذلك إلا بالخضوع لفرنسا، والتخلي عن حمل السلاح، وإعلان المهادنة.

وعموما فإن المجموعة التي قبلت الاستعمار الفرنسي قد ركزت على جانب المصلحة، معتبرة أن التعامل الإيجابي مع الوافد الجديد فيه مصلحة العباد والبلاد، لما ينجر عنه من الأمن، وصلاح الأحوال، ووضع حد للفوضى والقتال، والمتمتع في "النصحية العامة والخاصة" للشيخ سعد بوه، يدرك أن تركيزه على الوضعية العامة التي يعيشها المجتمع، من التناحر، وعدم اتحاد الكلمة، والفوضى الأمنية، في مقابل قوة فرنسا وتمكنها من غلبة الخارجين عليها من أمراء ومجاهدي السودان وغرب إفريقيا عموما، وعليه فإنه يرى سقوط الجهاد، نظرا لعدم تكافئ القوة، وعدم وجود إمام يلتفت حوله الجميع.

¹ - سيدي بابه : رسالة إلى سيدي محمد بن حبت، بحوزتنا نسخة منها.

أما الشيخ سيدي بابيه فقد ركز في كتاباته على ما تشهده البلاد من النهب والفضى، وضعف السلطة السياسية، وانقسامها على نفسها، وتعرض قبائل الزوايا لظلم حسان، وفقدان السكان نتيجة هذه الوضعية، لمصالح عظيمة ومنافع جسيمة، واعتبر أن الخلاص يمكن من الخضوع لفرنسا، وحسن معاملتها، والسعي في مهادنتها، وعدم التعرض لها، في سياق يسعى من خلاله الشيخ سيديا إلى إسقاط الجهاد والهجرة، والعمل على ما من شأنه تدعيم النفوذ الفرنسي في المنطقة ، إلا أن جماعة أخرى من الفقهاء لم تقتنع بهذا الطرح .

ب. آراء رافضي الاستعمار الفرنسي:

أفتت هذه المجموعة بضرورة الجهاد أو الهجرة، ورأت في ذلك سبيلا إلى إخراج الفرنسيين وتعبيرا عن رفض حكمهم، وراعوا في ذلك تقديم المصالح الدينية على المصالح الدنيوية، حسب ما تقتضيه الكليات الخمس، وأولها حفظ الدين، الذي شرع من أجله الجهاد، وخشيت هذه المجموعة - من باب سد الذرائع - ما قد يترتب على الوجود الفرنسي في البلاد من ضياع الدين والأخلاق، والابتعاد عن المنهج القويم الذي عاش عليه الأجداد.

وقد جاءت فتاوى فقهاء المجموعة الراضية للاستعمار مدوية، وتطابir خبرها في أرجاء البلاد، تدعمها الروح الثورية العسكرية التي يتحلى بها أفراد السلطة السياسية (حسان)، وسنسلط الضوء هنا على آرائهم من خلال الفتاوى الفقهية خصوصا "هداية من حارا في أمر النصارى" للشيخ ماء العينين، ومحمد المختار بن أحمد بن امباله التيشيتي "نصيحة الأقبام في الحث على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان"، وفتوى سيدي محمد بن حبت "مهديا الحيارى في حكم من غلب على وطنه النصارى" وفتوى سيدي المختار بن محمد عينين بن أحمد بن الهادي "إرشاد

الضال في وجوب جهاد كبلان وحرمة مساكنته الموجبة للفسق والعصيان" و"صولة الكفار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار" لمحمد المصطفى بن امرئيه ربه¹. وإذا كان أصحاب الرأي السابق الذين قبلوا الاستعمار، قد بنوا حججهم على ضرورة حقن الدماء وبسط العافية، وتيسير الخطط الدينية، وأن ذلك لا يكون إلا عن طريق الانقياد للاستعمار الفرنسي، فإن هؤلاء قد اعتبروا أن ذلك غير جائز لما يترتب عليه من المضار الدينية والأخلاقية، فالمصلحة الأخروية أولى عندهم من المصلحة الدنيوية، وبالتالي فإن جهاد الفرنسيين من أجل إخراجهم من البلاد واجب، لما في وجودهم من الضرر، وإلا فالهجرة إلى دار الإسلام، التي يمكن للمسلم إظهار شعائر الدين بها.

1- وجوب مدافعة الفرنسيين:

ارتكزت أدلة هذه المجموعة على ما ورد في الكتاب، والسنة، وعمل الصحابة والسلف، في وجوب الجهاد، والترغيب فيه، وإظهار مزاياه ومنافعه العامة، وما يترتب على تركه من الهوان والخنوع، وهذا ما ذهب إليه سيدي محمد بن حبت²، بعدما سرد الأدلة المرغبة في الجهاد، فذكر أن الجهاد "يتعين على كل أحد، إذا احتل الكفار بلدا من بلاد المسلمين، ولا يسقط فرضه خوف محارب أو لص... ومن قال إن قتال المحاربين أفضل من قتال الكفار، إن حمل على ما إذا لم يكن ضررهم أشد ولم يكن الجهاد واجبا وذلك فيما إذا حميت أطراف المسلمين وسدت ثغورهم كان محل اتفاق إذ لا يسمع أحد أن يخاف في ذلك إذا كان واجبا وكان ضررهم أشد لقاعدة إذا اجتمع ضرار ارتكب أخفهما"³.

¹ - نشير إلى أننا سوف نركز على أهم النقاط التي أثاروها، والآراء التي دعموا بها موقفهم، دون الدخول في كثير من التفاصيل، خوفا من الإطناب، ولأن المجال لا يسمح بذلك فإننا نحيل إلى أصل المخطوطات أو إلى هوامش هذا الفصل.

² - سيدي محمد بن حبت (1862-1951)، فقيه وعالم من مدينة شنقيط في شمال البلاد ينحدر من قبيلة لغلال، وهو سليل أسرة معروفة بالعلم، وقد ألف فتاوى في شأن الفرنسيين سماها "مهديّة الحبارى في حكم من غلب على وطنه النصارى" وفيها يسرد الأدلة المانعة من التعامل مع النصارى والحائّة على الجهاد.

³ - راجع نص الفتوى عند الطالب اخيار: مرجع سبق ذكره من ص: 137 إلى 141.

واعتبر ابن حبت أن المهادنة التي أبرمها البعض مع الفرنسيين، باطلة لأن منافعها معدومة وأضرارها كبيرة " وهذه المهادنة فاسدة ومنقوصة لتعين الجهاد على من أوقعها، ولأن منفعتها عائدة على الكفار، ووبالها على الإسلام كما هو مشاهد... قال الدسوقي: وجاز للإمام المهادنة إن خلت من شرط فاسد وإن بمال يدفعه الإمام لهم، وهذا الاحتمال يسقط لاقتضائه جواز عقدها على إعطاء مال لهم من غير ضرورة، وليس كذلك، وأما هذه المهادنة التي تدفعها الناس اليوم مع النصارى وتسميها المكاتبه، فلا قائل بجوازها لمخالفتها لما تقدم من أمر المهادنة والصلح حكما وسياسة ولعدم شروطها وإنما هي ضرب جزية من الكفار على المسلمين بالعشر من كل شيء وكل نفس"¹.

وفي خط القائلين بالجهاد تخندق الشيخ ماء العينين²، الذي يعتبر أحد أبرز القائلين بوجوب الجهاد، وفي ذلك تنتزل فتواه المشهورة "هداية من حار في أمر النصارى"³ التي يذكر فيها أن النصارى إذا خرجوا بأمر السلطان الذي له عليهم شوكة، العالم بأحوال البلاد وأهلها، أو بأمر من مسلم آخر له حيلة على دفع ضررهم، فالسمع والطاعة حين إذن، وإلا فإنه يتم دعوتهم إلى الإسلام، فإن رفضوا أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا فالقتال هو الفيصل بين الجميع، وما يتم أخذه منهم أثناء الحرب فهو حلال عنده، ولا يرى وجها آخر في تحريمه⁴.

¹ - المرجع السابق، ص: 139

² - ماء العينين بن محمد فاضل (1830-1910) ولد في منطقة الحوض الشرقي، جنوب شرقي موريتانيا، من أسرة علمية صوفية تنحدر من شرفاء السلالة الإدريسية، وأبوه محمد فاضل مؤسس الطريقة الفاضلية أحد فروع الطريقة القادرية، اشتهر ماء العينين كرجل دين ووسيط في حل النزاعات التي تنشأ بين الرحل، وقد تصدى للنفوذ الإسباني والفرنسي في المنطقة، وكانت له صلات قوية مع السلاطين المغاربة راجع حوله:

- ستيفن هارمن: المقاومة المسلحة وموقف الشيخ ماء العينين إزاء السياسة الفرنسية في شمال غرب إفريقيا، ترجمة عبد الله بن الأمين، جامعة شعيب الدكالي، مجلة كلية الآداب الجديدة، العدد: 8-9 من صفحة: 47 إلى 88.

³ - تم تأليف الفتوى قبل الاحتلال الفرنسي للبلاد، بحوالي سبعة عشر سنة، وذلك إثر معركة الداخلة في مارس 1885 لكن مع ذلك تبقى الفتوى المذكورة السند الذي اعتمد عليه أغلب الرافضين للاستعمار، ونظرا لشهرة ماء العينين، كشيخ زاوية، ورجل علم، فإن فتواه تناقلتها الأيدي، وباركتها مجموعة كبيرة من المجتمع، ولم يلتفت إلى السبب الذي ألفت من أجله (التصادم مع الإسبان) بل اعتبروها عامة في سياقها ومضمونها، وأن الاحتلال الأجنبي كتلة واحدة سواء الإسباني منه أو الفرنسي.

⁴ - ماء العينين بن محمد فاضل: هداية من حارا في أمر النصارى، مخطوطة بحوزتنا نسخة منها.

ويذهب ماء العينين إلى أن الجهاد فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ويستدل على ذلك بأقوال العلماء لكنه يعتبره فرض عين، على كل شخص إذا توفرت شروط أربعة¹:

- إذا وقع بعض المسلمين أسرى في أيدي العدو.
- إذا نذر الإنسان الجهاد، لوجوب الوفاء بالنذر.
- إذا استنفر الإمام الناس.
- إذا فاجأ العدو أرضاً من أراضي المسلمين، وعندها يكون الجهاد واجبا على كل مسلم حتى وإن لم يكن واجبا عليه في الأصل كالمرأة، والعبد.

أما المهادنة فقد اشترط في صحتها ألا يكون فيها ضرر على المسلمين، فإذا وجد الضرر انتفت مشروعيتهما، وخلص إلى أن الأمان مع "النصارى" فيه ضرر كبير كما جرب²، وسرد ما ذهب إليه الدسوقي³ في شروط المهادنة حيث اعتبرها أربعة:

- أن يكون العاقد لها الإمام أو نائبه.
- أن تكون لمصلحة.
- أن يخلو عقدها من شرط فاسد.
- أن تكون لها مدة معينة، يعينها الإمام، وندب ألا تزيد على أربعة أشهر.

ثم بعد ذلك تكلم – صاحب هداية من حار في أمر النصارى – عن من يجادل عن النصارى ويقبل بهم "واعلم أنه لا يتكلم في هؤلاء الكفرة ولا يتكلم عن المتكلم

¹ - هداية من حار في أمر النصارى، مصدر سبق ذكره.

² - نفس المصدر.

³ - إبراهيم بن عبد العزيز الدسوقي (653-696هـ) لقب بالدسوقي نسبة إلى مدينة دسوق في شمال مصر حيث ولد بها وعاش حتى توفي.

فيهم إلا مثل من قال تعالى ((ولا تجادلوا عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيماً))¹ أي مفرطاً في الخيانة مصراً عليها منهم كما فيها... ((بأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء))² بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافات الأحاباب ومعاشرتهم... ولعمري إن خروج النصارى على المسلمين في هذه البلاد ما فيه إلا المفسدة المحضة، وانظر رحمك الله إلى ذم الله تعالى لمن انفصوا عن النبي ﷺ غير الرغبة عن الدين مع الاحتياج الشديد... وأحرى قوم لا يريدون إلا ملك بلاد المسلمين بل ملك رقابهم إن أمكن"³.

وقد اعتبر محمد المختار بن أحمد بن امباله⁴، أن المتعاملين مع فرنسا سواء كانوا منتظمين في جيشها أو متحالفين معها، فإنهم يجري عليهم حكم الكفر، وقد جاءت فتواه هذه، جواباً على سؤال عن حكم زكاة المجندين المحليين في الجيش الفرنسي (كوميات⁵) هل تأكل أم لا؟، فكان الجواب - بعد أن عرض لحكم الزكاة في الفقه - بأنهم "مرتدون والمرتد لا تأكل زكاته، وذلك كمن صحب الكفار ورضي بفعلهم وكثر من سوادهم من غير إكراه"⁶.

وكان موقف ابن امباله واضحاً في قضية الهجرة من البلاد، نظراً لاستيلاء الفرنسيين عليها، فهي عنده واجبة، ولا يعذر أحد فيها، لمشقة، أو مفارقة عيال وأحاباب "ولا شك أن هذه البلاد التي نحن فيها ثبت لها هذا الحكم، الذي هو وجوب الهجرة عنها لاستيلاء النصارى عليها وكثرة الفساد فيها، فيجب على كل مؤمن بها أن يخرج منها ويتركها ولو كان يمشي على رجليه، بل لو أدى إلى مفارقة عياله وأمواله وجميع أهله.. ولا حجة لمن قال إن جميع البلاد صائر للنصارى ملكها، لأنه

1 - سورة النساء، الآية: 107.

2 - سورة المائدة، الآية: 51.

3 - هداية من حاراً: مصدر سبق ذكره.

4 - أحد فقهاء منطقة الحوض، عرف عنه صرامته في الحق، وله حكايات في هذا الصدد مع زعماء مشطوف توفي سنة 1946 راجع سيدي محمد بن مولاي أحمد، مرجع سبق ذكره، ص: 80.

5 - تطلق هذه الكلمة محلياً على المنخرطين من السكان في السلك العسكري الفرنسي، وقد سخرت الإدارة الفرنسية هذه المجموعة في قمع السكان وجباية الضرائب.

6 - سيدي محمد بن ملاي أحمد: مرجع سبق ذكره، ص: 80.

من البلاد ما لا تكون دار كفر، كمكة، والمدينة، واليمن ونحوها من سائر أرض الحجاز.. وأيضاً فإن كل بلدة لها إمام يقيم فرض الجهاد فهي جديرة بأن يهاجر إليها من أرض ليس بها إلا النصارى أو عبيدهم"¹.

ولم يشذ سيدي المختار بن محمد عينينا بن أحمد الهادي² عن المنهج سابقه في فرض الجهاد، ومكن لوجوبه والترغيب فيه بعدد من الآيات والأحاديث الدالة على فضله، وذلك في رسالته إلى ابن عمه³ بشأن التعامل مع الفرنسيين ومهادنتهم والبيع لهم، "ولقد قلت أنت أيها الشيخ وابن العم في مكاتبتك أن مساكنة النصارى وموالاتهم لا يشك مؤمن في حرمتها ونحو قولك هذا، قول صاحب المعيار أن هذه الحرمة مقطوع بها كحرمة الميتة، وبه تعلم عدم عصمة مال، بل ونفس من سكن منا مع النصارى إذا لم يخل كله أو جله من استحلالها أو الاستهزاء والاستخفاف بها والتجسس ولا ترجى له توبة.. وأما إباحتك أنت ومن مثلك بيع البقر والخيل ونحوهما مما فيه إعانة النصارى وعملكم له، فلستم فيهما بمتبعين لعمل السلف ولم أركم لقولكم ناقلين.. فأباحتي أنا ومثلي مال من سكن مع النصارى وإعانهم، لسنا فيه بمخترعين بل ناقلين لكلام السلف، ولعملهم في هذه المسألة متبعين"⁴.

كما شنع في أمر من أعان الفرنسيين بنقل الأخبار، أو بالدخول في جيشهم، أو بتوفير الدواب، لتنتقل وحداتهم العسكرية "وإذا كان العين⁵، كالزندق، وكان من أعان المحارب كهو في القتل، وغرم ما أتلّف وإن كانت إعانته بالجاه، أو الإيواء إليه وإن لم يأمر المحارب بقتل ولا أخذ مال ولا تسبب في ذلك، فكيف يكون مال من أعان

¹ - نفس المرجع، ص: 82.

² - سيدي المختار بن محمد بن عينينا اللمتوني البركني، هاجر مع جماعة من بينها بعض أفراد أسرته عند قدوم الاحتلال الفرنسي، وتوفي وهو في طريق هجرته سنة 1904 قرب الطرفاية جنوب المغرب، وقد تزوج محمد العاقب بن ما يابى الجكني أخت سيدي المختار بن عينينا وأصطحبت أبناء أخيها معها إلى الحجاز، وهناك اشتهر بالعلم والتدريس والفتيا، راجع حوله: إزيد بيه بن محمد محمود: مرجع سبق ذكره، ص: 277.

³ - تعتبر هذه الفتوى في الأصل رسالة أرسلها المؤلف إلى ابن عمه محمد بن عينينا بن عبد الله بن أحمد الهادي الذي أفتى بجواز التعامل مع الفرنسيين.

⁴ - سيدي المختار بن عينينا فتوى بشأن التعامل مع الفرنسيين، نسخة بحوزتنا ص: 1-2.

⁵ - يقصد الجاسوس.

(كبولاني) ونحوه بالتجسس، بل وبالسير معه، وبالذبح الذي لا يستغني عنه جيشه، لأن جيش الطاغية لا يستغني عن أكل اللحم"¹.

وبتصاعد صيحات الهجرة في فتاوى الفقهاء، شهدت المنطقة نزوحاً لأعداد كبيرة من أهل العلم، وأصحاب الشوكة والتحقوا بصفوف المقاومة، ومن أشهر الفقهاء الذين هاجروا وانضموا تحت لواء المقاومة، سيدي محمد بن حبت، ومحمد عبد الله بن أحمدية الذي لم يعد إلى مسقط رأسه إلا سنة 1910.²

في حين فضل آخرون الهجرة خارج البلد، والسياحة في الأرض، - مع بعد الشقة، وكثرة الخطر - على البقاء تحت النفوذ الأجنبي، ومن هؤلاء سيدي المختار بن عينينا كما مر معنا، وأبناء مايبابا³، ولكن الهجرة الكبرى هي التي قام بها محمد الأمين بن زيني القلبي الذي خرج على رأس 600 رجل ترافقهم عائلاتهم وتركوا أثراً طيباً في ليبيا والأردن وتركيا⁴.

وبالغ الشيخ أمربيه ربه⁵ في أمر مخالطة "النصارى"، وسقوط الحج إذا كان الشخص سيمر من ديارهم، وعليه فالهجرة واجبة عندهم من هذه الديار "فإذا وجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة على من أسلم بدار الحرب أن يهاجر ويلحق بدار الإسلام ولا يقيم بين أظهر المشركين، لئلا تجرى عليه أحكامهم، ولا تستقر نفس أحد

1 - المصدر السابق.

2 - الخليل النحوي، مرجع سبق ذكره، ص:332.

3 - وهم محمد العاقب وسنعرض لموقفه لاحقاً من خلال شعره، ومحمد الخضر (ت1953) ومحمد حبيب الله (ت1363) وقد هاجروا جميعاً أما محمد العاقب فقد توفي بفاس، ومحمد الخضر فقد كان قبل هجرته قاضي إمارة إدوعيش، انتقل إلى الحجاز وأنجب ابنه محمد الأمين، وسيصبح هذا الأخير وزيراً للمعارف بالمملكة الأردنية، أما محمد حبيب الله فقد بقي فترة في المغرب بناء على طلب من السلطان المولى عبد الحفيظ، فقد كان يجله ويقربه، ثم سافر إلى مكة وأقام بها مدرسا، ولما قدم السلطان المولى عبد الحفيظ إلى الديار المقدسة قصد الحج، سافر معه إلى القدس والخليل، ثم رجع إلى مكة ومنها ذهب إلى مصر حيث انتخب مدرسا بالأزهر، وبقي هناك حتى توفي راجع إزيد بيه بن محمد محمود، الزوايا في بلاد شنقيط، مرجع سبق ذكره، ص:259-262.

4 - الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره ص:332، ولا زال حتى الآن حي كبير في مدينة أدنا التركية يسكنه أفراد هذه العائلات.

5 - أمربيه ربه بن الشيخ ماء العينين، انضم إلى صفوف المقاومة تحت لواء والده، وعبر بالكلمة والفعل عن رفضه للوجود الأجنبي عموماً في المنطقة وله رسائل وفتاوى في هذا الصدد منها "صولة الكار وملجأ الفار في تحريم الإقامة مع الكفار" و"لبانة المجاهدين" و"خطبة الجهاد".

على هذا إلا مسلم مريض الإيمان قال¹: انظر هل يسقط الحج عن من علم من نفسه أنه لا طريق له إلا من بلادهم إذ لا تباح طاعة بارتكاب معصية، لأن الدخول لبلادهم لتجارة أو غيرها ممنوع"².

2- انتفاء المصلحة في التعامل مع الأجنبي:

وإذا كان أصحاب قبول الاستعمار قد بالغوا في وصف أحوال الأمم التي وقعت تحت السيطرة الفرنسية، وبينوا - كما سبق - أن حياتهم صارت إلى أحسن حال، وانتشر الأمن وعمت السكينة بلادهم، فإن لهذا الفريق رأي مخالف، فقد اعتبروا أن هناك مفاصد جسيمة في الاحتلال الأجنبي، ومن بين هذه المفاصد: تدرجهم في عملية الإخضاع، ففي البداية يكون وجودهم عن طريق الأمان المتفق عليه بين الطرفين، ثم ما يلبثوا أن يستولوا على البلاد بالقوة "والعجب أيضا كل العجب ممن يدعي العقل ويشك في أنه لا ضرر على المسلمين في خروج النصارى عليهم، وليس هذا إلا لمن جهله بما فعله النصارى بخروجهم على المسلمين في كل الأيام، كما وقع في الأندلس قديما، وما وقع في اذواير (الجزائر) وما وقع في الإسكندرية ومصر واصطنبول (إسطنبول) حادثا وغير وغير، مما يطول بنا جلبه من كل بلاد المسلمين التي دخلها النصارى لعنهم الله أولا بالأمان، وبعد ذلك استولوا عليها في الزمان"³.

وقد سئل المختار بن ابلول⁴ هل الفوضى والسيبة خير أم الاستعمار؟ فكان جوابه كالتالي: "أقول في هذا السؤال تلبس على عوام المسلمين وتخويف لهم حتى يقعدوا عن المطالبة بحريتهم وإعلاء كلمة ربهم، لإيهامه إياهم أن الاستعمار والسيبة مع الفوضى طرفا مانعة خلو، إما هو إما هم، ولا يخفى ما فيه، لما قدمته من أننا يمكننا الدخول في حماية (دولة) إسلامية كما يمكننا أن نؤلف محكمة لأنفسنا

1 - يقصد الوثنرسي صاحب المعيار.

2 - صولة الكار وملجأ الفار: مصدر سبق ذكره.

3 - هداية من حار في أمر النصارى: مصدر سبق ذكره.

4 - هو المختار بن سيدي بن أحمد بن ابلول، الحاجي، فقيه وأديب له فتاوى حول الاستعمار.

ونستغني عن الاستعمار الفرنسي، وقد تقدم أن حالنا الذي كنا فيه أحب إلى الناظر بعين الشرع من الاستعمار، وما شوهد في هذه البلاد من السببية لم يقع منه كبير شيء إلا بعد أن مد الاستعمار يده إليه وقبل أن يتمكن، فضعفة الأمراء فشلوا أو خافوا، وأما قبل ذلك فقد كان يرى الرجال في زمن أعلي بن محمد الحبيب يتشاجران، فيصير كل منهما يبصق في وجه الآخر، ولا يتجرآن على التضارب خوفا من الوقوع فيما نهى عنه أعلي... إذن فإن ما وقع من السببية جله من سيئات الاستعمار"¹.

واعتبر بعض فقهاء هذه المجموعة - ومنهم ماء العينين - أنه لا عبرة بالمصالح الدنيوية التي يعود على العامة والخاصة نفعها جراء التعامل مع الأجنبي كما هو حاصل في أمور التجارة من بيع وشراء، فالمرجع عندهم المنع لما يترتب على الجواز من المفاصد في الدين "ألم يعلم أن جلب المصلحة ودرء المفسدة إذا تعارضا، يقدم درء المفسدة"².

وقد دعا الفقيه محمد بن عبد الجليل³ إلى مقاطعة الفرنسيين وألب ضدهم أمير لبراكنة أحمد بن سيدي أعلي وأقنعه بالانضمام إلى صفوف المقاومة في "تكانت"، مما أثار غضب القائد الاستعماري "كبولاني" فكتب إليه وإلى قومه يقول: "عندما أعلنت لكم قبل خمسة أشهر نيابة عن الحكومة الفرنسية من أجل سلامة الجميع وأمن التجارة، أننا سنتولى الإدارة الفعلية لبلاد البيضان، التي كلفنا العلي القدير بحمايتها من أي هجوم، وخاصة ضد النهابين ذوي النوايا السيئة، رأيت فيكم رجال خير، جعلتني صفاتكم رجال دين وآداب، أمل أن أكون غير مخطئ في الاختيار، وكنت مقتنعا أن ولاءكم سيكون خالصا، وأن حرصكم على العيش في أمن مشرفين ومحترمين كان كذلك.

¹ - يحي بن محمد الهاشمي: مرجع سبق ذكره، ص:413.

² - ماء العينين: هداية من حارا في أمر النصارى، مصدر سبق ذكره.

³ - محمد بن عبد الجليل بن الشيخ المصطفى البركني.

ويبدو أن كل هذا كان خطأ، فأتثناء غيابي لم تحاول فحسب توحيد المحاربين ضدنا، بل كنت الدليل والسند لإدو عيش ذوي النوايا السيئة والعدوانية تجاهنا، وأمل أن يكون كل هذا غير صحيح، رغم أن امتناعكم عن المجيء وتحية الحاكم العام يعتبر على ذلك دليلاً لا يقبل الشك.. لقد آن الأوان لمعرفة الحقيقة، ومواصلة لمهمة السلام التي أسندتها الحكومة إلي، فإني أتوجه إلى الشمال بغية تنصيب الفرق، وأخذ الإجراءات اللازمة لتوفير سلام دائم لأصدقائنا، ومعاقبة أعدائنا، وإذا كنتم كما أرجو تنتمون إلى المجموعة الأولى، فاتصلوا بي فوراً لتتسلموا مكانكم في بلد لبراكنة، وتزرعوا أرضكم، وتتنازلوا غداً عن علاقتكم مع أعدائنا، وستنالون جراء ذلك خيراً، وفي الحالة المعاكسة فسأكون مضطراً مع أسفي العميق، إلى اعتباركم عدو، وإلى أخذ الإجراءات الخطيرة المترتبة على ذلك"¹.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه المجموعة قد رفضت الاستعمار بكل أشكاله، وظلت في عداوتها له تنتقل بين القول والفعل (الفتوى، حمل السلاح) معلنة منهجها الرفض للاحتلال الأجنبي ويمكننا أن نلخص النقاط التي أسسوا عليها رفضهم في المحاور التالية:

- وجوب جهاد "النصارى" لأنهم كفار صائلون، يتحتم ردهم وإخراجهم من بلاد المسلمين، أو الهجرة عنهم إلى بلد آخر فيه سلطان مسلم تقام فيه الشرائع.
- مصلحة الدين أولى مراعاتها من المصالح الأخرى، كحفظ النفس، والمال والأمن.
- أن التعامل مع "النصارى" لا يجوز، لأنه يفضي إلى مودتهم، والقرب منهم، وهذه أمور محرمة شرعاً.

¹ - الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص: 333.

- عدم سقوط فرض الجهاد لانعدام الإمام، فالعلماء يحلون مع السلطان في حالة عدم وجوده.
- الفوضى والجور مع الإسلام، خير من الأمن والعدل مع الكفر، يقول محمد العاقب بن مايابا:

والجور والإسلام في بلادنا
مصلحة الدين على الدنيا يرى
خير من العدل مع الكفر الجلي
تقديمها حتما مراعي الأفضل¹

- لا عبرة بتقارب القوة كشرط لإخراج الفرنسيين من البلاد، يقول ابن مايابا:

وما لقوة السلاح عبرة
كم فيكم من عدد وعدد
من نكل يصل فوق نكل
لو حاربوا العدى كما بينهم
بل إنما تكفيهم شرذمة
لا فرق بين صعدة ومنصل
في الحرب دأبا بينها في شغل
وجحفل يسطو أمام جحفل
لثل عرش الكفر دون مهل
لسنة الله التي لم تحل²

ولم يكتف أهل البلاد بهذا الحد من المواجهة السلمية، بل تعدوها إلى إشهار السلاح في وجه الغازي وكبدوه خسائر كبيرة أحيانا، أرغمته على تغيير سياساته، وخطته العسكرية.

ثانيا: محاولات الصمود أمام التوغل الفرنسي

استطاع كبولاني بدهائه أن يقنع – كما سبق – بعض مشايخ الطرق الصوفية بمزايا الخضوع لفرنسا، وبذلك يكون قد شق لنفسه طريقا مهما داخل المؤسسة الدينية سيوفر له سهولة خضوع مجموعات كبيرة من الزوايا وحسان على حد السواء،

¹ - يحي بن البراء، مرجع سبق ذكره، ص: 91.
² - نفس المرجع والصفحة.

وساعده على ذلك حالة الفوضى التي تعيشها إمارة الترارزة، فأمر هذه الأخيرة أحمد سالم ولد أعلي الملقب "ببيادة" (تولى الإمارة 1891-1905) مستغرقا في محاربة الجناح المنشق من الإمارة بزعامة سيدي ولد محمد فال، والإمارة نفسها تشهد فترة تراجع على المستوى الأمني والاقتصادي، فما كان من الفرنسيين إلا أن أرسلوا بعثة لمفاوضة الأمير، وبعد أربعة أيام من النقاش خلال منتصف شهر ديسمبر 1902 تنازل أمير الترارزة عن عرشه للسلطات الفرنسية المكلفة بإقامة العدل في دولته في سياق عرضنا لبعضه سابقا.

والمتمعن في تقرير المدير الأول لمصلحة الشؤون الإسلامية لإفريقيا الغربية يدرك أن معظم الإداريين في البلاد ساروا على نهجها، مع اختلافات بسيطة في التطبيق، وتتمثل أهم توصياته في النقاط التالية:

- اقتطاع رؤوس الطرق الدينية باكتساب شيوخها عن طريق امتيازات مادية تمنح لهم وتحت رقابة ومتابعة دائمة حتى لا تستخدم هذه الامتيازات في عرقلة الاستعمار.
- ينبغي ألا يكون الفرنسيون طرفا في النزاعات الداخلية بين المجموعات المحلية، ولكن عليهم إنكأؤها وإشغالها، تطبيقا لمبدأ "فرق تسد".
- إنشاء مدارس فرنسية في البلاد، واكتتاب أبناء الأسر العليا من المجمع فيها، كي يتم متابعة تكونهم محليا بمعوية فرنسية، فلا يضطروا بالتالي إلى متابعة تعليمهم في الخارج على أرض معادية للنفوذ الفرنسي¹.

وتم التوصل بصفة إيجابية مع الطرف الآخر، المنشق عن الإمارة (سيدي بن محمد فال) إلى اتفاقية سلام في 5 فبراير 1903 أعلن بموجبها تخليه عن حمل السلاح، وقد نصت الإتفاقية على قبول أولاد أحمد بن دامن (أهل الإمارة) الخضوع لفرنسا والامتثال لأوامرها، مقابل احترام السلطات الفرنسية للدين الإسلامي، والعادات،

¹ - راجع دي شاسيه: مصدر سبق ذكره، ص:125.

والتقاليد المعمول بها، وقبول اختيار أولاد أحمد بن دامن من يحق له تاريخياً إدارة شؤون الإمارة وفق التقاليد الأميرية¹.

وكان قبل ذلك قد أعلنت القبائل الزاوية والحسانية – المتضررة من أزمة الخلافة في الترازرة وتبعاتها الأمنية – خضوعها للسياسة الفرنسية وقبولها الأمر الواقع، تحت ضغط الخوف على مصالحها التجارية مع مراكز النهر، والرغبة في الجروح إلى الاستقرار الأمني وعدم الفوضى.

وفي أعقاب خضوع الترازرة، بدأ الفرنسيون بإنشاء مراكز إدارية في الجهة اليمنى من نهر السنغال لتدعيم نفوذهم في المنطقة، إلا أن ذلك قوبل بعدم الرضى من طرف مجموعة الترازرة، خصوصاً الطامع في الإمارة (سيدي بن محمد فال) ثم في مرحلة لاحقة الأمير نفسه (أحمد سالم الملقب ببيادة) عندما أحس أن فرنسا تسعى لتقليص نفوذه، وجعله أميراً سورياً بلا صلاحيات.

ومع ذلك فإن كبولاني استطاع بمساندة بعض القوى المحلية ومباركتها، أن يضع يده على الترازرة، ويأسس بها عدة مراكز (أخروفا، نواكشوط، أبي تلميت) ويشرع في عملية احتلال إمارة لبراكنة المجاورة، والتي لها هي الأخرى ظروفًا مشابهة لحالة الترازرة.

لقد تمثلت الخطوة الأولى من احتلال لبراكنة، بإنشاء مركز بوكي²، ثم إقناع الأمير والأطراف المكونة للإمارة (أولاد نغماش، وأولاد أعلي...) بالخضوع للحماية، وعلى غرار ما حصل في الترازرة، وافق الأمير والجماعة التي معه على قبول الحماية الفرنسية.

¹ - محمد الراطي، مرجع سبق ذكره، ص: 58.

² - مركز أسسه الفرنسيون في مارس 1903 من أجل التموين، ويقع قرب نهر السنغال.

لم يلبث الأمير البركني طويلا – وتحت تأثير الفقيه محمد عبد الجليل بن الشيخ المصطفى¹ – حتى أعلن رفضه للحماية الفرنسية، وانضمامه إلى صفوف المقاومة في تكانت، في تلك الأثناء رحل كبولاني إلى لبراكنة، حيث استقر في الألك²، وجاءت معظم قبائل لبراكنة مبايعة، ومعلنة انضمامها للسلطة الفرنسية.

شجع احتلال الترارزة ولبراكنة – دون مقاومة – القوات الفرنسية على الزحف إلى "تكانت" التي تعتبر بوابة آدرار، ومن يسيطر على هذا الأخير يخضع له كافة البيضان، لكن الشيء الذي لم يكن كبولاني يعرفه هو أنه يسير إلى قبره راغبا، فلم يكن – ربما – يتوقع أن موته ستكون في تكانت وعلى يد مجموعة من المقاومة مسلحة بأسلحة بدائية، ومن هنا سيبدأ فصل جديد من مدافعة الوجود الفرنسي أكثر دموية وأكثر جراً.

أ) تصاعد الهجمات ضد القوات الفرنسية:

بعد توقيع معاهدة الحماية مع الترارزة – كما ألمحنا – والتي تعطي الحق لفرنسا في قبول تعيين الأمير، والمصادقة عليه، وإنشاء وظيفة مقيم في البلاد، وإلغاء كافة الرسوم العرفية، وإحلال مكانها مكافآت تدفعها الإدارة الاستعمارية متى شاءت³، أحس الأمير أحمد سالم بالندم، وأعلن تخليه عن مناصرة فرنسا، وانتقل إلى الشمال بعيدا عن مرمى مدافع الفرنسيين، وتأهباً للإغارة على مراكز "أخروفة" وتبعه إلى منفاه الاختياري 600 محارب من قومه⁴.

وبعد أن استولى كبولاني على "الألك" في لبراكنة، شن الأمير أحمدو بن أعلي مدعوما بمائتي مقاتل هجوما على الموقع ليلة 8 ديسمبر 1903، أحدث ذلك

¹ - سبق التنبيه إلى موقفه من الاستعمار، وقد أفنح هذا الفقيه أمير لبراكنة بالخروج على فرنسا والهجرة إلى تكانت.

² - مركز الثقل في إمارة لبراكنة، وسيخذه كبولاني قاعدة لانطلاق حملته على تكانت.

³ - الرائد جليبي، مرجع سبق ذكره، ص: 131.

⁴ - نفس المصدر، ص: 137.

الهجوم خسائر في صفوف القوات الفرنسية وبعد أسبوعين شن الأمير البركني أيضا هجوما على معسكر "شكار"¹ أكثر شراسة مخلفا خسائر في الأرواح بين الجانبين². رد كبولاني على هذين الهجومين بأخرين أحدهما عسكري، والآخر سياسي، تمثل الرد العسكري بالهجوم على "جونابة"³ حيث يتجمهر عدد كبير من رجال المقاومة⁴، وكان الغرض من ذلك كسب نتائج على الأرض، وطمأنة الأطراف المتحالفة على قدرة القوات الفرنسية على حق الرد، أما الجانب السياسي، فإن كبولاني نجح في تفكيك التحالف القائم بين الأمير أحمد بن أعلي، وجماعة إدوعيش من جهة، وجناح من عائلة الأمير والقبائل المتحالفة معه⁵.

كانت الأطماع الفرنسية تتعدى الترابزة ولبراكنة – اللتان تمت السيطرة عليها دون عناء – إلى تكانت وأدرار، وهذا ما عبر عنه كبولاني في رسالته إلى الوالي الفرنسي في السنغال بتاريخ 1904/4/5، عندما أطلعه على أن احتلال البلاد قد تم بطريقة سلمية وبأقل التكاليف، وأن الضرائب المفروضة على السكان قد غطت تلك التكاليف، ولحماية هذه المكتسبات، وحماية شواطئ نهر السنغال، يتعين السيطرة على مرتفعات تكانت⁶.

اقتنعت الإدارة الفرنسية في السنغال بضرورة احتلال "تكانت"، وبدأت في إعداد العدة اللازمة لذلك، وتشكلت البعث في النهاية بعد أن انضمت إليها فرقة النقيب "فريرجان" المتمركز في نواكشوط من فصيلة الرماة، وفرقة من المدفعية، وخمس وحدات من المجندين السنغاليين ووحدة من المجندين المحليين، ووحدة من المجندين

¹ - يقع بالقرب من مدينة ألاك عاصمة ولاية لبراكنة.

² - الطالب اخيار: مرجع سبق ذكره، ج: 2 ص: 204، تشير إلى أن المصادر والمراجع التي بين أيدينا تغفل عدد قتلى الجانبين في هذه الهجمات السالف ذكرها، لكننا نعتبر الجانب المحلي المقاوم مع اعتقاده عدم وجود فائدة كبيرة في هذه الهجمات الخاطفة إلا أنه أرادها ضرب استباقية ترزعزع الثقة الفرنسية، وتمنح بعض الوقت لترتيب صفوف المقاومة.

³ - تقع في منطقة أفطوط الشرقي.

⁴ - سيدي محمد بن ملاي أحمد: مرجع سبق ذكره، ص: 101.

⁵ - نفس المرجع والصفحة.

⁶ - الطالب اخيار: مرجع سبق ذكره، ص: 183.

الجزائريين، وعدد من الضباط وضباط الصف الأوروبيين، وبلغ عدد البعثة في النهاية 30 من الأوروبيين، وما يناهز 800 من الأفارقة، لديهم مائتا حصان، وثلاثمائة جمل لحمل المؤن، وثمانون من الأبقار للزاد¹.

كان على المقاومة، أن تحسب الحساب لهذه القوة الكبيرة، والمسلحة بأحدث الأسلحة آنذاك، ومن بينها أفراد من بني جلدتهم، يعرفون تضاريس الأرض ونقاط المياه، ومراكز القوة والضعف عند المقاومين، وكان على فرنسا أيضا أن تسارع في احتلال "تكانت" حتى لا تعطي مزيدا من الوقت لأعدائها، خصوصا وأن الغارات على الترازرة ولبراكنة لم تخدم بعد، والحالة الأمنية غير مرضية، فقد أعلن المطالب بعرش إمارة الترازرة "سيدي بن محمد فال" انشقاقه هو ومن معه من الفرنسيين، وقام بالتعرض لمجموعة مؤلفة من 150 من أولاد أبييري²، كان الفرنسيون قد قاموا بتسليحهم لغزو أحياء أولاد أبي السباع، فتحوّلت تلك الأسلحة إلى أيدي المقاومة، وإلى الغرب من ذلك - قريبا من نواكشوط - تم الهجوم على مفرزة فرنسية من خمسة عشر قناصا قتل منهم إحدى عشر شخصا³.

فرضت هذه الوضعية الحرجة على الإدارة الاستعمارية المسير نحو تكانت، لكن أخبارا كانت ترد من "تكانت" تفيد بأن إدوعيش يتمركزون في الطرق المؤدية إلى الداخل لمنع الفرنسيين من التوغل، في نفس الوقت أيضا تنامي إلى كبولاني أن الممرات الشمالية خالية من القوة العسكرية المقاومة، وبذلك فضل القدوم إلى تكانت من ممراتها الشمالية متفاديا الصدام المباشر مع جماعة إدوعيش.

وصلت البعثة إلى "تكانت" دون مشاكل، وأرسل كبولاني - وفودا إلى القبائل يقنعهم بالتحالف مع فرنسا، في حين أرسل بعثة بقيادة المساعد "دري" "de rey" إلى الشرق، حيث تشير عيون الاستطلاع الفرنسية إلى وجود حقول للذرة البيضاء

¹ - نفس المرجع، ص:184.

² - قبيلة زاوية تقطن الجنوب الغربي من البلاد، وإليها ينتمي الشيخ سيديا بابيه.

³ - جليليه: مصدر سبق ذكره، ص:139، 140.

ومخازن للغلال، يمكن أن يستفاد منها في عملية التموين، إلا أن البعثة تعرضت يوم 26 فبراير 1905 لهجوم قوي من قبل مئات من مقاتلي إدوعيش، قتل على إثره ثلاثة عشر من قوات الاحتلال، وجرح قائد البعثة جرحا بالغا في فخذه، وتمكن بصعوبة بالغة من العودة إلى معسكره، حيث هوجم من جديد بشراسة خلال الليل، ولم يتوقف القتال إلا بعد أن فقد المقاومون ثلاثين من مقاتليهم¹.

ولما علم كبولاني بما حصل لقوات "دري"، أرسل بعثة بقيادة "فريرجان" للانتقام لجنوده ومطاردة مجموعة إدوعيش، كانت إدوعيش قد انسحبت إلى الشرق باتجاه العصابة، وبعد ما عبرت القوات الفرنسية المنطقة الجبلية لتكانت، وتوغلت باتجاه "كيفه"² لم تجد إلا آثارا متجهة إلى منطقة "أفلة"، وبعد خمسة أيام من المسير الشاق، فوجئ "فريرجان" والقوات التي معه - المتمثلة في قرابة مائتي مسلح - يوم 1 أبريل 1905 بمعسكر إدوعيش النازل قريبا من "بوكادوم"³، وكان لعنصر المفاجئة أهمية بالغة في نجاح الفرنسيين، فلم يكن إدوعيش يتوقعون هجوما بهذا الشكل، والتوقيت، والقوة، وكانوا يعتقدون أنهم في مأمن من نيران الاحتلال، بالإضافة إلى أن معظم مقاتليهم لم يكونوا داخل المخيم أثناء هجوم "فريرجان" عليه، وفي الساعات الأولى من الفجر داهم الفرنسيون المكان، وأطلقوا النار في كل اتجاه، ولم يتمكن مقاتلي إدوعيش من استرجاع قوتهم وتماسكهم إلا بعد أن أثنخ فيهم المهاجمون قتلا، فانسحبوا من المعركة التي أسفرت عن سقوط قتلى من بينهم الأمير بكار⁴.

يعد مقتل الأمير الطاعن في السن بكار بن أسويد أحمد، ضربة قوية للمقاومة، التي ما تزال في بداية شبابها، ذلك أن بكار يعتبر آنذاك الداعم الحقيقي والملاذ

1 - جليبه: مصدر سبق ذكره، ص: 149.

2 - تقع في الوسط وهي الآن عاصمة ولاية لعصابة.

3 - تقع في منطقة لعصابة، وهي المكان الذي استشهد فيه الأمير بكار بن أسويد أحمد.

4 - جليبه: المصدر السابق، ص: 151.

المؤمن لكل الناقلين على فرنسا في البلاد، إضافة إلى كونه حجر عثرة أمام توغل القوات الأجنبية إلى آدرار، وتختلف الروايات الشفوية المحلية في طريقة استشهاد الأمير بكار، ونعتقد أن أقربها إلى الصدق تلك التي ذكرها ابنه عبد الرحمن بن بكار بن أسويد أحمد¹، لأنه شاهد عيان، يقول: ".نزلنا عند موضع بوكادوم، وفيه أغار علينا النصارى بغتة دون أن نعلم بهم، والحال أن أكثر الناس لم يكن موجودا في الحلة²، التي كان فيها آنذاك قليل من الناس، فلما أغاروا على الحلة، أصابوا الأمير بكار في فخذه، خلال القصف العشوائي، ولما علمنا بالغارة وكان خارج الحلة، انطلقت أنا وفارسان كانا معي واقتربنا من الحلة حيث التقينا ببعض النسوة، فقلن لنا بكار توفي منذ وقت قصير، ولا حاجة لكم بالقدوم على العدو، والهدف عند النسوة هو إرجاعنا عن المغيرين، عندئذ رأينا القوات المهاجمة فشرعوا في إطلاق النار علينا فرجعنا، متحرفين عن القتال حتى دخلنا الغابة اتقاء للقصف، الذي نواجهه، ثم بعد ذلك توجهنا إلى سفح الجبل، وانضم إلينا عدد من الفرسان من بينهم عثمان بن بكار، فلم ألبث أن رأيت فارسين يركضان نحو العدو، ويطلقان الكثير من الرصاص، ثم يكرن راجعين، فانطلقنا في أثرهم فمررت أثناء ذلك بالمخيم، فإذا بكار مضجع على جنبه وقد أصيب في فخذه... وما إن جلست بجانب بكار حتى رأيت جملا، فقامت أركض نحوه، فأخذته وأتيتهم به وجعلت عليه محملا، وعندما أردنا حمله ووضعته على المحمل قال لنا بكار وهو يعاني من كسر فخذه، شدوا ساقي مع فخذي بوثق، واضجعوني على جنبي، واجعلوا أحد وراء ظهري يمسكني.. ففعلنا له ما أراد ورافقه بعض الفرسان.. وبعد ثلاث ليالي توفي"³.

¹ - هذه الواقعة مسجلة في شريط لدى الإذاعة الوطنية، لكننا لم نتمكن من الحصول عليه من الإذاعة في نواكشوط، نظرا لعدم الشريط، وعدم فهرسة عناوين الشرطة الإذاعية القديمة، واعتمدنا على ما ذكره الطالب أخيار في كتابه الشيخ ماء العينين، لأنه يتوفر على نسخة منه.

² - يقصد بها حي الأمير.

³ - الطالب أخيار: الشيخ ماء العينين، مرجع سبق ذكره، ج: 2 ص: 211-212.

وتختلف هذه الرواية، والرواية المحلية عموماً، عن الرواية الفرنسية¹، ففي حين تعتبر الأولى أن بكار سقط جريحاً، وتم نقله من قبل فرسانه إلى مكان آمن، وقضى عدة أيام يتمثل للشفاء إلى أن أدركته المنية، تعتبر الرواية الفرنسية أن بكار عندما تم الإغارة المفاجئة على معسكره، حاول الهرب مع فرسانه، إلا أنه تمت إصابته إصابة قاتلة سقط على إثرها ميتاً².

والحقيقة التي يعول عليها في هذا الصدد، هي أن مقتل بكار كانت له نتائج عكسية على فاعلية المقاومة، حيث حصلت انشقاكات داخل مجموعة إدوعيش، فقبل موت الأمير، كان فرعا إدوعيش (أبكاك، وأشرانيت) متحدان على عدو مشترك، ويدافعان من خندق واحد، غير أن الأمر تغير بعد ذلك، من جهة أخرى أعلنت القبائل التي كانت في السابق متحالفة مع إدوعيش، تخليها عن المقاومة وانضمامها إلى الموالين للإدارة الاستعمارية.

جاء رد المقاومة سريعاً على قتل بكار، عندما تسللت مجموعة قادمة من آدرار إلى قلعة تجكجة، حيث تتركز القوات الفرنسية المتأهبة لدخول آدرار، وتمكنت من قتل قائد الحملة كبولاني³، وبعض الجنود داخل الحامية العسكرية، ولاذ أغلب المهاجمين بالفرار.

هكذا في أقل من شهر على موت أمير تكانت، تم اغتيال كبولاني، صاحب مشروع احتلال موريتانيا، والمنظر الأساس للاحتلال الفرنسي في البلاد، لقد عرف كبولاني كيف يستخدم التنافس واختلاف المصالح الحاصل بين المجموعات المحلية لخدمة الإدارة الاستعمارية، واستطاع بدهائه أن يبسط نفوذه على أراضي الترارزة، ولبركنة، وتكانت بأقل الخسائر، وكانت نفسه تشرئب إلى احتلال آدرار إلا أن

¹ - راجع جلييه، ص: 151.

² - جلييه: مصدر سبق ذكره، ص: 152.

³ - كنا قد ذكرنا قضية مقتل كبولاني وتداعياته.

المقاومة، أوقفت شريط أحلامه، وأحدثت من خلال هذه العملية إرباكا داخل الأوساط الإدارية الفرنسية كادت تنهي الوجود الاستعماري الفرنسي في البلاد¹.

انتشر مقتل كبولاني انتشارا سريعا، وترتبت عليه نتائج مهمة على الصعيد السياسي، والعسكري، فجل القبائل التي كانت قد قطعت مرحلة مهمة من المحادثات، واستطاع كبولاني بحيلته إقناعها، استردت عقب موته، حريتها في التصرف، بالإضافة إلى قبائل أخرى كانت قد أعلنت ولاءها للسلطة الاستعمارية، وشكلت هذه الحادثة لها فرصة للتخلي عن ولاءها، فهاجرت إلى آدرار.

أما الناحية العسكرية فتمثلت في حصول بلبله داخل وحدات الجيش الفرنسي، وانشلت حركته - إلى حين - خصوصا إذا علمنا أن كبولاني قبل موته 12 مايو 1905، كان عازما على دخول آدرار، ولم يتحقق ذلك للقوات الفرنسية إلا مع حملة "غورو" 1908، أي بعد ما يزيد على سنتين، من ناحية أخرى أعطى نجاح عملية الاغتيال هذه شحنة إضافية للمقاومة، وجرأة أكثر على استهداف المصالح الفرنسية.

ولأننا كنا قد تعرضنا بالحديث في الفصول السابقة لمقتل كبولاني، والطريقة التي تمت بها العملية، سنقتصر هنا على ما ذكره المقاوم أحمد بن أعميره بن أباه² بعد استجوابه، من طرف القوات الفرنسية، وجاء حديثه على لسان القائد الفرنسي فريرجان³، الذي أشرف على محضر المحاكمة¹، وكان رئيسا لها، وقد لخص ما قاله

¹ - بعد مقتل كبولاني انقسمت الأمراء حول الوجود الفرنسي فطالبت مجموعة بالخروج من موريتانيا التي لا تسوي شيئا أمام أرواح خيرة القادة الفرنسيين، في حين كان رأي مجموعة أخرى (القادة العسكريون) أنه يجب المضي في تنفيذ المشروع الذي بدأه كبولاني مهما كانت التكاليف، لأنه إذا خرج الفرنسيون من البلاد فسيكون ذلك مدعاة لأن تنثور شعوب وأمم أخرى تعيش نفس المحنة والظروف، وكنا قد ألمحنا بشيء من التفصيل لهذا الموضوع.

² - أحد المشاركين في الهجوم على المركز الفرنسي الذي يتحصن فيه كبولاني، وقد تمكن من الانسحاب مع الناجين من منفذ العملية، إلا أن جرحه الغائر جعله يتأخر عن زملائه، وواصل المسير حتى "الرشيد" وهناك التقى ببعض قادة القبائل، فأكرموه، إلا أن الأخبار التي كانت تأتي من تجكجة أفادت بتعرض السكان لظلم شديد على يد الفرنسيين لكونهم يعتقدون أن الهجوم قادم من داخل المدينة، لذا فإن أحمد بن أباه قرر أن يسلم نفسه، راجع:

- النقيب سيدي محمد بن حديد: القصة الكاملة لمقتل منظر الحملة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا كزافي كبولاني، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين.. الطبعة الأولى، 2010 ص: 94 وما بعدها.

³ - قائد مركز نواكشوط، انتقل إلى تكانت، حيث قام بالهجوم على مخيم الأمير بكار مما أدى إلى استشهاد هذا الأخير، خلف فريرجان كبولاني بعد موته، راجع ترجمته في الفصول السابقة.

ابن أباه في قوله "مؤخر.. أعلن شريف ملهم يسمى سيدي بن ملاي الزين أن الله قد أمره بقتل كبولاني، ولكنه هو (أي سيدي بن مولاي الزين) سوف يموت في نفس اليوم، كان من عادة هذا الشريف كل سنة أن يجمع حوله مجموعة مسلحة من أهل آدرار لمرافقته في رحلات الزيارة التي يقوم بها عادة من منطقة الحوض، وقد اتجه هذه السنة إلى أهل التناكي.. اعتقد أهل التناكي أولاً أنهم بصدد مرافقته في رحلته السنوية، وفي الطريق التقت المجموعة برجل هارب من قلعة تجكجة مؤخر²، لقد قدم هذا الرجل كل المعلومات الضرورية من أجل الهجوم على المعسكر.

كان مع الشريف (سيدي ولد ملاي الزين) 28 رجلاً ترك منهم ستة في كلمسي (تبعد 30 كلم شمالي تجكجة) من أجل حراسة الجمال، التي قدمت عليها المجموعة من الزرگة (جنوب شرق شنقيط) وقد انضم إليهم اثنان آخران... وبعد أن هياهم للموت، أمر سيدي أصحابه بالمسير إلى العدو دون أن يمنحهم فرصة التفكير أو التوقف أو التقاط الأنفاس لحظة واحدة، وصل المهاجمون إلى القلعة دون أن يتم اكتشاف أمرهم، بعدها أطلق الحارس النار دون أن يصيب أحد، حينها صاح الشريف قائلاً: "الله أكبر"، واندفع الجميع عبر المدخل، كان أول شخص يلتقونه هو أوروبي يلبس لباساً أبيضاً طويل وضحك جداً، أطلقوا النار فوقه ثم تبعوه للقضاء عليه، لم يكونوا يعلمون أنه كبولاني، حتى أحمد بن أباه نفسه لم يعلم بذلك إلا في الرشيد، اندفع الشريف إلى الأمام بحثاً عن أوروبي آخر لقتله، لكنه هذه المرة أخطأ ضربته بالسيف، حيث قتله الأوروبي الذي استهدفه بطلقة مسدس، انتشر المهاجمون في القلعة في بحث عن أوروبيين آخرين لقتلهم، في هذه الأثناء أصيب أحمد بن أباه بالطلقة القاتلة، انسحب أحمد مع المهاجمين الناجين، ثم اتجه إلى الرشيد³.

¹ - راجع محضر المحاكمة عند النقيب سيدي محمد بن حديد: القصة الكاملة مرجع سبق ذكره، ص: 105 وما بعدها.

² - يتعلق الأمر بسيدي بن بوبوط، قدم لمجموعة المقاومة المعلومات الكاملة حول معسكر كبولاني، لأنه كان محجوز بداخله وتم الإفراج عنه كما ذكرنا سابقاً.

³ - النقيب سيدي بن حديد: مرجع سبق ذكره، ص: 100-102.

تم على عجل استجواب المقاوم أحمد بن أعميره بن أباه، وشكلت محكمة لذلك، وبعد مداولات قصيرة، وتبعا لتوصيات الطبيب التي أفادت بضرورة الإسراع حتى لا يموت المعني تحت تأثير جرحه العميق، أجمعت أعضاء المحكمة على "إدانة أحمد بالمقتل والتآمر من أجل القتل السياسي الجماعي المنظم، من طرف قائد روحي، اغتيال قام به أفراد مسلحون، ينتمون لبلد (آدرار) ليس في حالة حرب معناه، وفي عملية قرصنة تحرمهم حقوق الأشخاص.. صدر منطوق الحكم إنه الإعدام شنقا"¹.

ازدادت الحركات المعادية لفرنسا بشكل ملاحظ، وأصبحت تعترض قوافل التموين القادمة إلى تجكجة، وصار بالتالي الفرنسيون في مأزق، حاول أمير آدرار أن ينتهز هذا الموقف، ويضغط على نفسيات الفرنسيين فأرسل رسالة إلى "فريرجان" ينذره من عواقب المكوث في "تكانت" وأنه إذا لم يخرجوا طواعية، فسيخرجهم مكرهين، بيد أن "فريرجان" لم يرضخ لهذا الاستفزاز ورد عليه برسالة أكثر حدة وخشونة².

وفي هذه الأثناء رجعت وفود من القبائل كانت قد رحلت إلى المغرب تطلب السلاح من أجل إغاثة المقاومين محملة بأسلحة سريعة الطلقات وذخيرة كثيرة، وبعد فترة يسيرة قدم مولاي إدريس بن عبد الرحمن مبعوثا من طرف السلطان المغربي مولاي عبد العزيز للرفع من معنويات رجال المقاومة حاملا معه 500 قطعة من السلاح والذخيرة³.

باشر المولى إدريس جمع القبائل، وتحريضهم على الثورة ضد الفرنسيين، ثم اتجه من آدرار، مع أميرها (سيدي أحمد بن عيدة) ومن التف معهم إلى منطقة

¹ - راجع نص الحكم في المرجع السابق.

² - عبد الرحمن بن عمار: مرجع سبق ذكره، ص:183.

³ - ستيفن هارمن: المقاومة المسلحة وموقف الشيخ ماء العينين إزاء السياسة الفرنسية في شمال غرب إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص:69.

العصابة¹، قاطعا الطريق بين موقع تجكجة، والجنوب المصدر الأساسي لتموين القوات الفرنسية، ولما وصل المجاهدون إلى "النيملان" بعث مولاي إدريس رسالة إنذار إلى الحاكم العسكري في تجكجة، يطلب منه الخروج منها ومن سائر بلاد المسلمين التي احتلتها القوات الفرنسية، ولما وصلت الرسالة إلى الحاكم أمر باعتقال حاملها وتجريده من سلاحه، ثم أطلق رصاصة فوق رأسه تخويفا له وقال هذا هو جوابكم².

وقام الحاكم الفرنسي بإرسال كتيبة عسكرية مؤلفة من ستين من الرماة، وثلاثين من المناصرين البيضان وبقيادة الملازمين أندريو "Andrieu" وديفرس "De Farnssu" لمباغثة الشريف وجماعته³، إلا أن إشعار قبيلة "إدو علي تجكجة" للمجاهدين حال دون أخذهم على غفلة، بل إنهم رتبوا صفوفهم وأعدوا كميناً للقوات الفرنسية، سقطوا فيه عندما حاولوا الدخول إلى واد "النيملان"، قام الفرنسيون بتغشيل المدفع الرشاش (بوتاسارت⁴)، وأطلقوا أبلا من الرصاص في كل اتجاه كاد أن يفرق جمع المقاومين، غير أنهم أعادوا الكرة من جديد بصورة أكثر انتظاماً واستهدافاً، فسقط الرقيبان الفرنسيان وما يناهز العشرين من الرماة موتى⁵.

وفي أعقاب المعركة وفرار فلول المنهزمين الفرنسيين اعترض طريقهم محمد المختار بن الحامد⁶ في مجموعة من فرسانه وقضى على بقيتهم، أما المقاومون فقد استشهد منهم سبعون وجرح مثل هذا العدد⁷، وقد دفع هذا الانتصار المقاومة على

1 - وسط البلاد.

2 - الطالب أختيار: مرجع سبق ذكره، ج: 2 ص: 250.

3 - نفس المرجع والصفحة.

4 - كلمة أطلقها الأهالي على المدفع الثقيل الرشاش، والتاسارت هي حصير مصنوع من الأعواد، تشبيهاً لقذائف بأعواد الحصير في تناسقها وكثرتها وتراصها.

5 - جليبه: مصدر سبق ذكره ص: 164.

6 - محمد المختار بن الحامد الكنتي كان قد أعلن ولاءه للفرنسيين أيام كبولاني، وبعد موت هذا الأخير سحب تحالفه مع الإدارة الاستعمارية، وانضم إلى صفوف المقاومة

7 - المختار بن الحامد، حياة مورتانيا، الجزء السياسي، مرجع سبق ذكره، ص: 230.

متابعة السير إلى تجكجة وضرب الحصار عليها، كما بدأ مولاي إدريس في استقبال القبائل المنضمة إلى صفوف الناقمين على الوجود الفرنسي.

تجمع قرابة 3000 رجل من المقاومة تحت قيادة مولاي إدريس ورؤساء القبائل الذين معه، وفرضوا الحصار على قلعة تجكجة، وبعد أسبوع من الحصار تم الهجوم على القلعة العسكرية، وكان قد نصب على بُرجها المدفع الرشاش، وعندما تدفقت جموع المقاومين نحو المعسكر تريد احتلاله أمطروهم الجنود الفرنسيون بوابل رصاص من المدفع الرشاش، فسقط العشرات منهم، واستمر القصف العنيف عدة ساعات، وانهزموا هزيمة نكراء، وتناثرت الجثث في ساحة المعركة وفر الكثير منهم لا يلوي على شيء¹.

كانت الجثث الكثيرة المتناثرة في ساحة المعركة كفيلاً ببعث اليأس في قلوب المقاومين فانسحبوا انسحاباً غير منظم، وعسكروا على بعد عدة كيلومترات من تجكجة، وتبينوا الخطأ الكبير الذي وقعوا فيه أثناء الهجوم، وتطور النقاش بين القادة إلى خلاف أعلنت على إثره بعض القبائل رجوعها إلى آدرار.

ويبدو أن غياب التنسيق والتشاور بين قواد المعركة كان هو السبب المباشر وراء الهزيمة، ثم تفرق جيش المقاومة بعد ذلك إلى عدة طوائف، فلو تم التنسيق أولاً، ثم احتلال المسالك المؤدية إلى تجكجة ثانياً، ثم إحكام الحصار على القلعة لمنع الإمدادات الخارجية، بإضافة إلى الهجوم المدروس، لكان لهذه المعركة نتائج حميدة ربما أثرت على الوجود الفرنسي في موريتانيا بشكل عام، وأوقف الأطماع الفرنسية في احتلال آدرار والمكوث في "تكانت" بشكل خاص.

¹ - نفس المرجع، ص260.

بعد حصار حامية تجكجة، وهزيمة المقاومة بعد هذا الحصار، انسحب مولاي إدريس إلى الرشيد¹، بعد أن كادت تنفذ كميات الذخيرة التي بحوزته، ثم انتقل بعد ذلك إلى شنقيط².

في انتظار مدد من السلاح قادم من المغرب، وبعد عدة أيام وصلته رسالة من السلطان يستحثه فيها على الإسراع بالقدوم على فاس تحت ضغط من المفوض الفرنسي في طنجة³.

لقد احتفظت الذاكرة المحلية الشفوية بشيء غير يسير من التقدير والعرفان، للدعم المغربي من خلال بعثة مولاي إدريس، وجهودها في دعم المقاومة، وطرد الغزاة الاستعماريين، وظلت تحتفظ بالدور الكبير الذي أحرزته هذه البعثة في إحياء روح الوحدة، والتكامل، وبت الأخوة والغيرة على الدين والأرض بين أبناء الشعب الواحد.

وعلى العكس من ذلك نجد المصادر الفرنسية توغل في التقليل من نتائج حملة مولاي إدريس، وتصفها "بعديمة الفائدة" فقد ذكر بول مارتي⁴ بأنه "...فيما بين عامي 1906-1907 كان جليا أن القبائل في حالة انتظار مجيء قائد مغربي على رأس قوات مسلحة ببنادق سريعة الطلقات، وتلقي زعماء مشطوف وأولاد الناصر وأهل الطالب مختار العديد من النداءات لإعلان الجهاد، وضرورة القدوم إلى آدرار أو مواجهة الفرنسيين في الساحل... لكن الاندفاعية الجبارة التي قام بها الجنرال "غورو" في موريتانيا، وعملية شراء الجمال في الساحل والتي جعلت الناس يعتقدون بوجود نية لتشكيل أرتال من القوات المتأهبة، وأخيرا مجيء مفرزة

1 - بلدة في تكانت.

2 - مدينة في آدرار، وتطلق أحيانا ويراد بها البلاد كلها من باب تسمية البعض بالكل.

3 - محمد عبد الرحمن بن عمار: مرجع سبق ذكره، ص: 198.

4 - عمل في الجزائر والمغرب وتونس، ثم انتقل كمستشار للوالي الفرنسي على غرب إفريقيا سنة 1912 قدم عدة دراسات حول الإسلام وشعوب غرب إفريقيا وحياتهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، من أهم دراساته حول موريتانيا:

- القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني، قصة احتلال فرنسا للمنطقة تعريب محمد محمود بن ودادي 2004.

"لافرادير laverdure" من تنبكتو، التي وصلت في إبريل سنة 1908 عن طريق باسكنو إلى النعمة، كل هذه العوامل أجهضت أي رغبة في المقاومة، هذا فيما لو كانت هذه الرغبة قد وجدت فعلا، وهنا أيضا لم يحصل الشريف مولاي إدريس والشيخ ماء العينين على أية فائدة"¹.

في حين يعتبر الرائد جلييه أكثر تحاملا على مولاي إدريس وعلاقته بالمقاومة، عندما وصف الحصار على قلعة تجكجة بقوله: "...انسحب مولاي إدريس انسحابا بائسا نحو آدرار لعلمه أنه لم يعد يستطيع مقابلة فرقنا، واستقر في وادان بحجة انتظار تعزيزات ستصله عن المغرب، وهذا الموقف بعيد من أن يناسب ثقة الشريف بمواهبه الحربية، وانتهى به الأمر إلى أن تلاشى في عقول البيضان، الذين لم يعودوا يمنحونه سوى الإزدراء، وغادر "عم السلطان" الخجل في هذه المغامرة آدرار خفية في بداية سنة 1907 بعدما حصل بمشقة على بعض الجمال الضرورية لرحلته".

ومهما يكن فإن الأمر المؤكد هو أن هجمات المقاومة استمرت في استهداف المواقع الفرنسية ففي 16 مارس 1908 تمكنت مجموعة من المقاومة تتألف من قرابة مائتي رجل قادمة من آدرار من الهجوم على مركز أكجوجت² الذي تم إنشاؤه لمراقبة القادمين من الشمال، وقطع الاتصال بين الترارزة وآدرار، وقد نفذت هذه المجموعة هجوما قويا على المعسكر، سقط على إثره القائد الفرنسي ميتا، وجرح العديد من جنوده³.

وبعد ذلك بأيام انطلقت مفرزة فرنسية من الموقع نفسه (أكجوجت) متجهة إلى نواكشوط، وكانت مكونة من ضابطي صف، وعشرون قناصا، وعندما ضربوا

¹ - بول مارتي: القبائل البيضاوية في الحوض والساحل الموريتاني، قصة احتلال فرنسا للمنطقة، تعريب محمد محمود بن ودادي، 2004 دون مكان نشر، ص:23-24.

² - هي الآن عاصمة ولاية إينشيرري.

³ - الرائد جلييه: مصدر سبق ذكره، ص:188.

معسكرا عند بئر دامان هاجمتهم مجموعة من المقاومة تخفي أسلحتها تحت ثيابها وتسوق قطعانا من البقر، حتى لا تثير انتباه قوات الاحتلال، وقد تمكنت من قتل الضابطي صف، وخمسة عشر من القناصة، واستولت على القافلة، وما تحمله من أسلحة وذخائر¹.

وفي مايو من نفس السنة (1908) تمكن رجال المقاومة من سلب جمال "فرقة الجمالة" ذات الفعالية الكبيرة في مطاردة المقاومين، مما حد من فعالية تحركات الفرنسيين وأثر على فرقهم المختلفة، تم تشكيل كتيبة "جمالة تكانت" لتسد هذه الثغرة، وشملت إضافة إلى قائد الفرقة النقيب "مانجان"² مائة وأربعة عشر من الرماة السنغاليين، وثلاثين من البيضان، ولديهم مدفعان رشاشان، وبينما كان أفراد هذه الكتيبة في رحلة بعث من المراعي، داهمتهم مجموعة من المقاومة كانت تتربص بهم الدوائر، ونظرا لعاملي المباغته والسرعة، لم يستطع الفرنسيون تشغيل المدافع الرشاشة، وسقط النقيب "مانجان" ومعظم القناصة الذين معه موتى، واستولت المقاومة على المؤن والسلاح التي يحويها الموقع، وتم إرسال أحد القناصة يحمل رأس النقيب "مانجان" إلى تجكجة حيث ثقل القوات الفرنسية المتأهبة لدخول آدرار³. وبهذا نلاحظ أن المقاومة قد نجحت في هدفين أساسيين هما تدمير موقع أكجوجت، وشل حركة الفرق الفرنسية المتنقلة، ولم يتوقف استهداف الحاميات الفرنسية وقوافل التموين عند هذا الحد بل إنه سُجل خلال سنة 1908 وحدها قرابة 135 هجوما، تسببت في قتل مائة وخمسون من جيش الاحتلال، من بينهم ثلاثة ضباط، وخمسة ضباط صف ومائة وأربع وثلاثون جنديا وجرح سبعة مدنيين

¹ - نفس المصدر ص: 189.

² - قائد فرنسي له شهرة كبيرة في إفريقيا الغربية، وخاصة في السودان (مالي) فقد استطاع القضاء على حركة الساموري الراضة للوجود الفرنسي في السودان الغربي.

³ - جلييه: المصدر السابق، ص: 196.

فرنسيين وأربعون جنديا ونهبت قوافل كثيرة وعدد لا يحصى من الأنعام، وقطعت أسلاك التلغراف أكثر من عشرين مرة¹.

غير أن حملة العقيد غورو على آدرار² ستجعل حدا لخطوة هجمات المقاومة وستعمل هذه الحملة – من خلال قضائها وملاحقتها لعناصر المقاومة – على تثبيت الوجود الفرنسي وفرض الانقياد لفرنسا ليس في آدرار وحدها وإنما في كل أنحاء البلاد، وستشهد المرحلة اللاحقة عليها (حملة آدرار) أفول نجم المقاومة، وإن ظل إشعاعه ساطعا بعد ذلك، لكن بصورة أقل وضوحا وجاذبية إلى حدود سنة 1934، النهاية الفعلية للمقاومة، وبداية استكمال التنظيمات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية للإدارة الاستعمارية.

(ب) تراجع الهجمات ضد القوات الفرنسية (1910-1934):

مع تغيير أسلوب تعاملها اتجاه السكان³، انتدبت فرنسا أحد قوادها العسكريين المتميزين⁴ لوضع حد لهجمات المقاومة، وترسيخ النفوذ الفرنسي في المنطقة، وفي هذا الإطار – قام "غورو" بضرب أهم قواعد المقاومة في آدرار، الذي أصبح أهم ملجأ للرافضين للوجود الفرنسي، فكان احتلال مدينة "أطار"⁵ – التي تشكل العمق الاستراتيجي للمقاومة ونقطة تجمعها – ضربة قوية للمقاومين، وبداية انشقاق صفوفهم، بل والتحاق مجموعة كبيرة منهم بالفرنسيين طالبين الأمان.

وقد استغل الفرنسيون هذه الوضعية، وسيطروا على الواحات والتجمعات السكنية في آدرار، وصعدوا من عملياتهم العسكرية، ومطاردتهم لعناصر المقاومة، مستغلين أسلحتهم المتطورة، وخبرتهم القتالية الناجمة من اكتتاب أعداد من الأهالي في صفوف القوات الفرنسية، وبالتالي اقتصر دور المقاومة على الهجوم المباغت، ثم

1 - المختار بن الحامد: موسوعة حياة موريتانيا الجزء السياسي، مصدر سبق ذكره ص 230.

2 - كنا قد تطرقنا لهذه الحملة في الفصول الماضية.

3 - بعد مقتل كبولاني، غيرت فرنسا تعاملها مع الأهالي، إلى أسلوب أكثر عنفا ودموية.

4 - يتعلق الأمر بالعقيد غورو، وقد سبقت ترجمته.

5 - مدينة تاريخية قديمة، وهي الآن عاصمة ولاية آدرار.

الانسحاب السريع، وتلاشت بالتالي مرحلة الصمود (1903 إلى 1910)، وبدأت مرحلة تراجع المقاومة من (1910 إلى 1934) النهاية الفعلية للهجمات على المراكز والمصالح الفرنسية.

تميزت سنة 1910 بحدثين هامين أثرا على المقاومة، أولهما وفاة الشيخ ماء العينين الذي مثل السند الحقيقي، والداعم الفعلي للناقمين على النفوذ الفرنسي في البلاد، وذلك من خلال فتاويه الدينية المحرصة على الجهاد، ومن خلال أيضا الأسلحة التي تلقاها من طرف السلطان المغربي، وقسمها على الأهالي¹، أما الحدث الثاني فهو تعيين "باتي patey"² مفوضا عاما للحكومة الفرنسية على موريتانيا، خلفا للعقيد غورو، وتكمن أهمية هذا المفوض في السياسة التي اتبعها لاحتواء السكان، فإذا كان كبولاني قد اعتمد على الزوايا من أجل إيصال خطابه إلى العامة، وتشريع احتلاله، فإن "باتي" أعاد الاعتبار إلى "حسان" أصحاب السلطة السياسية، وبما أن أغلب المقاومين ينحدرون من فئة حسان، فقد أراد المفوض العام الجديد لموريتانيا، إحداث انشقاقات داخل صفوف المقاومة من خلال استقطابه لرموز السلطة التقليدية السابقة على الاحتلال، وتعيينهم أمراء والاستفادة منهم في تدعيم الاحتلال العسكري³.

ولمواجهة هجمات المقاومة، كان على الإدارة الاستعمارية تفعيل قوة الجمالة، لملاحقة المهاجمين داخل الصحراء، ومراقبة تحركاتهم، وبالفعل تم استحداث جمالة آدرار، المكونة من 170 قناصا و110 من الحرس البيضان، وإلى الجنوب من ذلك

¹ - للمزيد حول هذه النقطة راجع:

- الطالب اخيار: الشيخ ماء العينين، مرجع سبق ذكره ج: 2 ص: 247.

² - عقيد في الجيش الفرنسي وهنا نلاحظ التطور الحاصل في نظرة فرنسا إلى المنطقة، حيث شرعت بعد وفاة كبولاني في تعيين عسكريين (فيريجان، مونتاني، غورو، باتي) وهو ما يعني تبني الخيار العسكري لإخضاع السكان.

³ - ستيفن ا هارمن: المقاومة المسلحة وموقف الشيخ ماء العينين، مصدر سبق ذكره، ص: 76. مثلت هذه السياسة الجديدة، نمطا جديدا من التعامل مع السكان، وتمثل ذلك في سياسية الأعراف التي سبق وأن تحدثنا عنها، وكان لها الأثر الكبير في ترسيخ الوجود الفرنسي واستمر العمل بها إلى خمسينيات القرن العشرين.

تم تفعيل جمالة الترازرة كخط دفاع، ثم قسم جمالة "كيفة" التي تتحصن من الجهة الجنوبية الشرقية من هذه التشكلة إلى جانب قسم "تكانت"¹.

زاد من فعالية وقوة فرق الجمالة توفرها على عناصر من البيضان، الذين يختلفون عن العناصر الأخرى المكونة للجيش الفرنسي - الأوروبيون، السنغاليون، الجزائريون - بمعرفتهم الدقيقة بتضاريس الأرض ونقاط المياه، وقيادات المقاومة، ونقاط الضعف والقوة لديها، وربما كان هذا أحد الأسباب المباشرة في تعثر مسيرة المقاومة، ومع ذلك لم تخلو سنة 1910 من منغصات، فقد نفذت المقاومة إثني عشر هجوما ناجما على الفرق الفرنسية².

ومع العاشر من يناير 1913 هاجم رجال المقاومة كتيبة فرنسية يقودها الملازم "مارتين Martin" وتمكنوا من قتله وثلاثة ضباط صف و 43 قناصا و 11 من الحرس البيضان، وجرح سبعة عشر، في حين كانت خسائر المقاومة أربعة عشر قتيلًا، وقرابة ثلاثين جريحًا³، وإن كنا لا نستريح كثيرا للأرقام التي يوردها الرائد "جلييه"⁴ فغالبا ما نجده يقلل من حجم الخسائر الفرنسية، ويضخم أعداد القتلى في الصف المقاوم، إلا أنه ومع تسليمنا بصحة هذه الأرقام فإن هزيمة كتيبة الملازم "مارتين" تكون قد حققت هدفين ثمينين:

- ردت المقاومة الاعتبار إليها، وزادت من معنويات أفرادها،
ونلاحظ ذلك عندما نجدها مباشرة تغير على معسكر يحرس مستودع للمواد
الغذائية عند بئر "البيرات"، وتتمكن من الاستيلاء على المعسكر، وتهجم

1 - جلييه: مصدر سبق ذكره، ص: 235.

2 - نفس المصدر ص: 239.

3 - جلييه: ص: 261.

4 - اعتمدنا أحيانا على معلوماته مضطربين حول الخسائر الفرنسية، نظرا لغياب البديل عنه، فالكتابة في هذا الميدان (المقاومة) نادرة، غير أن ما يقوي من موقف جلييه ويزيد من أهمية كتاباته هو أنه معاصر للحدث، ونقل معلوماته من الميدان، في حين تبقى الكتابات المحلية مفقودة تماما ولا نجد من اهتم بها على الإطلاق ممن عاصروا حدث الاستعمار.

طائفة أخرى على جمالة "كيفة" وتقتل إثني عشر من كتيبتها وتجرح سبعة وتستولي على بعض الجمالة والأمتعة¹.

- تعويض النقص الحاصل في الأسلحة من خلال الاستيلاء على 150 بندقية، وعشرين ألف رصاصة، وخمسمائة جمل والكثير من الأمتعة².

لقد اتسمت الحالة العامة للبلاد طيلة الحرب العالمية الأولى بالهدوء النسبي، فقد حاول الفرنسيون الحفاظ على مكاسبهم دون الإثارة المفرطة للعنف، لقناعتهم بهشاشة الموقف، فمعظم ضباطهم تم استدعاؤهم للحرب، وعليه فإن السياسة الاستعمارية العسكرية أثناء فترة الحرب العالمية الأولى تميزت بالمدارات والليوننة في التعامل، أما الجانب المقاوم، فإنه أصيب خلال المرحلة، بنوبة تراجع ناجمة عن نقص الأسلحة، وجنوح معظم القبائل إلى السلم مع فرنسا.

وفي سياق إخماد جذوة المقاومة، عمت السلطات الفرنسية إلى التنسيق بين فيالقها العسكرية المتواجدة في موريتانيا والجزائر، حيث التقى الرائد "لوزان lauzanne" وكتيبته المكونة من جمالة أدرار، بفرقة جمالة الجزائر، عند منطقة الحنك سنة 1920³، بعدما اكتشفوا منطقة كانت مجهولة من قبل الفرنسيين، وطالما انسحب إليها رجال المقاومة أثناء مطاردات الجيش الفرنسي.

لم تبق المقاومة مكتوفة الأيدي أمام هذه المناظرات التي تشكل خطرا حقيقيا على مصيرها، بل وترجمت موقفها بالقيام بهجوم على القواعد العسكرية الفرنسية، عندما رصدت مجموعة من المقاومين، كتيبة فرنسية من جمالة أدرار في 28 نوفمبر 1923 وتمكنوا من الإحاطة بها، ثم الاستيلاء عليها، بعدما قتلوا 23 منها، وجرحوا

¹ - المصدر السابق، ص: 244.

² - نفس المصدر، ص: 261.

³ - الشريدي: مرجع سبق ذكره، ص: 288.

سنة وفقد ستة آخرون، وغنموا الأسلحة وعدة آلاف من الرصاص¹ تلا ذلك هجوماً آخر على موقع نواديبيو في 5 مايو 1924 وآخر في إبريل على الطريفية 1925.² وعلى صعيد آخر شكل انضمام أمير آدرار سيدي أحمد بن أحمد عيدة من جديد إلى صفوف المقاومة³، وإعلانه الحرب على الفرنسيين، والقبائل الموالية لهم، سببا مباشرا في تصفيته، حيث كلفت السلطات الاستعمارية حامية فرنسية تتألف من 300 جندي بالقبض عليه، وبالفعل تمكنت هذه الحامية من قتله بعد مطاردات في الصحراء خلال مارس 1932 قرب وديان الخروب⁴.

ولأننا لا نهتم في هذه الدراسة بالتاريخ الكمي، فيما يتعلق بمقاومة الوجود الفرنسي، بقدر ما نود إلقاء الضوء على إسهامات الأهالي في التصدي للاحتلال الاستعماري، وما قدموه من تضحيات، وما بذلوه من جهود، لذا فإننا قمنا بإعداد الجدول التالي، لإبراز أهم المعارك مع الطرف الفرنسي، ولا ندعي الإحاطة بكل المعارك لصعوبة ذلك، خصوصا في مجتمع لم يكتب تاريخه النضالي بعد، ومع ذلك فإننا جمعنا أهم وأغلب هذه المعارك، في ترتيب كرونولوجي يراعي تسلسل الأحداث⁵.

- 1 - جليبيه: مصدر سبق ذكره، ص: 292.
- 2 - تعددت الهجمات على القوات الفرنسية بعد ذلك، إلا أنه ليس بإمكاننا في هذه الدراسة الإتيان بها كلها لأن ذلك سيثعب الموضوع لذلك نحيل إلى الجدول الذي سنورده لاحقا، والمراجع المعتمدة فيه.
- 3 - رفض ولد عيدة في البداية الاحتلال الفرنسي، ثم أعلنت خضوعه لهم بعد ذلك، ولما توجه الفرنسيون منه الانضمام إلى المقاومة احتجزوه، ونقلوه إلى سان لوي، وهناك فرضت عليه الإقامة الجبرية حتى توقيع اتفاقية 9 يوليو 1920 القاضية بعدم اتصاله بالمقاومة، وإخبار السلطات الفرنسية بكل ما يحصل في آدرار، إلا أنه بعد عدة سنوات أعلن انشقاقه، والحرب على القوات الفرنسية، هو ما دفع هذه الأخيرة إلى مطاردته والظفر به، ثم قطع رأسه، وإرساله إلى زوجته من أجل إجهاضها، راجع المختار بن حامد: مصدر سبق ذكره، ص: 235.
- 4 - المختار بن حامد: نفس المصدر والصفحة.
- 5 - اعتمدنا في إعداد هذه الجداول على جملة من المصادر والمراجع منها:
 - بول مارتني: القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني، قصة احتلال فرنسا للمنطقة، مصدر سبق ذكره.
 - المختار بن الحامد: موسوعة حياة موريتانيا، حوادث السنين أربعة قرون من تاريخ موريتانيا، مصدر سبق ذكره.
 - الرائد جليبيه: التوغل في موريتانيا، مصدر سبق ذكره.
 - الطالب أخيار: الشيخ ماء العينين، مرجع سبق ذكره.
 - يحيى بن محمد الهاشمي شعر المقاومة الموريتانية، مرجع سبق ذكره.
 - فرانسيس دي شاسيه: موريتانيا من 1900 إلى 1975 مصدر سبق ذكره.
 - محمد المختار بن سيدي محمد: النضال الوطني، مرجع سبق ذكره.

تاريخ المعركة	اسمها أو مكانها	تفاصيل عنها
17 مارس 1903	سهوة الماء	قادها المختار بن أم الجيرب، وانتهت بمقتله ووقوع خسائر في الجانب الفرنسي.
ديسمبر 1903	ألاك	قادها الأمير البركني أحمدو بن أعلي معه 200 من المقاومة، وأسفرت عن خسائر طفيفة في الجانبين.
فبراير 1903	أميت	قادها الأميران بكار بن أسويد أحمد، والأمير أحمدو بن أعلي، قتل خلالها سبعة فرنسيين، وتسعة عشر من المقاومة.
12 مارس 1904	التاكلالت	قادها أعلي المراكشي ومحمد المختار بن غدة، قتل ثلاثة فرنسيين وجرح اثنان.
آخر مارس 1904	دكانا	دحرت الفرقة الفرنسية المهاجمة وفقدت أربعة قتلى.
26 فبراير 1905	البدر	قتل ثلاثة عشر من الفرقة الفرنسية وجرح القائد Rey واستشهد ثلاثون من المقاومة.
مارس 1905	مخيم الشراتيت	نهبت بعض ماشية المخيم، وقتل اعلي بن محمد شين.
13 ابريل 1905	بوكادوم	أغار القائد فريرجان بغتة على مخيم الأمير بكار، وهو ما نجم عن استشهاد هذا الأخير، وبداية مرحلة جديدة من صفحات المقاومة.
12 مايو 1905	تجكجة	هاجمت مجموعة من المقاومة مركز تجكجة، وتمكنوا من قتل منظر الحملة الاستعمارية في

البلاد كزافي كبولاني واستشهد أربعة من المقاومة وجرح سبعة آخرين.		
قتل عشرة فرنسيين، وغنم المقاومون كثيرا من الإبل الحامية، بعد أن فقدوا ثلاثة أشخاص.	حامية تجكجة	18 مايو 1905
قادها مولاي إدريس، وأبيدت المفرزة الفرنسية بكاملها، وفقدت المقاومة تسعة وسبعين رجلا.	النيملان	5 نوفمبر 1906
تم حصار قلعة تجكجة التي يتمركز فيها الجيش الفرنسي لقرابة شهر، استشهد قرابة 70 من المقاومين وجرح مثل ذلك وتفرقت جموعهم.	حصار تجكجة	6 نوفمبر 1906
قتل فيه ولد عساس، ابن أمير لبراكنة مع ثلاثين آخرين وينفرد ابن حامد من بين المصادر التي بين أيدينا بذكر هذا العدد - استشهد ثلاثين - ومع ذلك اعتبرناها وأدرجناها لمعرفة ابن حامد أولا بالتاريخ، وقربه زمانيا من حدث الاستعمار.	صَرَكَ	يناير 1907
الهجوم على الحامية الفرنسية المتمركزة في خروفة حيث قتل ثلاثة من جنود الحامية، وغنم المهاجمون كمية من السلاح والذخيرة، واستاقوا مائة من إبل الحامية.	خروفة	يونيو 1907
تمكن المقاومون بقيادة أمير الترارزة أحمد بن الوليد من الإستيلاء على خمسمائة من إبل الجمالة الفرنسية.	الترارزة	سبتمبر 1907

16 مارس 1908	دمان	قتل 30 من القوات الفرنسية، وأربعة من المقاومة.
مارس 1908	عگيلت الرفغة	تحت قيادة مشتركة من مقاتلي الترارزة، وإيدعويش وأدرار قتل 30 من الجيش الفرنسي من بينهم القائد ربو، وأصيب آخرون بجروح واشتتهد عشر من الطرف المحلي.
21 مايو 1908	إكڤيت التيگويت	تكبد الاحتلال فيها أربعة قتلى، وخمسة عشر جريحا، وتم الاستيلاء على كل جمالة الحامية.
4 يونيو 1908	العزلات	قادها الأمير أحمد بن الديد، وأسفرت عن القضاء على جميع أفراد القافلة الفرنسية، وأخذ حمولتها.
14 يونيو 1908	المينان	أبيدت الحامية الفرنسية بكاملها ومن بينهم القائد مانجان، الملقب بوبرس، صاحب الشهرة في حروب فرنسا داخل السودان الفرنسي (مالي).
أغسطس 1908	نواكشوط	كان من نتائجها مقتل سبعة عشر من الفرنسيين المعسكرين في مركز نواكشوط.
15 أكتوبر 1908	لتفتار (1)	استشهد اثنى عشر، وقتل 30 من قوات الاحتلال، وغنم 300 ثور.
26 نوفمبر 1908	لتفتار (2)	استشهد عدد من المقاومين من بينهم قائدهم أحمد بن عبد العزيز بن حامي، وقتل سبعة من جيش الاحتلال وجرح اثنان.
28 نوفمبر 1908	المجرية	الهجوم على حامية المجرية، وقتل 17 من

أفرادها.		
بقيادة الأمير أحمد بن الديد، وقتل ملازم و25 جنديا وقتل من جانب المقاومة عثمان بن إبراهيم اخليل (أولاد أحمد بن دمان).	لغويشيش	23 ديسمبر 1908
داهمت قوات فريرجان عناصر المقاومة، وتمكنوا من قتل الشيخ حسنا وبعض رجاله.	اكرارت لفرس	23 ديسمبر 1908
قتل من القوات الاستعمارية ثلاثة ضباط وثمانية جنود، وجرح نقيبان ووقع ملازم في الأسر، في حين قتل ما يقارب العشرين من المقاومة.	أماطيل	23 ديسمبر 1908
تذكر المصادر الفرنسية التي بين أيدينا أنه قتل سبعة أشخاص من الجيش الفرنسي، لكننا نتوقع أن العدد أكبر من ذلك لأن حمدون هي مدخل آدرار، وقد تمركزت فيه المقاومة لمنع التوغل الفرنسي.	حمدون	8 يناير 1909
أبيدت المفزة الفرنسية التي كانت تزيد على المائة، ولم ينج منهم إلا ثلاثة أشخاص تسللوا هاربيين، وكان من بين القتلى القائد "بابلون".	أغسرمت	28 إبريل 1909
كان عدد رجال المقاومة 350 رجلا، وقد اشتبكوا بقوة مع وحدات الجيش الفرنسي، وتحت ضربات المدفع الرشاش انسحبوا مخلفين 10 قتلى، و8 في الجانب الفرنسي.	اقصير الطرشان	28 يوليو 1909
قام الجيش الفرنسي بعد دخوله آدرار بعمليات	وادان	30 يوليو 1909

نهب، استولوا بعدها على 3500 جمل مملوكة لسكان وادان.		
الهجوم على مفرزة فرنسية تتكون من 23 جنديا، قتل منهم 12 وجرح سبعة وهرب الباقون.	كيفة	مايو 1911
جرح خلالها أمير آدرار سيدي أحمد بن عيدة وتم أسره، ووضعه تحت الإقامة الجبرية في سان لوي.	تيشيت	13 يناير 1912
خسر الجيش الفرنسي خلال هذه المعركة القائد الفرنسي مارتن وثلاثة ضباط صف، و43 قناصا و11 من الحرس البيضان، وجرح سبعة جنود، واستشهد 14 وجرح 30 من المقاومة، وغنموا مائة وخمسين بندقية، وعشرين ألف رصاصة، وخمسمائة جمل.	كتيبة مارتن	10 يناير 1913
الهجوم على جمالة كيفة وقتل 12 وجرح سبعة وسلب أسلحتهم.	كيفة	نهاية يناير 1913
الهجوم على جمالة وادان وقتل 27 قناصا من أصل ثمان وعشرون، وغنم معظم الجمال.	وادان	18 ديسمبر 1913
قاد هذه المعركة أعلي بن ميارة، ومات فيها 27 من الرماة وعشرة من البيضان المناصرين، وغنموا أربعين بندقية، وصناديق الذخيرة، وجميع الجمال التي كانت بحوزة الكتيبة.	حفرة وادان	28 ديسمبر 1913

هاجمت القوات الفرنسية مخيم محمد بن الخليل، واحتجزت هذا الأخير مع عشرين من رجاله، وأعدمتهم أمام المخيم رميا بالرصاص.	اصطيلت بقاس	إبريل 1915
قتل حاكم الدائرة وأحد أفراد قواته.	كدية أهل عبوك	12 يناير 1916
هاجمت المقاومة بقيادة علي بن ميارة مفرزة فرنسية في أرض أزواد وتمكنوا من سحقها والاستيلاء على أسلحتها.	أزواد	5 يونيو 1917
قتل 30 من الجيش الفرنسي، وأسر تسعة من الرماة، وغنمت المقاومة أربعين بندقية، وعدة آلاف من الرصاص و42 جملا.	اشريريك	28 نوفمبر 1923
هاجمت مجموعة من المقاومة تزيد على المائة موقع انواذيبو، وأسفر الهجوم عن مقتل جندي وجرح ثلاثة، وقتل ثلاثة من المقاومين.	انواذيبو	26 مارس 1924
قتل 17 من أصحاب الرتب، وأربعة عشر قناصا، واثنان من الحرس، وجرح خمسة عشر، وسيقت 200 جمل.	لگدم	23 أكتوبر 1924
دامت ثلاثة أيام، ولم ينسحب المقاومون إلا بعد أن نفذت ذخيرتهم وقتل خلالها سبعة عشر من جيش الاحتلال وجرح اثنى عشر، واستشهد أربعة عشر من المقاومة.	الطريفية	2 إبريل 1925
استطاع رجال المقاومة الهجوم على دورية فرنسية قرب نوامغار تتألف هذه الدورية من ثلاثين فردا، وتم القضاء عليها، والاستيلاء	انوامغار	أكتوبر 1926

على أسلحتها والذخيرة التي بحوزتها.		
قتل أربعون من الفرنسيين من بينهم أصحاب رتب سامية في الجيش واستشهد قرابة العشرين من المقاومين.	توجنين	6 سبتمبر 1931
قتل فيها عشر جنود من الاحتلال.	واديان الخروب(1)	14 مارس 1932
تم الهجوم الفرنسي على مخيم أمير آدرار سيد أحمد بن عيدة، بعد أن أعلن انضمامه إلى المقاومة، ونفذ عدة هجومات ناجمة ضد القواعد الفرنسية وكان من نتائج الهجوم الفرنسي، استشهاد الأمير وثمانية من رفاقه، وقتل سبعة من الجنود الفرنسيين.	واديان الخروب(2)	نهاية مارس 1932
استشهد عشرون من المقاومة وجرح قرابتها، وقتل سبعة وعشرون من القوات الفرنسية، وجرح عشرون، وتم الاستيلاء على خمسين جملا ومدفعا رشاشا، وكان من بين القتلى الفرنسيين ماك ماهون mac mahon نجل رئيس الجمهورية الفرنسية، وهو حينها برتبة ملازم.	أم التونسي	18 أغسطس 1932
قتل ضابط فرنسي وجرح خمسة، وأحرق المقاومون ثلاثة سيارات بعد الاستيلاء عليها.	امساقة	8 يناير 1934

وبهذه المعركة الأخيرة - سنة 1934- تكون المقاومة قد أطلقت آخر رصاصة في كنانتها بعدما تمت مضايقتها وملاحقة عناصرها ونضبت موارد تموينها وتضافرت على مشروعها عوامل طبيعية وبشرية وسياسية أرغمت قطارها - الذي استمر عقودا قبل ذلك من الحركة - على التوقف، وليست المعارك السالف ذكرها إلا دليلا على المسيرة النضالية الطويلة التي عاشها المجتمع ضد الاحتلال الأجنبي، مع أن العديد من المعارك ضاعت أخباره بين عاديات الزمن، وإهمال السكان لمجال التدوين.

وعموما فإن سنة 1934 مثلت مرحلة إتمام الربط المباشر بين مختلف القوات العسكرية الفرنسية المتواجدة في مستعمرات (المغرب، الجزائر، وموريتانيا، والسنغال) بعدما تم القضاء على جيوب المقاومة، وملاحقة المنشقين، وإرغامهم - بقوة السلاح - على التخلي عن النهج المقاوم، وبذلك تكون فرنسا قد حققت أهم الأهداف التي دفعتها إلى احتلال البلاد، وهو الربط بين مستعمراتها في الشمال والجنوب (الجزائر، السنغال) وتكوين إمبراطورية فرنسية استعمارية في شمال وغرب إفريقيا، وشرعت بالتالي في وضع الأسس الكفيلة بثبيت وجودها داخل المجتمع.

الفصل الثالث: تأثير العلاقات الموريتانية- الفرنسية على بنيات المجتمع

لقد لاحظنا - كما سبق - أن السياسة الفرنسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ركزت على وضع حد لنفوذ الإمارات البيضانية على الضفة اليسرى من النهر، ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، بل تعداه إلى محاولة إخضاع هذه الإمارات، وإرغامها على الخضوع للنفوذ الفرنسي.

وكان الجنرال "فيدرب" - الحاكم الفرنسي على السنغال - واضع الأسس الفعلية للسياسة التوسعية الفرنسية في المنطقة، والتي أملت الحاجة إلى الأسواق، والمواد الأولية، ولم يحد الولاة المتعاقبون بعد ذلك على حكم السنغال عن نهج فيدرب القاضي بفرض الهيمنة الفرنسية على المنطقة ووضع أسس جديدة للتعامل.

ومع بدايات القرن العشرين ظهرت توجهات جديدة في السياسة الفرنسية تقوم على أساس الرغبة في احتلال البلاد، الذي تطلب من بين أمور، إذكاء النزعات، والخلافات الداخلية بين الإمارات، وبين القبائل أيضا المكونة للنسيج الاجتماعي المحلي، حتى يسهل التحكم في الجميع.

إتجهت السياسة الفرنسية في مستعمراتها إلى القضاء على جميع الزعامات السياسية وإبدالها بأخرى موالية لها ومصبوغة بالصبغة الفرنسية، على عكس السياسة التي انتهجها الاستعمار البريطاني الذي يحتفظ بالزعامات التقليدية ويقوم فقط بإضعافها حتى تكون سهلة الانقياد؛ وعموما فإن السياسة الفرنسية القائمة على القضاء على الزعامات السياسية لم تفلح في موريتانيا بفعل عوامل عدة لعل منها الخصوصية التي يتمتع بها المجتمع، والذي تعود على بيوتات أميرية تتوارث الإمارة كإبراهيم من كابر، إضافة إلى ترسخ مفهوم الطبقة والقبلية داخل هذا المجتمع، لذا فإنه من الصعب تقبل شخصية من خارج اللعبة السياسية في كل إمارة وتوليته مقاليد الحكم، وهذا ما جعل فرنسا تتبع سياسات مختلفة تجاه السكان، كانت كل واحدة منها استجابة لظرفية تاريخية معينة، وذلك على النحو التالي:

أولاً: سياسة الأجناس:

تقوم هذه السياسة على فلسفة وهي أن فرنسا جاءت لنشر السكينة وحفظ الأمن داخل البلاد، وهذا ما يقتضي منها حماية الطبقات الضعيفة من المجموعات الأخرى الأكثر قوة، وقد اتخذ ذلك شكل حماية الزوايا من حسان، والمستقرين من الرحل، والمزارعين من المنمين، والطبقات الدنيا من الطبقات العليا، وكلها أمور تصب في خلخلة البنية الاجتماعية من خلال إثارة النعرات والحساسيات داخل المجتمع، وقد استعمل كبولاني هذه السياسة بنجاح في الترابزة، ثم لبراكنة؛ مما سهل عليه السيطرة عليهما دون قتال، إلا أن هذه السياسة لم تفلح، مما اضطر السلطات الفرنسية إلى تغيير سياستها، وانتهاج سياسة الإدماج.

ثانياً: سياسة الإدماج:

بعد دخول الفرنسيين، وزوال الظروف التي أدت إلى سياسة الأجناس، وبروز عدم فاعليتها، استخدمت الإدارة الاستعمارية سياسة الإدماج، والتي تعتمد على التخلص من السلط التقليدية باعتبارها حاجزا بينها وبين المجموعات الأخرى، وقد اقتضت هذه السياسة إلغاء جميع الاعتبارات التقليدية، بما في ذلك الإتوات التي كانت تدفعها الطبقات الضعيفة لمجموعة حسان مقابل الحماية¹.

حاول الولاة العسكريون الذين خلفوا كبولاني بعد اغتياله، تطبيق هذه السياسة، إلا أنها سرعان ما أثارت الكثير من المشاكل والسخط ضد الفرنسيين، بسبب طبيعة المجتمع البدوي المتحررة، وعدم تعوده في السابق على السلطة المركزية، أخرى أن تكون هذه السلطة سلطة أجنبية تسعى إلى تغيير مفهوم العقلية السياسية لمجتمع يصعب عليه تقبل الآخر، وهذا ما أرغم الإدارة الفرنسية على البحث عن بدائل لهذه السياسة.

ثالثاً: سياسة الإشراف:

¹ - راجع الفصل الأول من هذا العمل.

استهدفت هذه السياسة إعادة الاعتبار لـ"حسان" ولحقوقهم السياسية، بعد أن تم إبعادهم من اللعبة السياسية، فقد قامت فرنسا بتقريب فئة الزوايا في بدايات احتلالها البلاد باعتبارهم لا يحملون السلاح، غير أنها تراجع عن ذلك وعملت على رد امتيازات المجموعة الحسانية، بإجراء رواتب لبعضهم بدلا عن الضرائب العرفية التي كانت فرنسا تدفع لهم في السابق، كما تم أيضا ائتاب مجموعة منهم في سلك الوحدات العسكرية وسلك المترجمين.

غير أننا نعتقد أن هذه السياسة لم تكن إملاءات من الخارج بقدر ما كانت استجابة لظروف محلية وجب على فرنسا التعامل معها بشيء من المرونة السياسية، فكما بينا في السابق يعتبر "حسان" أصحاب السلطة الزمنية، والقوة العسكرية، وقد كان من الطبيعي أن يصطدم هؤلاء بالاستعمار الفرنسي الذي سلبهم أرضهم، وسلطتهم، وامتيازاتهم، إلا أنه مع طول الوقت، وخمود جذوة المقاومة، أرادت فرنسا تقريب هذه المجموعة من أجل امتصاص غضبها، وإحداث شرخ داخلي بها حتى لا تعود مرة ثانية إلى حمل السلاح في وجهها، بل أكثر من ذلك تم استعمالها كأداة للهيمنة على باقي شرائح المجتمع.

وتبقى الإشكالية المطروحة هنا، هي المتمثلة في سبب اعتماد فرنسا على المجموعة الحسانية، بعد فترة طويلة من الجفاء، هل هو نوع من سحب البساط من تحت فئة الزوايا وتقليصا لنفوذهم المتزايد آنذاك منذ قدوم الفرنسيين إلى البلاد؟ أم هو نوع من المحافظة على التوازن داخل الهياكل الاجتماعية المكونة للمجتمع البيضاني؟

إن الإجابة على هذه الإشكالية بصفة موضوعية من الصعوبة بمكان، نظرا لعدم تطرق الوثائق والمصادر – التي بين أيدينا – لهذه القضية، ومع ذلك فإننا نعتقد أن احتضان فرنسا لمجموعة حسان – وإن كان جاء متأخرا نسبيا – أملت ظروف سياسية محلية، فهذه المجموعة تتربع على هرم الترتيب الفئوي والطبقي للمجتمع،

وكون فرنسا تتماهى في إبعاد هذه الفئة عن اللعبة السياسية، فإن ذلك - مع مرور الوقت - سيسبب لها مشكلة قد لا تكون عواقبها محمودة.

ومن جهة أخرى فإن مرحلة ما بعد الدخول الفرنسي وتثبيت قواعده، تتطلب تنظيماً إدارياً، وكوادر ومساعدين وفرق الجيش، وكل هذه الأمور تجعل من المجموعة الحسانية معادلة لا يمكن الاستغناء عنها، نظراً لخبرتها السياسية والعسكرية؛ فمن المعلوم أن هذه المجموعة ظلت حتى قدوم الفرنسيين تتولى الزعامة السياسية والعسكرية في المجتمع المحلي، ومع هذا فإننا نتفق مع ما ذهب إليه أحد الباحثين الموريتانيين¹ من أن احتضان "حسان" في هذه المرحلة يهدف إلى ضرب الهياكل التثقيفية "الزوايا" التي ظهر أنها تمثل مصدر المقاومة الثقافية، الداعية إلى مقاطعة الفرنسيين.

وعموماً يمكننا القول إن هذه السياسات الفرنسية كانت لكل واحدة مرتكزات، وفترة زمنية تصلح لها ثم ما تلبث أن تتلاشى، فسياسة "الأجناس" واكبت دخول المستعمر إلى البلاد، واعتمدت على إثارة الحساسيات بين الإثنيات المكونة للتركيبة الاجتماعية، (السود، البيض)²، مما يجعل التدخل الفرنسي مرغوباً فيه، بحجة حماية الأقليات "السوداء" من بطش المجموعات الأخرى.

ولعل هذا ما يفسر لنا تعاطف الأقليات مع الإستعمار الفرنسي، فمعظم الحملات العسكرية في البلاد كانت تتكون في أغلبها من عناصر من الجنود السنغاليين وبعض المجموعات السوداء، غير أنه لا يفوتنا أيضاً التنبيه إلى أن نفس السياسة استعملت في المجتمع البيضاني نفسه، فقد تذرعت فرنسا حين احتلت المنطقة بدعوى حماية الزوايا من بطش حسان.

¹ - الدوبن عبد الله: الشمال الموريتاني في مواجهة الاحتلال الفرنسي، بحث لنيل شهادة الكفاءة، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، نواكشوط 1982 ص:60.

² - نقصد بتعبير السود المجموعات ذات الأصول الإفريقية، أما البيض فهم القبائل البيضانية أصحاب البشرة البيضاء الضاربة في السمار.

أما فيما يخص سياسة "الإدماج" فعندما حاولت الإدارة الفرنسية التوغل داخل البنيات الاجتماعية بصفة مباشرة، كان عليها التخلص من جميع السلط التقليدية التي تعتبر حاجزا بينها وبين الهياكل الاجتماعية، وكان عليها ذلك التخلص من النظم الاجتماعية التقليدية خصوصا فيما يتعلق بالامتيازات والضرائب التي كان يفرضها حسان على باقي المجموعات مقابل حمايتهم، ودليل اعتراف بسلطتهم السياسية والعسكرية، إلا أن هذه السياسة في نهاية المطاف لم تجد آذانا صاغية لها، بسبب تشبث المجتمع بقيمه المتوارثة وتغلغل الطبقة داخل ذهنية المجتمع المحلي لدرجة يصعب عليه استصاغة مثل هذه الأمور.

وهذا ما جعل السياسة الفرنسية تتجه إلى سياسة "الإشراك" التي وجد فيها الفرنسيون على ما يبدو المتنفس لتغلغل سلطتهم، فبدل إزالة سلطة "حسان" يتم الاعتماد عليهم في تسيير المجتمع مع الإبقاء على مراكز القرار والسلطة الفعلية في يد الفرنسيين.

إن حكام القبضة الأمنية، وتسيير الأمور السياسية والعسكرية، أوجد ضرورة ماسة لتنظيم البلاد تنظيما محكما، وعليه فقد أقدمت الإدارة الفرنسية على تقسيم البلاد تقسيما إداريا، خلال مراحل متعددة من تواجدها في البلاد، مع أنها لم تراعي في أحيان كثيرة خصوصية كل منطقة، على قدر ما راعت الظروف الأمنية والسياسية أثناء تنظيمها الإداري.

أولا: تثبيت الوجود الفرنسي من خلال التنظيم الإداري:

اعتمد التنظيم الإداري الفرنسي في موريتانيا على نفس التشكيلات والمبادئ التي أوجدها في إفريقيا الغربية¹، ويعتبر كبولاني أول من وضع أسس هذا التنظيم

¹ - تم إنشاء مجموعة إفريقيا الغربية الفرنسية بموجب مرسوم صادر في 18/10/1904 وتتكون هذه المجموعة من وحدات إدارية مستقلة عن بعضها وهي (السنغال، موريتانيا، السودان الفرنسي (مالي حاليا)، داهومي (غينيا حاليا) فولتا العليا (بوركينا فاسو)، النيجر). وتدار هذه المجموعة من طرف والي عام، إضافة إلى مجلس حكومي، يتكون من حكام المستعمرات السابق ذكرها، راجع ولد جعدان: مرجع سبق ذكره، ص:76.

عندما عمد إلى تقسيم الترازرة - بعد احتلالها 1903 - إلى قسمين: الترازرة الشرقية، والترازرة الغربية، وقد واصل خلفاؤه من بعده تقسيم البلاد إلى عدة مناطق يشرف على كل منها مقيم فرنسي وهي على النحو التالي:

- اترارزة: (أبو تلميت، المذرذره)
- البراكنة: (ألاك، بوغى)
- تكانت: (المجرية، تجكجة)
- غورغل: (امبود، كيهيدي)
- أدرار: (شنقيط، أطار)

هذا بالإضافة إلى بعض المراكز الأخرى مثل: مركز "أكجوجت" الذي تم إنشاؤه على أساس موقعه الجيوستراتيجي، حيث يتموقع في مكان يربط مناطق البلاد بعضها ببعض، ثم مركز إفيدريك، ثم في سنة 1944 تم إلحاق منطقة الحوضين¹ بموريتانيا، بعد أن كانت تابعة لفترة طويلة - منذ دخل الاستعمار - للسودان الغربي (مالي).

وعموما فقد ظل هذا التقسيم السابق الذي يقسم البلاد إلى خمسة دوائر ساري المفعول، إلى أن تم إصدار مرسوم نوفمبر 1913 والقاضي بإنشاء دائرة العصابة، واستمر التقسيم الجديد إلى سنة 1920 عندما اعتبرت موريتانيا مستعمرة مستقلة تابعة لمجموعة مستعمرات إفريقيا الغربية الفرنسية (A.O.F)².

إن النتائج الإيجابية التي أحرزتها القوات الفرنسية على المقاومة، دفعت الإدارة الفرنسية إلى إنشاء مجلس خاص بموريتانيا، توكل إليه جميع القضايا التي

¹ - منطقة الشرق، والجنوب الشرقي، وهما الآن يمثلنا ولايتا الحوض الشرقي وعاصمته "النعمة" وولاية الحوض الغربي وعاصمته "العيون".

² - محمد الراطي، مرجع سبق ذكره، ص: 81.

تهم هذه المستعمرة، وكان ذلك بموجب المرسوم الصادر في 4 ديسمبر 1920، الذي أفضى إلى استقلالية موريتانيا ماليا وإداريا عن مستعمرة السنغال¹.

وفي سنة 1913 تم إنشاء مركز أكجوجت - كما أشرنا سابقا - وفي السنة الموالية تم ضم مركز تيشيت إلى تجكجة إثر القرار الصادر في 26 يوليو 1932 وبذلك يكون التقسيم النهائي للبلاد والذي استمر إلى غاية الاستقلال على النحو التالي²:

الدائرة	مركز الدائرة	المقاطعات التابعة لها
الترارزة	بوتليميت	المذرذرة، روصو، بوتليميت
البراكنة	ألاك	بوكي، ألاك
آدرار	أطار	شنقيط، أطار
إنشيري	أكجوجت	أكجوجت
تكانت	تجكجة	تثيت، المجرية، تجكجة
العصابة	كيفة	أمبود، كيفة
غور غول	كيهيدي	كيهيدي
انواذيبو	انواذيبو	انواذيبو
كيدي ماغا	سيلبابي	سيلبابي
الحوض	لعيون	النعمة، تمبذغة، لعيون، ولاتة
تيرس الزمور	ازويرات	افديرك، ازويرات

لقد تطلب التسيير الإداري الفرنسي للأراضي الموريتانية، إيجاد إداريين فرنسيين، وخلق آخرين من السكان المحليين يقومون بمساعدتهم، وكان الجهاز

¹ - محمد بن الشريف أحمد، مرجع سبق ذكره، ص: 70.

² - المرجع السابق، ص: 71.

الإداري الفرنسي يتكون من إدارتين (مركزية، وتابعة)، في حين تشكل الجهاز الإداري المحلي من أمراء سابقين، وشيوخ قبائل، وشخصيات نافذة في المجتمع.

أ. السُّلم الإداري الفرنسي:

بما أن موريتانيا ظلت تابعة في إدارتها لمستعمرة السنغال، فإن كل أجهزة الإدارة كانت في مدينة "سان لوي" وأدى هذا بطبيعة الحال إلى إهمال المرافق العمومية في موريتانيا، فلم يقدم الفرنسيون على إنشاء بنى تحتية في البلاد، وظلت تمثل لهم نقطة وصل فقط بين مستعمراتهم في الشمال والجنوب، وعلى كل حال فإن الإدارة الفرنسية تشكلت من إداريين فرنسيين، وإداريين محليين.

تم دمج موريتانيا بعد نظام الحماية، في مجموعة إفريقيا الغربية الفرنسية، التي يحتل الوالي العام لإفريقيا الفرنسية قمة الهرم السلطوي فيها، فهو يقوم بتسيير الأمور الإدارية والسياسية في كافة هذه المستعمرات، كما يقوم بدور الوسيط بين الإدارة الفرنسية في باريس، وبين حكام المستعمرات التابعة له، وهو يصدر الأوامر المتعلقة بالضرائب وتعيين القادة العسكريين.

ويأتي بعد الحاكم العام في الرتبة، "الوالي على موريتانيا"، فبعد أن فرضت الحماية على موريتانيا أصبحت تدار من طرف مندوب عن الحكومة العامة لإفريقيا الغربية، هذا المندوب يشرف على تسيير المحمية بواسطة بعض المساعدين، وترتكز مهامه في مراقبة القضاء وتعيين المقيمين عليه، والحفاظ على الأمن، إضافة إلى جمع الجبايات المفروضة على السكان المحليين¹.

ويعاون الوالي، كاتب خاص ومجلس للإدارة، ومجلس مكلف بالقضايا الإدارية، ووكيل لدى محكمة الاستئناف في "سان لوي"، إضافة إلى قائد مستعمرة موريتانيا وبعض الوجهاء المحليين، ويتم تعيين هؤلاء الآخرون بناء على اقتراح

¹ - مريم بنت أحمد الأمين، مرجع سبق ذكره، ص: 64.

يقدمه والي موريتانيا للحاكم العام لإفريقيا الغربية، ويبلغ عددهم أربعة أشخاص، قابلين للتجديد أو العزل¹.

والى جانب هؤلاء يوجد حكام الدوائر، ورؤساء المقاطعات، فالبلاد تتكون من عدة دوائر على كل دائرة حاكم يتبع لسلطة الوالي، ويسهر حاكم الدائرة على حفظ الأمن داخل دائرته، ومعرفة الداخلين والخارجين من الحيز الجغرافي الخاضع لسلطته، كما يتولى مهمة إعداد الحصص الضريبية التي يتم اقتراحها من طرفه وموافقة الوالي العام عليها، أما رؤساء المقاطعات، فإنهم تابعون لحاكم الدوائر ويتمحور عملهم في الأساس على دراسة الوضعية الاقتصادية للمقاطعة، بهدف تكيف الضرائب تبعا للمقدرات الاقتصادية للمقاطعة.

إن نجاح الجهاز الإداري الفرنسي في المهام الموكلة إليه – من حفظ الأمن، وجباية الضرائب، والسهر على المصالح الفرنسية – استدعى الأخذ بعين الاعتبار للتشكلة التقليدية للقبائل الموريتانية، عن طريق إقحامها في الحياة السياسية، من أجل إيصال الخطاب الفرنسي إلى جميع القبائل بمختلف توجهاتها، وهذا ما جعل الجهاز الإداري الأهلي المحلي لا يقل قدرا وأهمية عن سابقه في تثبيت الوجود الفرنسي داخل البلاد.

ب. الجهاز الإداري المحلي:

حاولت الإدارة الفرنسية أثناء بداية تواجدها في موريتانيا، تجريد الأمراء والشخصيات التي لها وزن في المجتمع من امتيازاتهم، غير أن هذه السياسة سرعان ما رجعت عنها، نظرا لعدم تلائمها مع طبيعة المجتمع ونظرا كذلك – وهذا الأهم – لعدم خدمتها لمصالح الإدارة الفرنسية، فحاولت هذه الأخيرة إعادة الاعتبار للسلط المحلية، ومع ذلك فقد ظلت هذه السلط مجرد وسيط بين الإدارة الفرنسية والسكان ولم تطلع بأدوار فاعلة في خدمة العملية السياسية والتنمية خلال الوجود الفرنسي.

¹ - الراضي، مرجع سبق ذكره، ص: 83.

وهكذا نلاحظ أن الإدارة الفرنسية أعادت تشكيل نظام السلطة التقليدية من جديد، حيث أصبح هذا الجهاز يتشكل أساسا من الزعماء الموالين لها على الرغم من أن دمج هؤلاء لم يكن ممكنا إلا بعد تجريدهم من امتيازاتهم الأساسية كأمرأء ورؤساء قبائل بيدهم السلطة الكاملة في السابق، وأصبحت بالتالي مناصبهم الجديدة داخل الجهاز الإداري الفرنسي مجرد وظائف شرفية خاضعة لسلطة فرنسية غليا.

وعلى العموم فقد تم تقسيم البنية الإدارية المحلية إلى مجموعة من المراتب تختلف من حيث اتساع مهام وصلاحيات أصحابها ومدى تأثيرهم على العملية السياسية في البلاد، ويأتي في مقدمتهم الأمرأء ثم رؤساء القبائل ورؤساء الأفخاذ، ولكل واحد من هؤلاء مهام خاصة به، يشتغل بها دون غيره، وكلها أمور تصب في حماية الوجود الفرنسي في المنطقة.

يمثل رئيس القبيلة العقل المدبر لها، والمسير الذي يتولى قيادة أمورها، لذلك فإن الإدارة الفرنسية أولته اهتماما كبيرا بحكم مهامه المتشعبة. فرئيس القبيلة يتعين عليه ما يلي¹:

- إمداد الإدارة الفرنسية بمعلومات مفصلة حول قبيلته ومجالها، والأمور التي تجد عليها.

- متابعة السكان الذين لا ينتمون إلى المنطقة ومعرفة أحوالهم.

- إعداد اللوائح الضريبية.

- إعلام السلطات بكل ما من شأنه أن يمس الأمن الفرنسي.

ويتلقى رؤساء القبائل مكافئة مالية يتم تحديدها حسب الدخل الذي يحققونه في مجال تحصيل الضرائب وذلك من أجل دفعهم إلى تنفيذ الأوامر الفرنسية في مجال السياسة الضريبية، كما أن لرؤساء القبائل جماعات تساعد في تأدية مهامهم وتسمى "رؤساء الأفخاذ".

¹ - محمد شريف أحمد، مرجع سبق ذكره، ص: 96.

تنقسم كل قبيلة إلى عدة أقسام أو أفخاذ، لكل فخذ رئيس يخضع لسلطة رئيس القبيلة، ومع تطور النظام الإداري في ثلاثينيات القرن العشرين، ونظرا لصعوبة التعرف على الأعداد الحقيقية للسكان الرحل، ارتأت الإدارة الفرنسية أن تعتمد على رؤساء الأفخاذ باعتبارهم وكلاء للإدارة، وتحدد مهام رئيس الفخذ في معرفة الأهالي القاطنين في مخيماته، أو الذين دعتم الضرورة للسكن فيه، أو بالقرب من مجال قبيلته، وإبلاغ الإدارة الفرنسية بذلك، كما يمكن لرئيس الفخذ متابعة مرتكبي الجرائم المدنية أو التي تمس أمن الإدارة الفرنسية، وتسليمهم إلى رئيس القبيلة الذي بدوره يسلمهم إلى قائد الإقليم¹.

أما الأمراء الذين يمثلون هرم السلطة المحلية، فقد تم تهميش أدوارهم، وأصبحت مقصورة على تسهيل عملية الاحتلال العسكري، وردع الطامعين في النيل من الإدارة الفرنسية، أما الأمراء الذين ناصبوا العداء لفرنسا - كما رأينا - كانت نهايتهم التصفية الجسدية وملاحقة قبائلهم، حتى يعلنوا الانقياد للإدارة الفرنسية، كما حصل مع أمير "تكانت" بكار بن اسويد أحمد 1905 وأمير آدرار سيدي أحمد بن عيدة سنة 1932، ومهما يكن من أمر، فإن الوظائف التي تم إسنادها إلى السلطات التقليدية، ليست سوى وظائف ثانوية، إذا ما قورنت بوظائف الإداريين الفرنسيين، حيث أن الأمراء، ورؤساء القبائل جردوا من امتيازاتهم الاجتماعية، ومن تأثيراتهم السياسية.

ومع أن هذه النظم الإدارية ساعدت الفرنسيين على إحكام قبضتهم الأمنية والسياسية في البلد، إلا أنهم أيضا لم يغفلوا الجانب الاقتصادي الذي يمثل الاعتناء به أحد عوامل البقاء، في بلد مثل موريتانيا، يُعتبر أكثر من ثلثي سكانه، بدو رحل، وهو ما فرض على الفرنسيين إيجاد سياسة اقتصادية تدمج هذا المجتمع التقليدي في صلب

¹ - الشريدي، مرجع سبق ذكره، ص:300.

الرأسمالية الأوروبية، وتحافظ - عن طريق مجموعة من الأساليب والنظم - على ترسيخ الوجود الفرنسي، وتبعية السكان في معاشهم للسوق الفرنسية.

ثانيا: تثبيت الوجود الفرنسي من خلال النظم الاقتصادية

لقد حاولت الإدارة الفرنسية - خلال السنوات الأولى للاحتلال - الاعتناء بالحالة الأمنية والعسكرية والسياسية للبلاد، وإغفال النواحي الاقتصادية وذلك على اعتبار أن احتلال موريتانيا إنما كان لتلبية رغبة أمنية واستراتيجية، المراد منها الحفاظ على الأمن في المنطقة، وربط المستعمرات الفرنسية في الشمال والجنوب والشرق مع بعضها (السنغال، الجزائر، السودان الفرنسي)، وقطع الطريق أمام أي دولة أوروبية أخرى من المفترض أن تحتل هذا المكان، بيد أنه لا يمكننا التسليم بهذه الدوافع، وإغفال الدافع الاقتصادي لدى الإدارة الفرنسية، خصوصا إذا ما علمنا أن هذه الأخيرة فرضت ضرائب مجحفة على السكان لرفع عائداتها من مستعمرة موريتانيا.

أ. الضرائب الفرنسية على السكان:

يعتبر المرسوم الصادر في إبريل 1900 عن الإدارة الفرنسية والذي يفرض على كل مستعمرة فرنسية ضمان تكاليفها ومصاريفها الخاصة والعمل على توفير حاجياتها الضرورية انطلاقا من دخلها الخاص¹، الركيزة التي اعتمدت عليها الإدارة الفرنسية في فرض الضرائب على السكان المحليين، وقد شملت هذه الضرائب جميع فئات وشرائح المجتمع، من تجار، ومنمين ومزارعين، بل ستصبح في مرحلة لاحقة على جميع أفراد المجتمع سواء كانوا منتجين أو غير منتجين.

ومن أهم أنواع الضرائب التي فرضتها الإدارة الفرنسية، ضريبة "الزكاة"، التي تعمدت الإدارة الفرنسية تسميتها بهذا الاسم حتى يتقبلها السكان، ويعتبرونها مثل الزكاة التي هي فرض على كل مسلم، بلغ ماله حد النصاب، فتأخذ منه هذه الزكاة

¹ - محمد بن الشريف أحمد، مرجع سبق ذكره، ص: 73.

لترد على الفقراء، بعد أن تودع في بيت المال، ومع أن السكان سرعان ما عرفوا أن هذه الضريبة ليست بركة، وإنما أخذت لتسلط على رقاب الناس، وذلك عن طريق تقوية الإدارة الاستعمارية، وإمدادها بالمال، إلا أن الغالبية كانت تدفعها مرغمة، تحت ضغط الخوف.

سعت الإدارة الفرنسية منذ احتلالها للبلاد، على إرساء نظام جبائي خاص بمستعمرة موريتانيا، حيث قسمت المساهمين في المجهود الضريبي إلى مجموعتين: مجموعة السكان المحليين من الزنوج وهؤلاء مرغومون على دفع الضريبة الشخصية - كما سنبين لاحقاً - ومجموعة السكان "البيضان" ويخضعون لضريبة الزكاة، التي تم فرضها بموجب مرسوم صادر في نوفمبر 1903، والقاضي بإلغاء كل الضرائب المفروضة على القبائل المحلية، وإبدالها بضريبة الزكاة، أو ضريبة العبور بالنسبة للقوافل، وقد تم تحديد هذه الضريبة ب: 40/1 من قيمة الحيوانات التي يمتلكها الفرد؛ وظل هذا المعدل ثابتاً إلى حدود سنة 1935¹.

ويشرف رؤساء القبائل والأفخاذ على جمع وتحصيل هذه الضريبة تحت إشراف إداريين فرنسيين، وتختلف الكمية المجبأة من سنة إلى أخرى تبعاً للظروف الطبيعية والاقتصادية للبلد، فمثلاً بلغت قيمة ضريبة الزكاة خلال سنة 1920 ما يقارب 859000 فرنك أي ما يعادل 40% من مجموع قيمة الضرائب المجبأة من السكان "البيضان"، وستظل هذه النسبة في ازدياد، إلى أن تصل بداية سنة 1929 ما يقارب 4119254 فرنك².

أما بعد 1929 فستشهد تراجعاً بسبب الأزمة العالمية وتأثيراتها على المناطق المستعمرة، حيث أدت هذه الأزمة إلى انخفاض كبير في معدل أسعار الحيوانات - التي تمثل العمود الفقري لاقتصاد السكان الرحل - صاحب ذلك تدني في الأحوال

¹ - محمد الراطي ولد صدفن، مرجع سبق ذكره، ص: 110.

² - محمد بن الشريف أحمد، مرجع سبق ذكره، ص: 76 نقلاً عن A.N.M/13.

المعيشية لغالبية المواطنين، ويوضح الجدول التالي أسعار الحيوانات خلال السنوات (1928-1931-1932)¹.

النوع	1929	1931	1932
الإبل	800 إلى 1500 فرنك	200 إلى 650	200 إلى 400
البقر	450 إلى 800 فرنك	150 إلى 300	75 إلى 150
الضأن	60 إلى 150 فرنك	15 إلى 50	10 إلى 20
المعز	60 إلى 120 فرنك	10 إلى 35	7.5 إلى 15
الثيران	500 إلى 1500 فرنك	450 إلى 500	150 إلى 250
الحمير	250 إلى 400 فرنك	70 إلى 100	40 إلى 75
الخيول	2500 إلى 4000	150 إلى 750	40 إلى 75

يحيل هذا الجدول إلى التراجع الكبير في قيمة الثروة الحيوانية، فصار المنمي مجبرا على بيع رؤوس كثيرة من ماشيته من أجل تسديد واجباته الضريبية، وقد تراجعت قيمة الأغنام مثلا إلى ما يزيد على 70%، وهو ما أدى بدوره إلى إنهاك الطبقة الفقيرة والمتوسطة من المجتمع.

وستضاف إلى ضريبة الزكاة ضريبة أخرى، عرفت في 11 أكتوبر 1924 باسم "الضريبة المضافة" وهي خاصة بالمواشي المخصصة لنقل البضائع أو الموجهة للبيع في مستعمرة السنغال، وبلغ قدر هذه الضريبة 20 فرنك للجمل، و15 للثور، و2 للحمير، و0.2 للأغنام²، وبالتالي فإن كل المواشي التي يتم استعمالها في نقل التجارة أو التي يراد الإتجار بها، كانت الإدارة الفرنسية تفرض عليها ضريبة ملزمة الدفع.

¹ - الراطي، مرجع سبق ذكره، ص: 116.
² - سعد خليل، مرجع سبق ذكره، ص: 257.

ومن أهم الضرائب كذلك، التي فرضها المستعمر على السكان "الضريبة الشخصية" وهي ضريبة يدفعها سنويا كل من بلغ 10 سنوات، أما حصصها فيتم وضعها من طرف والي الدائرة بناء على إحصاءات رؤساء القبائل ورؤساء التجمعات والقرى، على أن يقوم والي موريتانيا برفع تقرير إلى حاكم إفريقيا الغربية، الذي يقر هذه الحصص أثناء مجلس الحكومة، ولم تكن قيمة الضريبة الشخصية دائمة، بل انتابتها تقلبات باستمرار وكان عامل الزيادة هو الحالة العامة لها، حيث تم تحديدها بمرسوم 18 ديسمبر 1905 ب 3.5 فرنك سنويا للشخص الواحد، ثم ارتفعت في يناير 1923 إلى 11 فرنك، لتصل سنة 1938 إلى 21 فرنك¹.

ولإعطاء فكرة حول تطور قيمة هذه الضريبة بالنسبة للفرد (من 1905-

1936) نحيل إلى مراجعة الجدول التالي لوضع تصور حول تطورها²:

السنوات	905	918	1921	1928	1929	1932	1936
القيمة	3 فرنك	6 فرنك	12 فرنك	11 فرنك	15 فرنك	13.5 فرنك	17.5 فرنك

نلاحظ من خلال الجدول أن قيمة هذه الضريبة ظلت في تزايد بشكل عام إذا ما استثنينا سنة 1928 التي تراجعت عن سنة 1921، إلا أن هذه الحالة لا يعد بها فسرعان ما قفزت في السنة الموالية إلى 15 فرنك غرب إفريقيا. كما نلاحظ أيضا أنها لم تؤخذ بعين الاعتبار السنوات العجاف، فمثلا شكلت سنة 1921 مرحلة عصيبة على السكان بسبب النقص الحاد في كمية الأمطار، ومع ذلك فإن الإدارة الفرنسية لم تسع إلى تخفيض الضريبة، ونفس الشيء ينطبق على سنة 1929 التي كانت بها أزمة عالمية امتدت إلى شعوب شمال وغرب إفريقيا، وكان المتضرر الفعلي من هذه الأزمات والضرائب الباهظة هم الطبقة الضعيفة في المجتمع.

¹ - ابن الشريف أحمد، مرجع سبق ذكره، ص: 74.

² - محمد الرازي بن صدفن، مرجع سبق ذكره، ص: 103.

لم تكن هذه الضرائب السالف تبيانها، هي وحدها التي فرضتها الإدارة الفرنسية على الساكنة المحلية، وأثقلت به كاهلها، بل وجدت إلى جانبها ضرائب أخرى خاصة، فمثلا فرضت فرنسا على كل من اقتنى سلاحا أن يدفع "ضريبة السلاح" وهي غرامة سنوية عن كل قطعة سلاح، وأي تأخر عن الدفع يعرض صاحبه للسجن سنة وغرامة مالية، وتجريده من السلاح وقد بلغت خلال سنة 1945 فقط، ما قيمته 64880 فرنك موزعة كما يلي¹:

تكانت	280 فرنك
الترارزة	8720 فرنك
لبركنة	2511 فرنك
العصابة	23340 فرنك
غورغول	30940 فرنك

وإلى جانب ذلك وجدت ضريبة "المهنة" – المفروضة على كل الموريتانيين والأجانب الموجودين في البلاد، والذين يزاولون عملا مهنيا – كما فرضت الإدارة الفرنسية أيضا ضريبة خاصة بماشية الزوج، وضريبة العمل اليدوي، وضريبة العشور، وهذه الأخيرة خاصة بالمحاصيل الزراعية، حيث فرض على المزارع إخراج 10/1 من محصوله للسلطات الاستعمارية، وكل تلكأ أو مماطلة أو تهرب عادة ما يعرض صاحبه إما للسجن، أو التعزيم، أو التوبيخ مع الدفع في أحسن الأحوال.

بيد أن هذه الضرائب على كثرتها وتنوعها لم تقدم الإدارة الاستعمارية مقابلها خدمات تزيد من رفاهية المجتمع، وإنما كانت تُسخر للمصالح الفرنسية، وبالتالي فإن الساكنة تضررت بفعل كثرة هذه الضرائب وزاد من تعميق ذلك الضرر حسب وجهة نظرنا ثلاثة أمور:

¹ - محمد الراطي بن صدفن: مرجع سبق ذكره، ص:132.

- أولهم: متعلق بالذين وكتهم الإدارة الفرنسية جمع هذه الضرائب، فقد أسندت فرنسا تحصيل الضرائب لرؤساء القبائل والأفخاذ نظرا لطبيعة البلاد المترامية الأطراف، وكون أكثر من ثلثي المجتمع بدو رحل، غير أن هؤلاء الوساط كثيرا ما كانوا يقومون بتجاوزات إحصائية، حيث يفرضون على خصومهم وعلى من لا يتفق معهم في الطرح السياسي، ضرائب مجحفة، ويكون بالتالي هذا الشخص مرغم على دفع المبالغ المطلوبة منه، لأن الإدارة الاستعمارية جعلت ثقتها الكاملة في وسطائها، ولم تكلف نفسها حق المتابعة والتدقيق.

- ثانيهم: أن الإدارة الفرنسية عندما فرضت الضرائب على السكان لم تراعي سنوات الجفاف التي أفقدت المنمين مواشيتهم، والمزارعين محاصيلهم، بل على العكس من ذلك ظلت الضرائب في تزايد مستمر، وهذا ما أرغم البعض على بيع مزرعته، أو رؤوس ماشيته - مع أنه في أمس الحاجة إليهم - من أجل أن تسديد الضرائب عنه وعن عياله، درءا لمفسدة قد تنجم عن عدم الدفع.

- ثالثهم: أن هذه الضرائب أدخلت المجتمع في علاقات جديدة ونمط عيش جديد يعتمد على النقد، فبعد أن كانت حياة السكان تعتمد على ما تنتجه البيئة المحلية، أصبح من خلال هذه الضرائب التي أوجبت عليه التعامل بالنقد، مرتبط باقتصاد السوق، وهو انتقال سريع وخطير، تولدت عنه زعزعة لبنية الاقتصاد المحلي الهش أصلا.

وعلى الرغم من بساطة الأنشطة التي كان يشتغل بها السكان قبل مجيء الفرنسيين (فلاحة، رعي، مقايضة، عمل يدوي...) فإنها وفرت لهم اكتفاء ذاتيا محليا، ولم يحتاجوا أو يتعرفوا على البضاعة الأوروبية (سلاح، قماش، "النيلة"، أواني، عطور، شاي، تبغ...) إلا عن طريق الفرنسيين، ومع بداية الوجود الفرنسي في البلاد، بدأت الأنشطة الاقتصادية التقليدية تضحل نتيجة هجر بعض السكان لها

بسبب الضرائب الباهظة، أو بسبب سياسة التصدير والاستنزاف التي استعملتها الإدارة الاستعمارية.

ويمكننا القول إن التصدير الكبير للحيوانات والمنتجات الزراعية الموريتانية إلى مركز الإدارة الاستعمارية في غرب إفريقيا (السنغال)، أدى إلى تدمير الاقتصاد التقليدي، وتخبطه في أزمت مستمرة، ومن جهة أخرى أدى الإيراد المتزايد للبضائع الأوروبية، إلى اتساع دائرة حاجيات السكان، وزيادة اهتمامهم بهذه المواد الجديدة، إلى حد صار معه المنمي والمزارع، مستعدان لأن يبيعا بعضا من إنتاجهما أو كله للحصول على هذه البضائع الجديدة، وهو ما فتح الباب أمام مبادلات تجارية بين المجتمع المحلي والأوروبيون المتمركزون في السنغال.

ب. المبادلات التجارية:

كما سبق وأن ألمحنا فإن المنتجات الموريتانية التي كانت تخضع لعملية التصدير هي في الغالب حيوانات أو منتجات الزراعة، يحصل مقابلها البائع على بعض المواد والمنتجات الأوروبية، التي يبدو أن اهتمام الموريتانيين بها آنذاك ظل في ازدياد مضطرد، وإن كان ذلك شكل ولفترة غير يسيرة الغرض الأساسي من تصدير تلك المواد إلى خارج المستعمرة، ومع مرور الوقت أصبح الهدف الأساسي من عملية التصدير الحصول على النقد، خصوصا بعد اشتراط الإدارة الفرنسية لدفع الضرائب أن يكون نقدا.

1- المواد المصدرة:

شكلت مادة الصمغ "العلك" لفترة طويلة من تاريخ العلاقات البيضاوية – الفرنسية، أهم مادة محلية مصدرة نحو الخارج، فقد كانت هذه الأخيرة بحاجة ماسة إلى هذه المادة – الغالية نسبيا حينها – لتحريك عجلة صناعة النسيج والصيدلة، إلا أنه مع انخفاض الطلب على العلك، وظهور بدائل عنه أكثر إغراءا "زراعة الفول السوداني" تحتّم على الإدارة الفرنسية البحث عن موارد أخرى تتعامل من خلالها

مع السكان وتجرحهم بها إلى السوق، وكان من بين تلك المواد الثروة الحيوانية، وبدرجة أقل المنتوجات الزراعية ثم الملح والجلود...

ونظرا لتغيير السياسة الفرنسية في المنطقة مع بداية القرن العشرين، واتجاهها نحو زراعة الفول السوداني على مساحات واسعة من مملكة والو سابقا، وبعض المناطق في السنغال والسودان الغربي (مالي)، ونظرا كذلك لحاجة عمال هذه المزارع إلى اللحوم، فإن الإدارة الفرنسية سعت إلى خلق أرضية مناسبة لتنظيم سوق خاصة ببيع الحيوانات، وفي هذا الإطار اعتبرت موريتانيا أهم مصدر للحيوانات إلى الأسواق التي فتحتها المستعمر لهذا الغرض.

ولا تتعرض المصادر والمراجع التي بين أيدينا لعملية بيع هذه الحيوانات وأعدادها خلال السنوات الأولى من الاحتلال، ونفترض أن ذلك راجع إلى عدم تنظيم هذه التجارة في ذلك الوقت، فقد كانت الإدارة الفرنسية مشغولة بردع المقاومة، وتتبع آثارها، وكانت المقاومة أيضا في نفس الوقت تقوم بعمليات هجوم على الممتلكات الفرنسية، وخاصة فصائل "الجمالة" التي كان الجيش الفرنسي يتخذها كوسيلة لملاحقة الخارجين عليه، لذلك فإن انعدام الأمن خلال السنوات الأولى من الاحتلال حال دون تنظيم أسواق تصدير وبيع الحيوانات، أما وقد تم القضاء على آخر جيوب المقاومة في آدرار سنة 1934، فإن فرنسا جعلت من بين أولوياتها تنظيم أسواق للماشية يتم من خلالها التصدير إلى باقي مستعمراتها خصوصا السنغال مصدر الإدارة الفرنسية، والسودان الغربي (مالي).

كانت الإدارة الفرنسية في بعض الأحيان، تطلب أعدادا من الحيوانات – لتستعملها في حمل البضائع أو في تنقلات جنودها بين المناطق – من رؤساء الدوائر، ويتم جمع هذه الحيوانات من القبائل، ومن ذلك طلب الإدارة الفرنسية من والي آدرار إرسال 1500 جمل سنويا، ليتم استعمالها في تسهيل أعمال الإدارة، وهو

ما اعترف الوالي الفرنسي بأنه عدد كبير قد يعمق المجاعة التي تشهدها منطقة آدرار آنذاك¹.

وهكذا يظهر لنا أن الإدارة الفرنسية كانت تجبر القبائل على توفير وسائل النقل المتمثلة أساسا في الجمل، الذي يستعمل لنقل تجهيزات الجنود، ونقل الإداريين، وملاحقة المتمردين داخل الصحراء، وبالتالي فإن مستعمرة موريتانيا مطالبة سنويا بتوفير 8000 جمل للنقل الداخلي، وأكثر من 1100 للربط بين المستعمرات الفرنسية خصوصا السنغال ومالي².

ولإعطاء نظرة عن الاستنزاف الذي استعملته الإدارة الفرنسية للثروة الحيوانية فإنه يكفي أن نلقي نظرة على أعداد حيوانات دائرة العصابة³ وعدد المبيعات منها، فقد بلغ العدد الإجمالي لحيوانات هذه الدائرة عام 1919 ما يقارب 360.050 رأس، في حين بلغ مجموع الصادرات 48.570 رأس، موزعة كالتالي:

الإغنام: 45000، الأبقار: 1580، الإبل: 1000، الحمير: 1000⁴.

وهذا عدد كبير، خصوصا إذا ما علمنا أن هناك أعداد كبيرة كان يتم نقلها وبيعها بدون أن تمر على الأسواق الفرنسية التي يتم إحصاء الكميات القادمة إليها، وعليه فإن الأسواق الفرنسية في السنغال ومالي، مثلت مركز استقطاب لثروة موريتانيا الحيوانية، وهو ما أدى بدوره في تدمير هذه الثروة نتيجة لعمليات البيع الغير ممنهجة، وحاجة المنمي المتزايدة للنقد والمواد الأوروبية، مما اضطره إلى بيع جزء من اقتصاده للحصول على هذه الأشياء.

¹ - امهادي بن جعدان، مرجع سبق ذكره، ص: 170.

² - نور الدين الشريدي، مرجع سبق ذكره ص: 315

³ - منطقة الوسط من موريتانيا، وهي الآن ولاية العصابة وعاصمة كيفة.

⁴ - محمد الراضي ولد صدفن، مرجع سبق ذكره، ص: 139.

عرفت سنة 1921 نقصا حادا لأعداد الحيوانات في عموم البلاد نظرا للجفاف وانحباس الأمطار، والإقبال المستمر على بيعها في الأسواق الخارجية، بينما ستعرف سنة 1923 انتعاشا جديدا حيث تم تسويق الأعداد التالية إلى السنغال¹:

- الأغنام: 27.172

- الأبقار: 1739

- الحمير: 839

وخلال السنوات الأولى من ثلاثينيات القرن الماضي كانت البلاد تعيش على وقع تأثيرات الأزمة العالمية، وهو ما أدى إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية للسكان، وأوجد حاجة لدى القوم، لجلب مواشيم خارج البلاد من أجل تعويض النقص الغذائي، واقتناء المواد الضرورية، غير أنه في الجهة المقابلة كانت العملة تشهد تراجعا كبيرا، كان من نتائجه ركود بضاعة الموريتانيين المتمثلة أساسا في "الحيوانات" وانخفاض أسعارها، ولإعطاء صورة عن الأعداد الكبيرة التي تمت تصديرها نورد الجدول التالي²:

السنوات	الحيوانات بالرووس			المواد بالكلغ					
	الأبقار	الإبل	الأغنام	الحمير	الخيول	العك	الملح	الزرع	الجلود
1936						211140		20.000000	
1937	965	118	40257	469		143877		20 مليون	
1938	230416	7648	1708408	7169	2000	1212427	6 مليون		800000

يوضح لنا الجدول السابق صادرات البلاد من الحيوانات والمواد الأخرى، إلى السوق الفرنسية في السنغال خلال ثلاث سنوات متتالية 1936، و1937،

¹ - المرجع السابق، ص: 140.

² - امهادي ولد جفدان، مرجع سبق ذكره، ص: 174 نقلا عن: P.Dubie

و1938، ومع تسليمنا مسبقا بصحة المعلومات الواردة في الجدول، إلا أن بعضها مثير للشك، فمثلا كمية الزرع المصدر خلال عام 1936 و1937 تعتبر رقما كبيرا جدا، وربما فيه نوع من المبالغة، وذلك لعدة اعتبارات:

- أن البلاد بها مناطق واسعة صحراوية المناخ، وشبه صحراوية، ربما تزيد على ثلثي مساحتها، وبالتالي فإن مثل هذا الرقم يحتاج إلى أراضي زراعية كبيرة، قد لا يتوفر لها المناخ المناسب في موريتانيا، إذا ما استثنينا المناطق الجنوبية، أو بعض المناطق الشرقية والشمالية تحت النخيل.

- أن أسلوب الإنتاج الزراعي آنذاك في البلاد، لا يزال بدائيا وتقليديا في أغلبه، ولم يطلع بعد على المحسنات التي تزيد من عملية الإنتاج (الأسمدة، آلات الحرث والري الحديثة).

- أن رقم عشرين مليون، مصدر فقط للسنغال، وهذا يعني أن هناك كميات قد لا تقل عن هذا الرقم، موجهة للمشتري الداخلي، وموجهة كذلك للأسواق "مالي"، كما أن هذا الرقم هو الذي أحصته الإدارة، وما لم تحصه الإدارة من خلال التجارة المهربة لا يندرج تحت هذا العدد، وعليه فإننا عندما نجمع ما تم تصديره خلال سنتي 1936-1937 موجه إلى "مالي"، وآخر للأسواق المحلية، فإننا سنكون أمام أرقام تقدر بعشرات الملايين من الحبوب التي انتجتها البلاد آنذاك.

بيد أنه من الأهمية بمكان أن نلقي نظرة على قيمة هذه الصادرات مقابل "فرنك" حتى ندرك قيمتها، وإن كانت المصادر متباينة في ذكر قيمة الصادرات مقابل عملة "فرنك" وعموما فإن سعر الحيوانات بلغ خلال عام 1922 ما يلي¹:

الخيل	1000 فرنك للرأس الواحد
الأبقار	100 فرنك للرأس

¹ - محمد الرازي بن صدفن، مرجع سبق ذكره، ص: 143.

الغنم	15 فرنك للرأس
الحمير	150 فرنك للرأس

وستنخفض هذه الأسعار مع بداية الثلاثينيات نتيجة للأزمة العالمية، وانخفاض قيمة "فرنك" وتكدس المواشي في الأسواق، وقلة الطلب عليها، غير أن سنة 1938 ستشهد ارتفاعا في قيمة صادرات البلاد إلى الأسواق الفرنسية فقد بلغ ثمن الجمل الواحد 1000 فرنك، والبقر 350 والحمير 200.¹

أما المواد الأخرى المصدرة التي كان في مقدمتها الصمغ "العلك"² والملح والحبوب، وغيرها، فقد اختلفت من حيث الأهمية والجودة والقيمة الاقتصادية في الأسواق الفرنسية، ونظرا لكون البلاد تتوفر على كميات كبيرة من شجر القتاد³، ونظرا للطبيعة المناخية الملائمة لنمو هذه الأشجار، فإن نوعية الصمغ التي تستخرج من موريتانيا، كانت جيدة إذا ما قورنت بالمناطق المجاورة، لذا فإن السوق الفرنسية كانت تستقطب كميات معتبرة من الصمغ ولا يفوتنا أن نذكر بأن هذه المادة قد فقدت قيمتها الاقتصادية كأهم مادة تنتجها البلاد إلى مادة ثانوية، ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويزودنا De chassey بفكرة حول سعر الصمغ خلال نهاية الثلاثينيات، حيث بلغ حوالي 4 فرنك للكيلوغرام الواحد، في حين بلغ سعر الملح 1.7 فرنك للكيلغ.⁴

وتعتبر أسعار (العلك، الملح) مدرة، إذا ما قورنت بالمجهودات التي تنفق عليها، صحيح أنها تحتاج إلى مجهود عضلي، وأن مصدرها قريب من أماكن التصدير (النهر) إذا ما استثنينا الملح الذي يستخرج من سبخة الجل⁵ وهي بعيدة

¹ - امهادي ولد جعدان، مرجع سبق ذكره، ص: 183.
² - كنا قد فصلنا القول في أهميته التي أفرزت حروبا بين الدول الأوروبية عرفت بحروب الصمغ، راجع الفصول السابقة.
³ - الأشجار التي يستخرج منها الصمغ.
⁴ - دي شاسي، مصدر سبق ذكره، ص: 82.
⁵ - تقع في شمال البلاد.

نسبياً، غير أنه في المقابل، لا تحتاج هذه المواد إلى رعاية ومراقبة مثل ما هو حاصل في صادرات البلاد الأخرى (حيوانات، مواد زراعية...).

وخلال الحرب العالمية الثانية هزت البلاد أزمة اقتصادية قوية، أثرت على الاقتصاد التقليدي، ونظراً لانقطاع التمويل، وتتابع سنوات الجفاف (1941 إلى 1943) وفرض الإدارة الفرنسية على كل فخذ من القبيلة أن يدفع 55 جملاً للنقل الإداري، فإن هذه الأمور مجتمعة أثرت على الاقتصاد التقليدي بشكل عام والثروة الحيوانية بشكل خاص¹.

وكانت الإدارة الاستعمارية - كما بينا - تجبر سكان موريتانيا سنوياً على تقديم 8000 جمل للنقل الداخلي، و1100 للنقل الخارجي، وهي أعداد أنهكت الاقتصاد وساهمت - بدون شك - في بطء التنمية المحلية للسكان، وموازية مع هذه الوضعية ونتيجة لها، ازدادت كلفة الحياة المعيشية بشكل ملحوظ، ويبين لنا الجدول التالي الارتفاع الحاصل في الأسعار خلال تلك الفترة²:

النوع	سنة 1940	سنة 1943
الإبل	120 فرنك	450 فرنك
النعم	30 فرنك	150 فرنك
قطع القماش	50 فرنك	500 فرنك
كلوغرام السكر	5 فرنك	100 فرنك
كأس الشاي	2.5	50 فرنك ³

لقد تميزت فترة الثلاثينيات وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، بسوء وضعية المنمين وضعف مستواهم المعيشي، وارتفاع نسبة الوفيات بين صفوفهم، ونزوح

¹ - مريم بنت محمد الأمين، مرجع سبق ذكره، ص: 56.

² - نفس المرجع، ص: 57.

³ - نظراً لغلاء الشاي آنذاك، فإن وحدته في الغالب كانت الكأس، وليست الكلغ.

الكثير منهم إلى المناطق الجنوبية، أو خارج البلاد (السنغال، غامبيا، مالي) بحثا عن العمل بالراتب الذي حل محل الإنتاج التقليدي.

ولم تكن وضعية القطاع الزراعي أحسن حالا من سابقه، فقد تأثر المزارع من سنوات الجفاف، والأزمات الاقتصادية، وارتفاع ضريبة "العشور" مما اضطر بعض المشتغلين بهذه المهنة إلى هجرها، والبحث عن فرص أخرى مدرة للدخل لعلها تلبي حاجياته المتزايدة على المواد المستوردة.

2- المواد المستوردة:

شيئا فشيئا حصلت علاقة وطيدة بين السكان والمواد الأوروبية المستوردة، حتى صارت بعض هذه المواد تدخل في صميم حاجيات المواطنين الأساسية التي لا يمكن الاستغناء عنها.

وتعتبر الحبوب من أهم المواد المستوردة من الخارج، خصوصا من السوق الفرنسية في السنغال، وهي (الأرز، الذرة البيضاء، والشعير، ومسحوق القمح " La Farine" والفتق...) غير أن هذه المواد لم تكن تشهد إقبالا كبيرا على شرائها إلا في فترات الأزمات الاقتصادية والكوارث الطبيعية (الجراد، فيضانات، قلة الأمطار...).

وما يؤكد لنا ما ذهبنا إليه هو أن سنة 1941 شهدت البلاد فيها جفافا حادا، وانحباس مطري طويل، مما نجم عنه تناقص كبير في المنتج الزراعي، وهو ما أرغم دائرة البراكنة استيراد ما يزيد على 57400 كغ من الحبوب، ولا يبدو الرقم كبيرا نظرا للأزمة القاسية التي شهدتها لبراكنة خلال تلك الفترة، مع العلم أن 24600 كغ من الرقم السابق من الفتق و 15000 من الأرز¹.

¹ - امهادي ولد جفدان، مرجع سبق ذكره، ص: 205.

وعموما ستعرف البلاد خلال السنوات الأولى من أربعينيات القرن الماضي نقصا حادا في المواد الغذائية حيث أوقفت الإدارة الاستعمارية - نتيجة الحرب العالمية الثانية - إمداد مستعمراتها بالمواد الأساسية، وهو ما أثر سلبا على الأوضاع المعيشية لسكان غرب إفريقيا عموما، وموريتانيا بشكل خاص التي كانت تعاني أصلا من أزمة جفاف حادة صاحبته موجات من الجراد، وقلة في الأمطار خلال سنوات (1940 إلى 1943)¹

ومن بين المواد المستوردة كذلك "الأقمشة"، وتتمثل غالبا في قماش النيل²، والخنط الأبيض³، وماليكان⁴، ويبدو أن هذه الملابس دخلت محل الجلود التي كان يستعملها السكان كلباس خصوصا في فترات المجاعات أو الأزمات الاقتصادية، أو الكوارث الطبيعية، كما حصل خلال سنة 1927 و 1940.

ولم يكن الشاي والسكر والتبغ بمنأى عن المواد المستوردة من الخارج، بل كانت في صدارتها، فمنذ مجيء الأوروبيين إلى سواحل الأطلسي، بدأ السكان المحليون يتعرفون على الشاي، والسكر، والقهوة، والتبغ، غير أن بداية القرن التاسع عشر عرفت تغلغل لهذه البضائع داخل المجتمع، حتى صارت في بعض الأحيان من أساسيات الحياة.

حرصت الإدارة الفرنسية على توفير الأجواء المناسبة لازدهار تجارة المواد المصدرة والأخرى المستوردة، في جو يخدم المصالح الفرنسية، والدور التجارية المتمركزة في سان لوي⁵، من خلال ربط الأهالي بالتجارة الرأسمالية الأوروبية،

1 - محمد الرازي بن صدفن، مرجع سبق ذكره، ص: 172.

2 - لباس يستعمله النساء، راجع الفصل الثاني من هذا العمل.

3 - لباس خاص بالرجال.

4 - أحيانا يستعمله الرجال كلباس، أو عمامات، وأحيانا يستعمله النساء بدلا من "النيلة".

5 - من أهم الدور التجارية التي كانت لها روابط تجارية في موريتانيا،: دار "لاكومبا إخوان La combe Freres" وقد كانت تحتكر نقل المسافرين بين روصو وأطار، وكذلك دار "مورل ابروم Mourel Prom" في العصابة.

حيث أصبحوا يستهلكون ما لا ينتجون، وينتجون ما لا يستهلكون، مما اضطرهم إلى الدخول في عملية البيع والشراء مع الأطراف الخارجية، عن طريق بيع جزء من اقتصادهم (حيوانات، منتوجات زراعية...) للحصول على مواد أخرى (شاي، سكر، تبغ، أواني، أسلحة...) أصبحت مع الزمن من الحاجات الأساسية للفرد.

لقد قررت وزارة المستعمرات وهي تضع أوراق مشروع احتلال موريتانيا، بأن تكون تابعة لمجموعة إفريقيا الغربية الفرنسية¹، نظرا لعدة اعتبارات - كنا قد بينا أغلبها - وأرادت أن تكون أداتها في ذلك اللغة والثقافة الفرنسية، فهذه الأخيرة لها تأثيرها الذي لا تستطيع القوة العسكرية أو الاقتصادية القيام به.

ثالثا: تثبيت الوجود الفرنسي من خلال هيمنة الثقافة الفرنسية

حاولت فرنسا من خلال سياستها الثقافية طمس الهوية الثقافية للبلد ومحو كل ما من شأنه أن يرجع السكان إلى ماضيهم وأمجادهم العتيقة، فقد عُرف الشناقطة بتبحرهم في علوم اللغة والشريعة، وكانت "المحطرة"² رباط علم، وقلعة حصينة ضد الثقافة الفرنسية الوافدة.

وما من شك أن السياسة التعليمية للمستعمر الفرنسي كانت أداة للهيمنة على المجتمع، ولهذا سعى الاستعمار من خلال المدرسة، إلى القضاء على القيم والنظم

¹ - أرادت السياسة الفرنسية من خلال إلحاق موريتانيا بمجموعة غرب إفريقيا الفرنسية، قطع صلاتها التاريخية والحضارية والاجتماعية مع شمال إفريقيا، وذلك من خلال تشابك النظم الإدارية والاقتصادية بين هذه المجموعة وموريتانيا.

² - مؤسسة تربوية تعليمية اطلع بها أهل البلاد، ووصل إشعاعها العلمي إلى دول جنوب الصحراء، واسم "محطرة" مشتق من فعل حظر أي منع بوسيلة مادية أو معنوية، فهي مادية من الحظيرة التي كثيرا ما كانت تحيط بخيمة شيخ المحطرة، ومعنوية قد يكون الاشتقاق متأت من فعل الحظر الذي يمارسه الشيخ على طلابه بمنعهم من الاختلاط بالناس من أجل التفرغ للعلم، وعموما فقد وقفت المحطرة مواقف بطولية في وجه الاستعمار الذي حاول بكل الوسائل أن يمحو أثرها وتأثيرها على المجتمع، للمزيد راجع:
- الخليل النحوي: المنارة والرباط، مرجع سبق ذكره، ويعتبر هذا الكتاب (641 صفحة) من أحسن ما اطلعنا عليه حتى الآن حول "المحطرة"، ص: 48 وما بعدها.

- المختار بن حامد: حياة موريتانيا (الحياة الثقافية) الدار العربية للكتاب، تونس 1990 ص: 197 وما بعدها.
- محمد الصوفي بن محمد الأمين: المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني، رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الملك سعود، 1985 ص: 20 وما بعدها.
- محمد بن محمد: المحطرة الموريتانية ودورها في غرب إفريقيا، مجلة البحوث والدراسات العربية، سنة: 2005 ص: 191 إلى ص: 219.

التقليدية المحلية وإحلال نظمه وقيمه محلها؛ وهذا ما عبر عنه الوالي الفرنسي على غرب إفريقيا حين قال: "إن سياستنا التربوية لا يمكن فصلها عن السياسة العامة التي نطبقها على الأهالي، بل هي التعبير الأدق عنها، وأحد أنماطها الفعالة"¹.

ومهما يكن من أمر فإن التعليم في موريتانيا، ارتبط بغايات وأهداف حضارية وسياسية فرنسية، ولم تعتن إدارة الاحتلال بتكوين وطنيين يفترض أن يقع على كاهلهم بناء مستقبل سكان المنطقة، وفي هذا الإطار كتب الوالي العام الفرنسي إلى وزير المستعمرات الفرنسية سنة 1924 رسالة يقول فيها:

"... إن انتشار المدرسة الفرنسية في غالبية أجزاء موريتانيا، ورغم الثمن الباهظ الذي يكلفه ذلك، يفرضه عملنا ونوايانا الحضارية، وبناء على هذا الاعتبار يصبح دور المدرسة السياسي، أهم من دورها التهذيبي أو على الأقل يصاحب السياسي التهذيبي..."².

وبعث خلفه ابريفي في العام الموالي 1925 رسالة إلى المسؤول الجهوي للتعليم في موريتانيا جاء فيها:

"... إن سياستنا في التهذيب (التعليم) لا يمكنها إلا أن ترتبط بسياستنا العامة في المستعمرات والتي لا يعدو التعليم أن يكون واحدا من أدواتها ومجالا من مجالات تحركها وإن كان هو أكثرها نجاعة وأهمية..."³.

ويبدو من خلال الاستشهادين السابقين اللذين ينتميان إلى نفس المرحلة، أن السياسة الفرنسية في مجال التعليم آنذاك لم تكن لها غايات نبيلة، من قبيل تثقيف السكان، وزيادة وعيهم الحضاري، وهو ما قد يسمح لنا بالقول إن السياسة التعليمية الفرنسية شهدت تغيرات في مرتكزاتها وأهدافها من فترة زمنية إلى أخرى، تبعا

¹ - محمد الرازي بن صدفن: المدرسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا ومجتمع البيضان، مجلة مصادر، العدد الثالث، نواكشوط، سنة 2002 ص: 105.

² - فرانسيس دي شاسيه: مصدر سبق ذكره، ص: 124.

³ - نفس المصدر، ص: 147.

للظروف السياسية المحلية، فمنذ قدوم الفرنسيون إلى البلاد وإلى غاية القضاء إلى جيوب المقاومة 1934، كان التعليم الفرنسي يهدف إلى إعادة تصنيع المجتمع - إن صح لنا هذا التعبير - على المقياس الفرنسي، بحيث يخدم فقط الأطماع والتوجهات السياسية الفرنسية.

غير أنه خلال الأربعينيات، سلاحظ أن أهدافا أخرى، يتم البوح بها من قبل الساسة الفرنسيين، تتجاوز مجرد المسخ الحضاري، إلى إعداد أجيال تستطيع تحمل بعض المسؤوليات، وتساعد على النهوض ببلادها. ففي الرسالة التي بعثت بها وزارة المستعمرات الفرنسية في باريس سنة 1944 إلى الوالي العام لإفريقيا الغربية الفرنسية ما يلي: "... إن أهداف التعليم الأساسية ينبغي أن تظل هي تكوين الوكلاء الإداريين الذين يضمنون تقدم البلاد الصحي ونموها الاقتصادي، وبصورة أشمل تطوير حياة الأهالي، لكن كل ذلك ينبغي أن ينسجم وانتشار استعمال اللغة الفرنسية، والتعريف والتعلق بفرنسا، مع الاحتفاظ لتلك الأهالي ببعض وفائها لأرضها وعاداتها بصورة تتماشى والتقدم الحضاري، تلك بصورة عامة هي أهداف التعليم..."¹.

فالتعليم إذن أداة سياسية فاعلة في خدمة الأهداف الاستعمارية، وهو إلى جانب ذلك وسيلة لتقريب الأهالي من الإدارة، قتل الوحشة الحاصل بينها جراء نظرة السكان للمستعمر على أنه وافد أجنبي "نصراني" جاء ليبدل الدين بدين جديد، ويعوث في الأرض فسادا، ومن هذا المنطلق فإن الهدف الأساسي للتعليم هو تحقيق الهيمنة السياسية والاقتصادية للاستعمار، ومضاعفة نفوذه وإحكام سلطته، ونشر لغته وأنماط تفكيره بين العامة.

تذرعت فرنسا عند احتلالها موريتانيا، برسالتها الحضارية التي يتعين إيصالها للشعوب المختلفة، فلا يمكن لفرنسا وهي صاحبة الرسالة الحضارية النبيلة - على رأي كبولاني - بأن تقف مكتوفة الأيدي وهي ترى شعوبا أقل تحضرا،

¹ - دي شاسيه: مصدر سابق، ص: 172.

تعيش تناحرات وانقسامات داخلية، ولا تمد لها يد المساعدة، والوسيلة الأهم لفهم الحضارة الفرنسية، هي اللغة والتعليم الفرنسي، وفي هذا المنحى يصف أحد الإداريين الفرنسيين أهمية اللغة الفرنسية في تدعيم الوجود الفرنسي بقوله:

"...إن تعليم لغتنا هي الوسيلة الأفضل لتدعيم نفوذنا لدى الشعوب التي نحتلها وجرهم إلى اعتناق أفكارنا الحضارية، فعن طريق نشر لغتنا نتمكن حقيقة من ممارسة هيمنة ذات فائدة وهو ما يمكننا في النهاية من إحراز تعاون مثمر مع الأشخاص الذين تنحصر مهمتنا في تعويدهم على أفكارنا وعاداتنا..."¹.

(أ) أهداف التعليم الفرنسي:

سعت الإدارة الاستعمارية إلى فرض هيمنتها من خلال استحداث طبقة مشبعة بالثقافة الفرنسية، ستتولى هذه الطبقة توصيل أوامر الإدارة إلى مختلف شرائح المجتمع، وعموما فإنه يمكننا تخليص السياسة التعليمية الفرنسية في الأهداف التالية:

- الفرنسية: ركز المستعمر على نشر اللغة الفرنسية بين صفوف السكان، وجعلها لغة التواصل ليس داخل الإدارة فقط، وإنما بين العامة، وإذا كان قد نجح في الشق الأول، وهو جعل اللغة الفرنسية لغة تواصل مع الإدارة، فإنه لم يوفق بشكل كامل في الجزء الثاني، وهو جعلها لغة تواصل بين الموريتانيين، وإن كنا نعترف بوجود طبقة عريضة أصبحت من الناطقين بالفرنسية، خصوصا في المناطق المحاذية للنهر، والملتصقين أكثر بالنفوذ الفرنسي في السنغال.

وأخذ نشر اللغة الفرنسية في المجتمع حيزا مهما من تفكير القادة السياسيين الفرنسيين، وأعطوا تعليماتهم بضرورة فرضها على أكثر عدد ممكن من الساكنة المحلية، ففي الرسالة التي خاطب بها الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية، حاكم موريتانيا، نجده يدعو فيها إلى أن تكون "الفرنسية مفروضة على أكبر عدد ممكن

¹ - محمد الراطي ولد صدفن: المدرسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا، مرجع سبق ذكره، ص 107

من الأهالي، وأن دراستها أصبحت إجبارية بالنسبة لكل من يطمح إلى زعامة مجموعة ما، ويجب علاوة على ذلك، أن نجد في كل قرية ومدينة بعيدة كانت أو قريبة من يتكلم بالفرنسية ليس فقط زعيمها، وإنما في صفوف مواطنيها... ويجب أن يتم ذلك بدون الوصول بهم إلى مستوى أكاديمي"¹.

لم تكن الإدارة الفرنسية تسعى - من خلال إجبارية التعليم - إلى الوصول برواد التعليم الفرنسي من الأهالي إلى مستوى أكاديمي، وإنما فقط ما يوصلهم إلى خدمة الإدارة الفرنسية ك مترجمين، وممرضين، ومعلمين... لأن حصول المواطنين على تعليم أكاديمي يمكنهم من معرفة ما تنشره الصحف والمجلات الفرنسية في باريس، وبالتالي حصول وعي وطني وقومي لدى الفئات المتعلمة قد يقودها إلى الثورة والتحرر.

- التحضر: يرتبط هذا الهدف ارتباطاً وثيقاً مع الهدف الأول، وإن كان أكثر بروزاً في السياسة الفرنسية على اعتبار أنه أكثر نبلاً، بل إن الاستعمار أخذه كذريعة لاحتلال البلاد، ففرنسا المتقدمة والمتحضرة يلزم عليها - حسب السياسة الفرنسية - "أخلاقياً" أن تقود الشعوب المتخلفة إلى التحضر والرفق والازدهار، ".. إن الظروف والسياق التاريخي قدرا أن تكون فرنسا المتحضرة في اتصال مع أجناس أقل منها تحضراً، بل هي في الدرجة الدنيا من الحضارة، وقد تحتم على فرنسا مسؤولية قيادتها نحو التحضر... إن مثلها كمثل الأم الحنون النابهة تهدي ابنها وهو في خطاه الأولى، تسير به بتوذه، دون أن تريد له أن يصل إلى مستواها هي، لأنه بذلك يقفز إلى مراحل طويلة، وقد يفقد بموجب ذلك سيره الطبيعي..."².

¹ - حد أمين بن إسلامو: التعليم في موريتانيا (1960-1990) بحث لنيل شهادة التعمق في البحث، قسم اللغة العربية، جامعة تونس الأولى 1992 ص: 19.

² - محمد الأمين سيدي أحمد محمد: مرجع سبق ذكره، ص: 19.

حاولت الإدارة الفرنسية تصوير ما تقوم به من احتلال الأرض ومسح فكر الإنسان – عن طريق الاحتلال العسكري، والثقافي، والاقتصادي الذي مارسه على السكان – على أنه عمل حضاري نبيل يسعى إلى إخراج الناس من ظلام التناحر والجهل، إلى ضياء التحضر والرقى، وعلى هذا الأساس فقد اتجه تعليم التاريخ والجغرافيا إلى البرهنة على أن فرنسا أمة غنية، وقوية قادرة على أن تصون هيبته، وفي نفس الوقت عظيمة لنبل أفكارها، ولم تكن أبداً قد تراجعت في السابق عن تقديم تضحيات مادية وبشرية لتحرير الشعوب المغلوبة على أمرها، أو من أجل استجلاب فوائد حضارية بالنسبة للشعوب المتوحشة¹ وقد أريد للتحضير أن يكون من خلال التعليم، وبالتالي أصبحت المدرسة إحدى قواعده الأساسية، وهذا ما بينه الحاكم العام لإفريقيا الغربية حين قال: "... إن حضارتنا عليها أن تتحني نوعاً ما حتى تتلاءم مع نمط من الحضارة شبه بدائي، لا لترجع الأولى إلى مستوى الثانية وتنتهي المسيرة، ولكن لتعود إليها لتريها الطريق الذي تسلك، وإن التعليم هو السبيل الوحيد لذلك، وكل أنواع التعليم تساعد في الوصول إلى درجة أعلى من التحضر إلا التعليم الصوفي..."².

ويبدو أن السلطة الفرنسية مقتنعة بوجود عدو لها في الداخل، ليس على الساحة العسكرية والسياسية فحسب بل وعلى الصعيد الثقافي "وكل أنواع التعليم تساعد في الوصول إلى درجة أعلى من التحضر إلا التعليم الصوفي"، فإذا كانت المجموعة الحسانية وبعض المجموعات الأخرى قد اختارت خط المواجهة العسكرية، فإن مجموعات أخرى اختارت المقاومة الثقافية عن طريق توعية الناس بمخاطر التعليم الفرنسي، ومخاطر التقرب من الإدارة، وهو ما جعل الوالي الفرنسي يعمم التصور حول مرجعية التعليم التصوفي، وهو في رأينا لا يقصد التصوف بحد

¹ - الخليل النحوي، المنارة والرباط، مرجع سبق ذكره، ص: 347.

² - دي شاسي: مصدر سبق ذكره، ص: 113.

ذاته¹، وإنما يقصد التعليم الأصلي "العتيق" أو الأهلي "المحاضر" كما يسميها السكان المحليون، فهذه المؤسسات الأهلية "المحاضر" عرفت بمعارضتها الشديدة للوجود الفرنسي وللمخططات الفرنسية بما في ذلك التعليم.

- إعداد الكوادر: اتجه التعليم في البلاد إلى إعداد كادر يتولى مساعدة الإدارة في تدبير شؤون السكان، حيث تكون هذه الأطر المكونة من طرف الإدارة الفرنسية واسطة بين الأخيرة والأهالي، وعليه فإن التركيز في عملية اختيار هذه المجموعة، كانت تخضع في الغالب لكثير من المعايير ويأتي في مقدمتها "الشرف المكتسب بالولادة" ذلك أن الاستعمار راعى كثيرا التراتبية الاجتماعية وطبيعة المجتمع، فلا بد في المترشح لشغل كراسي الدراسة، أن يكون إما ابن شيخ قبيلة، أو شيخ طريقة صوفية، أو ابن أمير في السابق.

ولكن مع ذلك فإن الإقبال على المدارس الفرنسية كان ضعيفا جدا، وهو ما جعل الإدارة تفرض على كل رئيس قبيلة أن يرسل أحد أبنائه إلى المدرسة، وكان معظم زعماء القبائل والمشايخ الدينيين يتهربون من هذا القرار، ويرسلون آخرين على اعتبار أنهم أبناءهم الأصليين، مع أن الإدارة الاستعمارية لم تدخر جهدا في إغراء الآباء والطلاب لجرهم إلى المدارس.

ومن ذلك المرسوم الذي صدر في 12 يونيو 1906 والقاضي بصرف منحة شهرية قدرها 300 فرنك لكل شيخ محظرة يأمر طلابه بتخصيص ساعتين لتعليم اللغة الفرنسية، ورغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها المحظرة ومشايخها جراء الأزمات الاقتصادية ومضايقة الإدارة الفرنسية، فإن أحد لم يتقدم للاستفادة من هذه المنحة التشجيعية، وبالتالي فإن المرسوم ولد ميتا².

¹ - للمزيد حول التصوف في البلاد راجع:

- تربة بنت عمار: التصوف في بلاد شنقيط، مرجعيته القرآنية ومناهجه التربوية خلال القرنين 18-19، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة السلطان مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 2013.

- عبد الله بن عبد الرحمن: التصوف وطرقه في موريتانيا، حوليات المدرسة العليا للتعليم، العدد الأول 1992 من صفحة 29 إلى 45.

² - الخليل النحوي، المنارة والرباط، مرجع سبق ذكره، ص: 345.

إن تجنب الإدارة الفرنسية للتصادم مع "مؤسسة المحظرة" واكتفائها بالتعامل معها في بعض الأحيان، ومحاولة كسب ود مشايخها عن طريق الهدايا وتسهيل عملية حجهم، على نفقة الدولة الفرنسية أحيانا أخرى، لا يوحى برضاها أو بقبولها كخيار يفرضه الواقع جنبا، إلى جنب التعليم الفرنسي الجديد، وإنما اتخذت السياسة الفرنسية طريقا آخر رأت أنه أسلم من الصدام مع هذه المؤسسة الدينية العريقة، يجعلها مع الوقت في قبضة الإدارة الفرنسية ومن تلك الطرق:

- محاولة كسب شيوخ وزعماء المحاضر، وتنفيذ بعض طلباتهم، لا على الشكل الذي يريد هؤلاء، وإنما على الوجه الذي يجعلهم يحترمون الوجود الفرنسي، يدافعون عنه ويقتنعون به¹.

- تنظيم العبادات والشعائر الدينية التي كانت تشرف عليهم "المحظرة" ومشايخها، تحت غطاء شبه رسمي من طرف الاستعمار، وبالتالي تتحول العبادات والشعائر من حيز يربط بين ممارسيه قواسم مشتركة، إلى معاني مفرغة من محتواها، لا تستطيع الصمود أمام الوجود الفرنسي وسياسته المحكمة.

- ربط السكان بالمدرسة الفرنسية ولفتهم عن "المحظرة" ومؤسسات التعليم العتيق، وذلك عن طريق إغداق الهدايا والمنح على مرتادي المدارس أثناء فترة الدراسة، وإعطائهم مناصب قيادية في المجتمع بعد التخرج، مما يجعل البعض تحت ضغط صعوبة الحياة، والبحث عن مصادر العيش يتجه إلى المدرسة وينفر من التعليم الأصلي أو "المحظرة".

- إصدار قرار يمنع إنشاء أي "محظرة" بدون ترخيص من والي موريتانيا، الذي يرفع الترخيص إلى الحاكم العام لإفريقيا الغربية الفرنسية

¹ - راجع ما كتبناه في الفصول الماضية حول المواقف الإيجابية من الاستعمار لبعض المشايخ والفقهاء.

للمصادقة عليه، وحين يقتضي الأمر يرفع إلى وزارة المستعمرات الفرنسية في باريس¹.

هذه جملة من العراقيل، التي وضعتها الإدارة الفرنسية في طريق المحظرة حتى تتحكم في طبيعة سيرها، وتوجهها إلى الوجهة التي تخدم مصالحها، فالفرنسيون مقتنعون بأن المقاومة المحلية نابعة في الأساس من هذه المؤسسة، فالحماس الديني الذي غذته هذه الأخيرة كان هو المسؤول عن مقتل القائد الاستعماري كبولاني – كما مر معنا – وهو المسؤول كذلك عن الحرب طويلة المدى ضد الوجود الفرنسي، والخسائر الكبيرة في صفوف الجيش الفرنسي، وكان للفتاوى التي أصدرتها "المحظرة" دورا مهما في دعم المقاومة، فهذه الفتاوى اقتنعت بها بعض المجموعات، ورأت فيها خدمة الدين والبلاد مع عدم انتمائها الفكري أو المنهجي لمن أصدر الفتوى، وإما فتاوى يقوم على تنفيذها من ينتمون إلى نفس المرجعية التي أصدرتها (طريقة صوفية مثلا) وبالتالي فإنهم يكونون أكثر اقتناعا بها وأكثر استعدادا لإتمامها، وتحملا لعواقبها، وقد اتخذ ذلك شكل مقاومة عسكرية عنيفة كما مر معنا، ومقاومة ثقافية متمثلة في هجر التعليم الفرنسي.

(ب) واقع التعليم الفرنسي:

أقامت الدولة الفرنسية عدة مدارس في البلاد وإن تفاوتت من ناحية فترة تأسيسها وطبيعة مناهجها والفئات المستهدفة من خلالها، فإنها كلها – أي المدارس – تأسست من أجل تدعيم النفوذ الفرنسي، وخلق كادر بشري يكون وسيطا بين الإدارة والسكان، وإيجاد مجتمع يتطبع بالثقافة الفرنسية، ويدين لهذه الأخيرة بالولاء والتبعية.

إن موريتانيا التي ظلت تدار سياسيا، واقتصاديا، وتعليميا، من مستعمرة السنغال، لم تعرف تطورا في نوعية التعليم ولا في نسبة الإقبال عليه، كما حصل في

¹ - حد امين بن إسلاموا: مرجع سبق ذكره، ص: 28.

المستعمرات فرنسا في غرب إفريقيا، ويرجع ذلك في الأساس – حسب اعتقادنا – إلى عدة أمور أهمها:

- أولاً: تأخر احتلال البلاد النهائي، فكما بينا فإن المقاومة لم تضع أسلحتها إلا في سنة 1934، وهي مرغمة تحت سياسة العصى الغليظة، والحديد والنار، التي استعملتها فرنسا ضدها، مما صعب من وجود مدارس وسياسة تعليمية محكمة، نظراً لتوجيه الجهود الفرنسية إلى تثبيت الأمن، والقضاء على جيوب المقاومة، فكانت بالتالي السياسة العسكرية والأمنية هي الشاغل الأول للإداريين الفرنسيين، ولم تنصرف إلى التعليم بشكل هام إلا بعد استتباب الأمن داخل البلاد.

- ثانياً: سياسة المقاومة والمقاطعة، التي انتهجها المجتمع، حيال التمدن الفرنسي، فقد كان غالبية السكان يرفضون إرسال أبنائهم إلى المدارس، ويتذرعون بأنها ستعمل على تغيير دينهم ومعتقداتهم، وبأن الأسلم الابتعاد منها، ونلاحظ أن الذين قدموا على المدارس الفرنسية خصوصاً أثناء طور نشأتها، معظمهم من الزنوج القاطنين في المناطق الجنوبية المحاذية للنفوذ الفرنسية في السنغال ومالي، أو أنهم من أبناء الطبقة السفلى في المجتمع¹، وإن وجد من الطبقات الأخرى، فسيكون من أبناء الشيوخ والزعماء التقليديون الذين حرصت الإدارة الفرنسية على تدريسهم – ولو عنوة² – حتى يكونوا واسطة بين السكان والإدارة.

ولهذه الأسباب وغيرها، كانت الإدارة الفرنسية مجبرة على وضع سياسة تعليمية على قواعد صلبة، تهدف في معظمها إلى التكيف مع خصوصية السكان

¹ - لا يخفى على الدارس للتاريخ الموريتاني أن المجتمع المحلي مجتمع تراتبي طبقي، يندر أن نجد في شخصاً كان من طبقة سفلى في المجتمع ثم بقدراته المكتسبة (فروسية، مال، علم...) إرتقى إلى طبقة أعلى، وإنما تظل القاعدة السائدة "الجاه بالولادة" يعني أن ابن السيد يبقى سيداً دائماً، وإن كان وزنه العلمي والمادي لا يخوله ذلك.
² - كنا قد ألمحنا في السابق أن بعض الزعماء التقليديون كانوا يرسلون بدل أبنائهم أبناء من الطبقات الأخرى ليرضوا بذلك الإدارة الفرنسية ويأمنوا غضبها.

الثقافية، والاجتماعية، من خلال إعطاء أهمية للتعاليم الدينية، واللغة العربية، داخل المدارس الفرنسية.

فكانت المدرسة تقدم إلى جانب التعليم الفرنسي، تعليماً عربياً إسلامياً¹، الغرض منه امتصاص غضب الناس، وتبديد مخاوفهم حيال المدارس الفرنسية، وتصويرها على أنها مؤسسة لا تختلف كثيراً عن "المحاضر" التي عهدتها السكان في كل حي من البلاد، وإن اختلفت فإنما تختلف فقط بكونها تقدم مواد إضافية باللغة الفرنسية.

غير أن غالبية السكان، لم تفتنع بهذا الطرح، واعتبرته "دسا للسم في العسل"، وانبرى بعض الفقهاء لكشف خطورة المدرسة الفرنسية، وتوعية الناس بضرورة مقاطعتها، ومن ذلك ما صرح به الفقيه محمد الأمين بن محمد مولود في أبياته الشعرية²:

جـاز تـعلم خـطوط الكـفره لـبـالغ عـند المـلاح البـرره
ومـنعوا إـسلام نـجله الأب لـكـافر يـبعثه فـي المـكتـب
بـأثمـه بـعد إذـا تنـصـرا عـلى الـذي أـعـطاه فـيما اشـتهـرا

¹ - كانت محاولة إدخال العربية إلى المدارس الفرنسية في بداية الأمر من خلال مدارس تقع في مدن لها صلة جغرافياً وبشرياً وإدارياً مع الموريتانيين، وذلك من أجل شد انتباه هؤلاء الأخيرين إلى المدرسة الفرنسية، وتمهيدا لتطبيق هذه التجربة في البلاد، فقد تم في سنة 1908 تحويل مدرسة سان لوي لأبناء الشيوخ إلى مدرسة تحمل الاسم العربي "مدرسة"، وتم افتتاح مدرستين مماثلتين في مدينتي جنة وتمبكتو داخل الأراضي المالية وكان المنهج الدراسي يحوي ما يلي:

- في الأدب والتاريخ: المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي، ديوان المتنبي، والأغاني لأبي فرج الأصفهاني، لامية العربي للشنفرى، لامية العجم للطغراني، مقامات الحريري، مروج الذهب للمسعودي، مقدمة ابن خلدون.

- في الفقه والحديث: رسالة أبي زيد القيرواني، صحيح البخاري، مختصر خليل، تحفة ابن عاصم.

- في النحو: مختصر ابن أجوم، لامية الأفعال، ألفية ابن مالك، الخرجية في العروض، راجع الخليل النحوي مرجع سبق ذكره، ص: 349.

وفي هذا النحو سار التعليم في موريتانيا في بداياته حيث كانت مدرسة أبي تلميت تقدم لطلابها 12 ساعة أسبوعياً من العربية (تفسير، حديث، فقه، توحيد) مقابل 13 ساعة للفرنسية، ولم يدم الأمر طويلاً حتى تم نقص ساعات العربية إلى 8 ساعات، وفي نفس الشيء ينطبق على مدرسة أطار التي تأسست 1936 وذلك بإعلان العربية لغة وحيدة بها واللغة الفرنسية اختيارية، وبعد سنتين تم إجبارية هذه الأخيرة، وفي سنة 1947 قامت الإدارة الفرنسية بتوحيد التعليم في موريتانيا مع التعليم في مستعمرات غرب إفريقيا، وعليه قلص وقت العربية إلى 6 ساعات محسوبة من الوقت المخصص للعمل اليدوي، الخليل النحوي المرجع السابق ص: 356.

² - الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص: 358 وسنورد هذه الأبيات في مناسبة لاحقة.

ذكر ذا العلامة الشوشاوي بحر المعارف الخضم الراوي

وعموما يمكننا القول إن التعليم الفرنسي في موريتانيا كان ينقسم إلى ثلاثة أصناف رئيسية:

- المدرسة :

رعت السلطات الفرنسية الخصوصية التي يتمتع بها الشعب الموريتاني المحافظ في أغلبه، فتحت تأثير المقاطعة الثقافية، التي استعملها السكان، ضد المدارس الفرنسية، عمدت الإدارة الاستعمارية إلى محاولة إرضاء أهل البلاد، أو تدجينهم¹، من خلال إدخال بعض مواد العربية في المناهج التدريسية، وحفاظا على تلميع صورة هذا النوع من التعليم "المدرسة" تمت المحافظة على نمط السكن، ونوعية الأكل وحتى عادات وأوقات شرب الشاي، كل هذا سعيا من الإدارة الاستعمارية إلى إقناع السكان بأن التعليم الفرنسي ليس المراد منه تغيير الأخلاق، والعادات، والدين، كما يزعم منتقدي فرنسا، وقد ظل هذا النوع من التعليم "المزدوج" الذي تدرس فيه ساعات من اللغة العربية إلى جانب اللغة الفرنسية مقصور على مجموعة من السكان (البيضان) وشريحة خاصة أيضا من "البيضان" وهم أبناء الطبقة العليا، في حين لم يسمح للفئات الأخرى (الحراطين، المطربين، الحدادين، الرعاة...) وكذلك الزوج، بإدخال أبنائهم في هذا النوع من المدارس².

وتعتبر مدرسة أبي تلميت³ إحدى نماذج "المدرسة" المخصصة لأبناء الأسر النبيلة، وأبناء الشيوخ، والزعماء القبليين، لذلك فإنها أخذت اسم (مدرسة أبناء

¹ - لم يلتبس على بعض السكان - وخاصة من ذوي المعرفة "سياسة الدخول من النافذة" التي مارستها الإدارة الفرنسية من خلال إدخال ساعات لتدريس العربية في المدارس - واعتبروا ذلك مرحلة تمهيدية يراد منها إطفاء جذوة المقاومة الثقافية، وسنورد بعض النصوص الشعرية والنثرية حول ذلك.

² - حد أمين بن إسمو: مرجع سبق ذكره، ص: 32.

³ - مدينة أبي تلميت الآن إحدى مقاطعات ولاية الترارزة، وتبعد 150 كلم من العاصمة نواكشوط.

الشيوخ)، وعند افتتاحها سنة 1914 كانت تضم 9 طلاب ينتمون كلهم إلى أسر ذات تأثير سياسي أو علمي في البلاد¹.

لذا فإننا قد لا نجانب الصواب إذا ما قلنا إن هذا النوع من المدارس الموجه في الأساس إلى مجموعة من "البيضان"، وهم أبناء الأستوكراطيتين (حسان، الزوايا) كان يهدف إلى كسب هذه المجموعات، وتهيئة أبنائها في المستقبل، لأخذ مواقعهم في إدارة المجتمع الأهلي، وضمان تواصل جيد بينهم والمستعمر الفرنسي.

ويمكننا القول إن القبول الذي حظيت به مدرسة أبي تلميت – وإن كان فاترا – من طرف المجتمع، شجع الإدارة الفرنسية، على فتح مدارس أخرى مشابهة لها، خصوصا بعد التحسينات التي طرأت على مدرسة أبي تلميت سنة 1930 مما عزز موقعها وزاد من شهرتها، فتم إنشاء مدرسة أطار²، مدرسة كيفة³، ابتداء من منتصف ثلاثينيات القرن العشرين.

بناء على مرسوم صادر من طرف الإدارة الفرنسية 13 يناير 1936 تم إنشاء مدرسة أطار، التي يتلقى الطلاب فيها تعليما عربيا، على غرار ما حصل في مدرسة أبي تلميت لأبناء الشيوخ، غير أن خصوصية مدرسة أطار، هي أن الفرنسية بها مادة اختيارية وليس إلزامية، فقد أعلن حاكم إقليم موريتانيا بأن تعليم الفرنسية في مدرسة أطار اختياري لمدة أربع سنوات⁴.

ونرجح أن السبب في ذلك يعود إلى كون مدينة أطار، شكلت مهد المقاومة العسكرية، وفيها ترعرت وقوي عودها، ومنها كذلك انطلقت أهم الهجمات على القوات الفرنسية إلى غاية سنتين قبل تأسيس مدرسة أطار، لذا فإن السكان كانوا

1 - محمد الراضي بن صدفن، المدرسة الفرنسية، مجلة مصادر، مرجع سبق ذكره، ص: 111.

2 - عاصمة أدرار في شمال البلاد.

3 - تقع في الوسط، وهي الآن عاصمة ولاية العصابة.

4 - الخليل النحوي، ص: 356.

حديثي عهد بعداوة فرنسا، ولديهم حساسية مفرطة اتجاه كل ما هو فرنسي، وبالتالي فإن المصلحة الفرنسية - في اعتقادنا - اقتضت التدرج في فرض التعليم.

وبالفعل أعطت هذه السياسة أكلها، حيث أصبح العديد من السكان يرسلون أبناءهم طواعية إلى المدرسة، وبذلك شهدت مدرسة أطار ارتفاعا في نسبة الإقبال عليها، فقد وصل عدد التلاميذ المكتتبين خلال السنة الدراسية 1938-1939 إلى 60 تلميذا، وارتفع ليصل 70 تلميذا خلال العام الدراسي الموالي 1939-1940 وكانت غالبيتهم من أبناء الشيوخ والزعماء المحليين¹.

أما مدرسة كيفه فإنها هي الأخرى تشابه مدرسة أبي تلميت ومدرسة أطار اللتان سبق الحديث عنهما، في كونها موجهة إلى أبناء النبلاء، وقد أنشئت هذه المدرسة بموجب مرسوم صادر في 10 سبتمبر 1939، في العام الموالي باشرت عملها واستقبالها للراغبين في الدراسة، حيث ارتفع عدد تلاميذها من 30 إلى 56 تلميذا بين سنتي 1943 إلى 1945 ليصل سنة 1947 إلى 60 طالبا².

ورغم النجاح الذي حظيت به هذه المدارس، وتمكنها من تلطف جو التوتر الحاصل بين السكان والتعليم الفرنسي، ورغم تخريجها كذلك لعدة دفعات باشرت العمل (كقضاة، ومترجمين، ومساعدى إدارة)، فإنه صدر قرار من الإدارة الفرنسية عام 1947 يقضي بتحويل هذه المدارس إلى مدارس جهوية مفتوحة أمام كل الطلاب الرغبين في متابعة دراستهم داخل المدارس الفرنسية.

- المدارس الجهوية :

تعتبر هذه المدارس أكثر انفتاحا من سابقتها، وذلك أنها مفتوحة أمام كل الرغبين في دخولها مهما كان لونهم أو عرقهم أو مرتبتهم الاجتماعية، وقد انتشرت المدارس الجهوية في معظم جهات البلاد رغم الإكراهات المناخية (مناطق

¹ - محمد الراطي بن صدفن، المدرسة الفرنسية، مجلة مصادر، مرجع سبق ذكره، ص: 113.
² - نفس المرجع السابق والصفحة.

صحراوية متوغلة في الداخل)، والإكراهات البشرية (رفض السكان للمدارس)، حتى صار عددها 87 من جملة 206 ورثتها موريتانيا عن الاستعمار غداة الاستقلال موزعة على الجهات كالاتي¹:

المدارس	الجهة
7 مدرسة	العصابة
15 مدرسة	الحوضين
12 مدرسة	الحوضين
25 مدرسة	الترارزة
14 مدرسة	كيهيدي
2 مدرسة	تكانت
8 مدرسة	ليراكنة
4 مدرسة	تيرس زمور
87	المجموع:

ولا نمتلك أرقاما مؤكدة حول أعداد الطلاب الذين درسوا في هذه المدارس، نظرا لتضارب الأرقام الواردة في المصادر والمراجع التي بين أيدينا، لذا فإننا سنكتفي بما أورده ابن إسلمو² نقلا عن مقال "جان كلود بلاشير" عن أعداد الطلاب خلال الفترة الممتدة من 1914 إلى الاستقلال 1960، مع اقتصاره فقط على 12 سنة من هذه الفترة:

السنة	عدد الطلاب
1914	100

¹ - حد أمين بن إسلمو، مرجع سبق ذكره، ص: 38.

² - حد أمين بن إسلمو: مرجع سبق ذكره ص: 40

934	1931
590	1938
1410	1946
1860	1949
2000	1950
2600	1953
3637	1954
4543	1955
5750	1956
6822	1958
8618	1960

يتضح لنا من خلال الجدول السابق أن التعليم كان متدنياً، ونسبة الإقبال عليه خفيفة قبل 1946، أما بعد هذه السنة، فإن الإقبال عليه شهد ارتفاعاً معتبراً، لذا فإنه يمكننا أن نقول إن هذا التاريخ (1946) هو التاريخ الذي بدأ فيه التعليم بشكل فعلي، ولا ننسى كذلك – كما بينا – أن السنة التي بعدها (1947) قد شهدت تغيير كبير في السياسة التعليمية في البلاد، أصبحت بموجبها هذه الأخير لتخضع نفس الهيكلة التنظيمية والمناهج المعمول بها في إفريقيا الغربية الفرنسية.

وبحكم طبيعة السكان البدوية، المتعودة على الترحال خلف قطعانها، بحثاً عن المراعي، فإن المدرسة الحضرية لم تكن تتلاءم مع مجتمع ثلثيه بدو رحل، فكثير ما هجر تلاميذ متفوقون مدارسهم، بسبب أن عائلاتهم غادرت إلى مكان آخر، بحثاً عن مواطن الكلاً لقطعانهم، وبالتالي فإن الإدارة سعيها منها لترسيخ ثقافتها ونشر لغتها بين صفوف السكان، قامت بإنشاء نوع آخر من المدارس – إلى جانب المدارس الأولى التي ذكرنا – أكثر التصاقاً بالسكان، وتكيفاً مع نمط حياتهم.

- المدارس البدوية:

تعود فكرة تأسيس هذا النوع من المدارس المتنقل، إلى الاهتمام الكبير الذي أولته الإدارة الفرنسية للتعليم، فقد أحست من خلال تجربتها مع مدارس أبناء الشيوخ، والمدارس الحضرية، أن غالبية السكان لا تعطي اهتماما كبيرا للتعليم الفرنسي إذا ما تعرض مع طبيعة معاشهم المنبني في الأساس على الترحال خلف قطعان الماشية، وعليه فإن الاستعمار، فرض وجود مدارس داخل الحي تنتقل بتنقله، وتستقر باستقراره.

والحقيقة أن المدارس البدوية رغم المزايا التي قدمتها، وتوافقها مع البنية الاجتماعية والظروف المعيشية للسكان، إلا أنها ظلت تتعرض لعوامل الهدم والتشويه التي مارسها عليها المؤسسة الدينية، وظل التسرب المدرسي هو الحالة العادية.

وبالتالي فإن الآمال التي علقت عليها أثناء افتتاحها، لم تعط النتائج المرضية "...إن المدرسة بعد إلحاقها بالمخيم الذي يعتبر وحدة انتجاع، ستسمح بنشر التعليم الفرنسي في ظروف حياة عادية بالنسبة للطفل الذي لا يرتاد المدرسة إلا أثناء ساعات الدراسة، والذي يقضي معظم وقته في وسطه الطبيعي، وهذا النوع من المدارس الحديث العهد لازال تحت التجربة لكن يبدو جيد، من الآن فصاعد نتوقع له النجاح، ونأمل مضاعفته في المستقبل القريب، عندما نتمكن من التغلب على بعض المشاكل المتعلقة باكتتاب عمال مؤهلين"¹.

عندما نراجع الكلام السابق لمفتش التعليم في موريتانيا، ندرك أن لديه آمال وخطط توسع في هذا النوع من التعليم، غير أن آماله في النهاية خابت وتقديراته لم تكن في محلها، إذا ما علمنا أن عدد هذه المدارس وصل سنة 1949 إلى 136 مدرسة، وأن عدد التلاميذ الذين شاركوا في الامتحانات النهائية خلال نفس العام لم

¹ - محمد الرازي بن صدفن: المدرسة الفرنسية ص: 114 نقلا عن A.N.M.serie E3

يتجاوز 112 طالبا¹، مما يعني أن عدد المدارس فاق عدد المنخرطين فيها، وهي انتكاسة حقيقية لحقت بالمدارس الفرنسية المتنقلة لم تكن المؤسسات التعليمية الأهلية من تلك الانتكاسة ببعيد.

ج) المجتمع ومقاومة التعليم الفرنسي:

اتخذ رفض الوجود الفرنسي في البلاد عدة أوجه، فلم يقتصر فقط على المقاومة العسكرية وحمل السلاح، وتكبيد الفرنسيين خسائر فادحة في العدد والعتاد، وإنما تعداها إلى المقاومة الثقافية، ومقاطعة المدارس الفرنسية وكل ما له علاقة بالمستعمر، وقد اتخذت المقاومة الثقافية، عامل الدين كمرتكز انطلقت منه في محاربتها للوجود الفرنسي، وبالخصوص سياسته التعليمية التي يقتضي القبول بها والرضوخ لها - حسب نظرة المقاومة كما سنبين - قبول ثقافة الفرنسيين، ومعتقداتهم وأطباعهم، وهو ما يتنافى وروح الدين، والأصالة، المشبع بها المجتمع الأهلي آنذاك.

وهذا ما حام حوله الحاكم العام لإفريقيا الغربية في رسالته، المؤرخة بديسمبر 1902، والموجهة إلى وزير المستعمرات الفرنسي " ... لقد وجدنا شعبا يمتلك ماضيا مليئا بالأمجاد، والفتوحات ما تزال عالقة بأذهانه، كما وجدنا مؤسسات اجتماعية لا نستطيع تجاهلها، نظرا لعلاقات التضامن الوثيق التي تسود بينها ... وعليه فإنه لا يمكن مقارنة هذه الشعوب بالشعوب الزنجية المجاورة، ومن العجيب أننا لاحظنا وجود ثقافة رفيعة لدى الزوايا، وهي الفئة العاملة في مجتمع البيضان، أكثر تطورا من الثقافة الموجودة لدى مثقفي إفريقيا الشمالية"².

ولم يخف الفرنسيون إعجابهم بثقافة أهل البلد، وسعة اطلاعهم، وتبحرهم في العلوم اللغوية والشرعية، وانتشار العلم بينهم، فها هو الإداري الفرنسي بييري

¹ - حدأمين بن إسلامو: مرجع سبق ذكره، ص: 42.
² - محمد الراضي: مرجع سبق ذكره، ص: 117-118.

Beyries¹ يتخلص من المركزية الأوروبية، التي طبعت معظم الإداريين الذين حكموا البلاد، ويقدم شهادة قل من اعترف بها من الفرنسيين، حين سطر في تقريره سنة 1937 عن التطور الثقافي والاجتماعي للسكان "... لقد لاحظت أنه لا يوجد أي مجتمع بدوي يبلغ مبلغ البيضان في العلم بالعقيدة والتاريخ والأدب والفقه وعلوم العربية... إنهم يتحدثون العربية الفصحى بطلاقة ويسر، أحسن مما يتحدث بها سكان تونس والقااهرة... ولا يندر أن تجد فيهم راعي إبل من أبسط الرعاة يترنم بالشعر الجاهلي..."².

وفي نفس السياق كتب رئيس مصلحة التعليم الابتدائي في موريتانيا (chaigneau)، متحدثا عن تمسك السكان بأصالتهم، وعدم اكتراثهم بما أنتجته الحضارة الفرنسية "...إن البيضان³ المسلمين، كان لهم منذ قرون ولا زال علماء وفقهاء وأدباء، معروفون في جميع البلاد الناطقة بالعربية، ومنتفهم كونهم لغيرتهم على وطنهم لا ينظرون إلى حضارتنا بحماس... إن الثقة معدومة بيننا الآن..."⁴. وقد وقفت "المحطرة" - التعليم الأهلي الديني - في مواجهة التعليم الفرنسي، مواقف مشرقة، وسعت من خلال سياسة المقاطعة وإظهار خطورة المدرسة إلى إرباك الخطط التعليمية الفرنسية في البلاد، فقد جاء على لسان أحد الفرنسيين في موريتانيا ما نصه: "مثلت المحاضر خلال الفترة الاستعمارية قلعة حصينة للسمود والمناعة الثقافية... لقد انتصب في مواجهتنا، عدو قديم وقوي هو تعليم المحاضر، الذي يتطلب قهره تبني سياسة مدرسية حكيمة وبذل مجهودات كبيرة..."⁵.

¹ - إداري فرنسي شغل عدة مناصب إدارية في البلاد، منها حاكم دائرة الترارزة، وكان قبل ذلك إداريا في الجزائر وتونس.

² - الخليل النحوي: المنارة والرباط، مرجع سبق ذكره، ص 355.

³ - سبق وأن أشرنا إلى أن مفهوم كلمة البيضان أطلقه الأوروبيون على السكان المحليون تمييزا لهم عن باقي سكان المنطقة، وذلك لبياض بشرتهم الضارب أحيانا في السمرة.

⁴ - الراطي صدفن: السياسة الاستعمارية، مرجع سبق ذكره، ص: 96.

⁵ - محبو بن محمذن: المحطرة الموريتانية ودورها في غرب إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص: 201.

ما دامت المدرسة الفرنسية – في نظر فقهاء أهل البلد – تسعى إلى تغيير دين الناس والتشويش على معتقداتهم، فليس من الغريب أن يناصروها العداء، ويحاربوها بما استطاعوا من قوة، سبيلا إلى إبعاد السكان عنها وتحذيرا من مغبة إرسال الآباء لأبنائهم للدراسة فيها، ومن ذلك يقول الفقيه محمد الأمين بن مولود¹:

لبالغ عند الملاح المهره	جاز تعلم خطوط الكفره
لكافر يبعثه في المكتب	ومنعوا إسلام نجله الأب
على الذي أعطاه إذا تنصرا ²	بإثمه بعد إذا تنصرا

ولم يبتعد كثيرا الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن فتى³ عن سابقه في التحذير من المدرسة وبيان مساوئها:

علم قرين عذاب مؤلم بيس	لا علم، لا دين، لا تقوى يؤمل من
تبنى لغبي وتفسيق وتمجيس ⁴	ولا مزيج من الأجناس في حجر

بل إن الأمر في عداوة وكره السكان للتعليم الفرنسي، وصل إلى حد، أن بعض الأحياء والقرى التي تفتح فيها الإدارة الفرنسية مدرسة، يعتبر أهلها أنهم قد نزل بهم خطب عظيم، ومصاب جلل، فعندما قرر الاستعمار فتح مدرسة في حي "أولاد أمير أگداش"⁵، انبرى محمد حامد بن آلا⁶ لإجهاض هذا القرار، وكتب إلى عبد الله بن الشيخ سيديا⁷ يستنهض همته – وهو المسموع الكلمة آنذاك – للتدخل من أجل

1 - أحد العلماء المتبحرين في العلم ينتمي إلى قبيلة مسومة.

2 - الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص: 358.

3 - أحد فقهاء البلد، وقد كان شديد العداء للمدرسة حتى بعد الاستقلال.

4 - النحوي: مرجع سابق، ص: 358.

5 - فخذ من قبيلة الحسينيين المعروفون قديما بتمكنهم من اللغة والشعر.

6 - أحد علماء الحسينيين توفي 1959.

7 - ينحد من قبيلة أولاد أبيبيري، وبالخصوص من أسرة أهل الشيخ سيديا، تولى إدارة معهد أبي تلميت سنة 1953 بعد أن تم تحويله من مدرسة إلى معهد إسلامي.

إلغاء القرار، ونظرا لأهمية هذه الرسالة في فهم نظرة بعض قبائل المجتمع إلى التعليم الفرنسي، وتخوفهم منه فإننا نرى ضرورة إيرادها وهذا نصها¹:

الحمد لله رب العالمين، مجيب دعوة المضطرين، وكاشف كرب المكروبين، من أيد الدين بنصره وبالمؤمنين، وألحق بزكاة المال زكاة الجاه، وجعل من مصارف الزكاة سبيل الله، والصلاة والسلام على نبيه الكريم، الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم، وعلى آله وأصحابه الأشداء على الكفار الرحماء بينهم، وعلى حلفائه الذين تجردوا لنصر الدين وتدبير مصالح المؤمنين.

أما بعد، فمننا إليكم سلام لا يشاكله طيبا وحسنا وكمالا، إلا طيب أخلاقكم، ومحاسن أقوالكم وأفعالكم وكمال ظاهركم، وباطنكم، موجبه إعلامكم بأن ما دهم اليوم من دفع الصغار للمكتبة (الفرنسية) ما ليس لنا به طاقة ولا يطب معه عيش، ولا يقر معه قرار، ولا تساعدنا عليه النفوس، ولا يسامح فيه الشرع، فاستوى الفكر فيه فشغلنا بما شغل به المؤمنين من أمر دينهم ودنياهم وآخرتهم ثم تمثلنا بقول سيدي عبد الله بن أحمد دام:

ناحيت فكري وقد أمعنت من نظري ثم استمر بي الرأي الذي اكتسبه
أن يمت شرف الدين الكمال بنا علباء تعتسف الأكام والهضبه

فقد ضربنا أكباد نجب خواطرننا إليكم، وألقينا عصا سيرها لديكم، فقوموا لنا، لا معنا، في هذا الأمر، ولا تكلوه إلينا كما هي العادة منكم، والمرجو فيكم والموثوق به لديكم، لأنكم الخريتون لبيدائه الطبيبون لأدوائه، والعارفون بمسالكه، والواقون بحول الله من مهالكه.

وإننا لنظن بكم السعي في غير هذا المجال، من نصرة الدين، وإنقاذ المسلمين من الضلال، كما أننا نضن به لكم من بين أمثال الرجال، لأنه جهاد في سبيل الله،

¹ - نقلنا هذه الرسالة حرفيا من الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص: 359-360.

وأداء لفريضة زكاة الجاه، وإنه لهجرة وحجة وعمرة تامات، وإنه لمن أعظم القربات، فما كان لله لا يخيب آتية ولا يحرم مسديه، وإننا لنعلم أن هذا كله إغراء في الوسط "إذ كيف يظماً علي وببده أعنة الخيل، وهو ينظر إلى الفرات"، يا خيل الله اركبي:

مني لمن ليس منه البعد ينسيني
تحية كثمار النذر تشربها
تجدد العهد بين الأهل ساحبة
عن موجب أننا كانت لنا بكم
لسنا على الدين من سيد ولا أسد
ولا غوي عندي في تجبره
بل لم يزل ديننا منذ استقام بكم
واليوم أصبح لا ترضوا وحشى لكم
فبادروا الدين إن الدين مذ زمن
فالدين مبقاه أن تأتي الصغار به
والناس إذا أفسدوا دين الصغار رضوا
وليس يرضى بمحو الدين غير فتى
لموتهم عندنا خير من أن يلجوا
كم بين موتهم من دين ربهم
إن كان في ذلك للدنيا سياستهم
سياسة الدين أحظى ما يكون له
يالحممة لـدين الله أن ندبوا
لا يعلم الله مولاكم تـوانيكم
ولـيعلم الله مولاكم تنافسكم
لهم صلاة وتسليم حكي معها

وليس عنه جميع الأهل يسليني
روح المكاشف في أيام تكوين
ذيل المودة في خفض وفي لين
حماية الدين إذ خفنا على الدين
نخشى لديكم ولا ذل ولا هون
ولا مريد من أشرار الشياطين
في سالف الدهر في عز وتمكين
يسام خسفا على مر الأحيين
ما لم تلاقوه في دار من الهون
وحيث لا فإذن لم يبق من الدين
بالمحو للدين من كل الدواوين
عن نهج الإيمان والإسلام مفتون
فيما به طلبوا من أهل سجين
ورفضهم عندنا للدين من بون
فالدين أولى بتأسيس وتحسين
صرف العناية ممن ليس بالدون
يا للأباة ويا شم العرانين
عن الديانة في نصر وتزيين
في الاحتماء لمحمي النبيئين
على دوامهما ريا الرياحين

ما إن تصدت لدين الله طائفة تعلو عليه بتعليم وتدوين

ويبدو أن جهود محمد حامد بن آلا، قد آتت أكلها، وكان له ما أراد، فقد تم تجميد القرار، القاضي بفتح المدرسة الفرنسية في حي قومه، وهذا ما عبر عنه شاعرهم بقوله:

الحمد لله على ما نفسه من الكروب وسقوط المدرسة
مدرسة الروم عن أبناء الحسن وقد يراها غيرهم أمرا حسن
وهم يرونها بعين الأرمم ليس بها هاد ولا مهتد¹

كما اعترف الفرنسيون الذين حكموا البلاد بمناعة التعليم المحظري، ووقوفه في وجه الغزو الثقافي الأجنبي، حتى لا يخترق النسيج الاجتماعي المحلي، ويسلب العامة هويتهم وثقافتهم "...إن المحاضر قد تمكنت على العموم من الصمود في وجه الغزو الثقافي الأجنبي، واطلعت برسالتها المتمثلة في صيانة تراث ثقافي يمثل بالنسبة لها مدعاة فخر واعتزاز"².

وعموما يمكننا القول - دونما مجازفة - أن المجتمع البيضاني لم يقتنع بجدوائية المدرسة الفرنسية - على الأقل خلال بداية الوجود الفرنسي - وظل دوما ينظر إليها على أنها مدرسة نابعة من ثقافة ودين مغاير، هدفها إبعاد الناس عن معتقداتهم، لذا فإنه ليس من الغريب أن يكون عدم انتظام الطلاب، وهجر بعضهم الآخر للمدارس، أمر طبيعي تعودت عليه الإدارة الفرنسية.

ورغم أن المدرسة الفرنسية في بعض الأحيان (مدارس أبناء الشيوخ) ألبست بلباس اللغة العربية، ورغم جلب أساتذة لها من دولة عربية (الجزائر، تونس) وزيادة المنح الدراسية للطلاب والتكفل بشؤونهم المعيشية، إلا أن ذلك كله لم يقتنع السكان بفوائد المدرسة، ففي سنة 1949 وصل عدد المدارس القروية 136 مدرسة في حين

¹ - مصطفى بن الندى: مرجع سبق ذكره، ص: 75، وصاحب الأبيات هو الشاعر: أحمد بن احمزيه الذي ينحدر من أسرة معروفة بالشعر.

² - محبو بن محسن: المحظرة ودورها في غرب إفريقيا، مرجع سبق ذكره، ص: 202.

لم يتجاوز عدد المشاركين في الامتحانات النهائية 112 طالباً¹، وظلت بالتالي الاستثمارات التي تقوم بها الادارية الفرنسية في مجال التعليم أكبر من النتائج المتحصل عليها، مما يدل على وجود فشل في السياسة التعليمية الفرنسية.

د- أسباب فشل التعليم الفرنسي:

هناك عدة أسباب – من وجهة نظرنا – وقفت حاجزا دون نجاح الخطط التعليمية الفرنسية في البلاد، فعندما نقارن مدى نجاح التعليم في دول غرب إفريقيا الفرنسية من جهة، وموريتانيا من جهة ثانية، التي هي أحد أعضاء هذه المجموعة، نلاحظ أن التعليم الفرنسي في الأولى قد حقق مغزاه، ووصل إلى الأهداف المتوخاة منه إلى حد كبير (نشر اللغة الفرنسية داخل المجتمعات، وتجريدها من خصوصياتها، وجعل ثقافتها، وتفكيرها، يصب في نفس مجرى الثقافة والفكر الفرنسي، وخلق مجتمعات تدين بالولاء للإيديولوجي لفرنسا...) في حين أن العملية التعليمية في موريتانيا صاحبته منذ ولادتها، إلى خروج الاستعمار، عدة مصاعب وتعثرات، ساهمت بشكل ما، في عرقلة مسيرتها، وعدم تحقيقها لأهدافها بالشكل المطلوب، على غرار ما حصل في دول غرب إفريقيا الفرنسية الأخرى، وكان بعض هذه الصعوبات ناجم عن خصوصية البلد الجغرافية وشساعة مساحته، والبعض الآخر مرتبط ببعض الجوانب الدينية والاجتماعية، ومنها كذلك ما يخص المستعمر الفرنسي نفسه.

1. عامل الطبيعة الجغرافية:

أدى تربع البلد على مساحة كبيرة، وتناثر أحياء السكان في صحاري يصعب الوصول إليها، إضافة إلى الترحال والتنقل التي هي من عادة أهل هذا القطر – حيث أن ثلثي السكان آنذاك كانوا بدو رحل – إلى صعوبة في التدريس والتدريس، فمن جهة التدريس كان من الصعب وجود مدارس في المدن الداخلية البعيدة عن مكان ثقل الاستعمار الفرنسي (منطقة النهر) نظرا للتكاليف الباهظة لإقامتها، ومن جهة التدريس، فقد أدى نفور غالبية السكان من المدرسة، إلى ضعف في الإقبال على هذه الأخيرة، ولعل هذا ما عناه والي موريتانيا بقوله: "إن الأخفاقات الكبيرة التي عرفها

¹ - إسمو بن حد أمين: مرجع سبق ذكره، ص: 42.

النظام التعليمي الفرنسي في موريتانيا نتيجة للمعوقات الكبيرة المتمثلة في شساعة البلاد والطبيعة البدوية لأغلب سكانها وأخيرا الحجج الراضة للتعليم وخاصة تعليم البنات"¹.

2. عوامل تخص الجانب الفرنسي:

- وحد المستعمر الفرنسي بين المسؤولين عن التعليم، والمسؤولين عن العمليات العسكرية القمعية، وبالتالي فإن الذهنية المحلية، ربطت بين العسكري الذي يحمل السلاح في وجه السكان، وبين المعلم الذي يلبس الزي العسكري داخل أقسام الدراسة، وحتى مع ذلك الذي يجمع الضرائب، ويقوم بقهر الناس وإجبارهم على إخراج أموال هم في أمس الحاجة إليها، مما أدى إلى تشويه صورة المدرسة ونفور غالبية السكان منها.

- حرصت الإدارة الفرنسية على أن يكون القائم على المدرسة إما عسكريون فرنسيون، أو زوج أفاقة، وكان ذلك خطأ استراتيجي - من وجهة نظرنا- ارتكبته فرنسا في حق التعليم الذي أشرفت عليه، فقد صار معظم السكان لا يبالي بالمؤسسات التعليمية التي يعتبرونها فرنسية مسيحية، أو إفريقية وثنية، وبالتالي أدى غياب عناصر عربية²، متقنة للغة العربية، والشريعة الإسلامية - اللتين يتمسك السكان بهما - إلى فتور في الاندفاع نحو التعليم الفرنسي.

- تواضع التجهيزات التي قدمتها الإدارة الفرنسية للتعليم في موريتانيا، وهو تواضع منبثق من الميزانية العامة المخصصة للتعليم في البلد، فعندما نقارن هذا الأخير بدول غرب إفريقيا الفرنسية، نجد أنه كان لفولتا العليا نسبة 5.85%،

¹ - محمد الرازي بن صدفن: المدرسة الاستعمارية الفرنسية، مرجع سبق ذكره، ص: 119.
² - نستثنى هنا ما أشرنا إليه سابقا من كون الإدارة الفرنسية رغبة منها في تبديد مخاوف السكان من المدرسة، عينت مديرين لمدرسة أبي تلميت من أصول جزائرية وآخر من أصل تونسي راجع: ما كتب سابقا في هذا الفصل.

وللسنغال 3.27%، وللنيجر 4.66% في حين لم تتجاوز نسبة موريتانيا 1.40 من ميزانية مستعمرات غرب إفريقيا الفرنسية¹.

- البرامج التدريسية: كانت البرامج المدرسة داخل المدارس الفرنسية لا تمت بصلة إلى واقع وتاريخ وثقافة المجتمع المحلي، وإنما كانت مستقاة من الخصائص الثقافية والاجتماعية والتاريخية لمجتمعات إفريقيا السوداء - إلى غاية 1946 - أو مستنسخة من إفريقيا الفرنسية، وكلتا الحالتين لا تتماشيان مع النمط الثقافي، والاجتماعي للسكان.

- عقدة اللغة الفرنسية: حاولت فرنسا فرض لغتها الفرنسية على شعوب غرب إفريقيا الفرنسية²، باعتبار أن اللغة أداة للهيمنة، وقد نجحت - دون صعوبة كبيرة في فرضها على سكان غرب إفريقيا نظرا لغياب لغة أدبية مكتوبة ومستعملة على نطاق واسع داخل هذه المجموعة، أما بالنسبة لمجتمع البيضان، فإن الاستعمار الفرنسي لم يراع خصوصيته من هذه الناحية، فقد كان يتعاطى اللغة العربية بشكل فصيح بعيد عن التكلف والإطناب³، وهو ما لم يرق ذلك لأهل

¹ - إسمو بن حدمين: مرجع سبق ذكره، ص: 45.

² - تم الإشارة إلى هذه النقطة سابقا.

³ - كثيرا ما افتخر شعراء البلد بأن الشعر واللغة عندهم سليقة يرضعونها من الأمهات، ولا يقرؤونها في مدارس أو على شيوخ، لتمكنهم منها وفي ذلك يقول محمد فال بن عيين:

الطفل يولد فينا كابن ساعدة منقحا دررا أصدافها ذهب

انظر إلى ما لنا من كل قافية لها تدم شذور الزبرج القشب

وقد افتخر الشاعر محمد بن السالم بسليقته الشعرية وفصاحته وإن لم يتعلم النحو:

مصدق أني كريم العيص منتسب إلى قریش بيوت العز والجدل

نسجي القريض وإحكامي قوافيه ولا أميز بين العطف والبذل

وفي نفس السياق صاغ العم بن أحمد أبياته التي منها:

أليس الشعر طوع يدي وقلبي وسهل الصوغ ويك على لساني

أصوغ البيت منه بلا عروض على أقوى وأقوم اتزان

وأنفسي اللحن والتعقيد عنه بذوقي والقريحة والجنان

وأرتقب المحاسن من بعيد وأقتنص الشرود من المعاني

فأكسو اللفظ بالأفكار حليبا يذم له الثمين من الجمالان

ولقد عرف أهل البلد بتعاطيهم للشعر إنتاجا، وحفظا، ونظما، وإبداعا، حتى أطلق عليهم "بلد المليون شاعر" ولا نعرف أول من أطلق هذه التسمية على البلاد، إلا أنها من باب شائع الذي وصل حد التواتر، وإن كان هذا الموضوع (الشعر في موريتانيا) مجال بحث آخر، لا نود هنا أن نشغل أنفسنا به، وإنما أردنا فقط التنبيه إلى أن البلاد وجدت بها أيام الاستعمار لغة متداولة بين أفراد المجتمع، حاول المستعمر من خلال سياسته التعليمية

البلد، على اعتبار أن المستعمر بتعليمه إنما أراد سلخ القوم من لغتهم ثم بعد ذلك من دينهم، مما أوجد قطيعة مع التعليم الفرنسي.

3. عوامل تخص الجانب المحلي:

هناك عوامل ارتبطت بالسكان المحلية أدت إلى فشل التعليم الفرنسي، أو على الأقل ساهمت في عدم نجاحه، على الشكل الذي أرادت الإدارة الفرنسية ومن تلك الأمور:

- المقاومة: لما كانت طبقة كبيرة من المجتمع، قد وقفت في وجه المستعمر، بأرواحها، وأموالها، فمن المتوقع أن تقاطع هذه الطبقة تعليمه، وسنعرض هنا صفحا عن الحديث عن المقاومة لأننا قد تطرقنا لها في مكان آخر من هذا البحث، لنجمل القول، فنقول إن المقاومة أو المقاطعة، التي استعملها السكان ضد التعليم الفرنسي، كانت أكثر حدة في آدرار، وتكانت، ولعصابة، بحكم قوة المقاومة وطول نفسها في هذه المناطق، على عكس الترابزة ولبراكنة اللتين ركز الاستعمار مجهوداته التعليمية عليهما.

- المحظرة: اتخذت المقاومة في موريتانيا عدة أشكال (مقاومة عسكرية، مقاومة اقتصادية، ومقاومة ثقافية..). وهذه الأخيرة أشرفت عليها المحظرة¹، باعتبارها المؤسسة التي تنتج وترعى الثقافة، وبما أن التعليم الفرنسي – في نظر فقهاء المحظرة – جاء ليغير دين الناس ولغتهم، وليقطع صلتهم بماضيهم، ويشوش فكرهم ومعتقداتهم، فأنا لا نتوقع منهم أن يكونوا متحمسين لوجوده، بل

القضاء عليها، ولم يكتب له ذلك، وإنما ولد ذلك كرها في قلوب البعض للمدارس ونفورا منها، مما مثل بدوره أحد أسباب فشل التعليم الفرنسي، للمزيد حول الشعر في بلاد شنقيط راجع:

- أحمد بن الحسن: الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة في وصف الأساليب، مرجع سبق ذكره.
- محمد المختار بن أباه: الشعر والشعراء في موريتانيا، مرجع سبق ذكره.
- أحمد بن الأمين: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مرجع سبق ذكره.
1 - المحظرة: سبق التعريف بها وبأدوارها العلمية.

على العكس نجدهم يصدرون الفتاوى¹ ضده، نظما ونثرا، تدعوا إلى مقاطعة التعليم الفرنسي، وكل أشكال التبعية للإدارة الاستعمارية، ومن ذلك أن بعثة فرنسية زارت مدينة أبي تلميت، فأصبح منشور سري عبارة عن قصيدة معلق بجامعها، موقع باسم مجهول، يحرض الناس ضد البعثة، وهو ما أدى إلى إفشال مهمتها وجاء في القصيدة:

فلا أكرم الرحمن ذا الوفد من وفد
غدا سائر في الأرض شرقا ومغربا
ويهدم من دين الإله قواعدا
.. ويزجر عن علم وعن عمل به
يذم ذوي العلم الشريف خساسة
ويزعم أن العلم خسر لأهله
وأن الفتى يكفيه علم جرائد
لقد جاء للإسلام بالحادث الإد
ليطفئ نور الله فسقا على عهد
ليصبح بنيان الديانة ذا هد
ويدعو إلى غي وينهى عن الرشد
ويوليهم أقصى النهاية في البعد
وشغل وفي أمر السياسة لا يجدي
ويغنيه خبر الغار والهـر والقرد²

- التراتبية الاجتماعية: أدى وجود تمايز بين الفئات الاجتماعية في البلاد، إلى عدم قيام نظام تربوي موحد مقدم إلى جميع أبناء الفئات الاجتماعية (أبناء الوجهاء، وأبناء الطبقات السفلى في الهرم الاجتماعي)، فمدرسة أبناء الوجهاء - التي سبق الحديث عنها - كانت مقصورة على أبناء طبقة النبلاء، ومحرومة على أبناء الصناع³، أو الحراطين⁴... لأن وجود فرد من هذه الفئات الأخيرة قد يؤدي إلى تشويه الهدف الذي أنشئت من أجله، والمتمثل في تقريب الأسر ذات التأثير في المجتمع من السلطة الاستعمارية⁵.

1 - كنا قد عرضنا لجانب من هذه الفتاوى فيما سبق، راجع الفصول الماضية.

2 - راجع القصيدة كاملة عند النحوي: مرجع سبق ذكره، ص: 368.

3 - الصناع: هم الحرفيون وقد اقتصت فئة معينة الصناع أو "المعلمين" دون غيرها بالحرف اليدوية مثل صناعة الأدوات المنزلية، ووسائل القتال البدائية (خناجر، بنادق بدائية..)، للمزيد راجع الفصل الأول.

4 - هم فئة الأرقاء سابقا، راجع الفصل الأول.

5 - محمد الراطي: المدرسة الاستعمارية، مرجع سبق ذكره، ص: 122.

وجملة القول أن التعليم الفرنسي رغم عوامل الفشل التي لحقته، إلا أنه أحدث خلا في البنية الاجتماعية، والاقتصادية، وحتى السياسية للسكان، وكان من نتائجه ظهور عقليات، وأنماط عيش جديدة، وطبقة سياسية، ووظائف جديدة، كما أسهم التعليم الفرنسي إضافة إلى ما سبق، في تغيير نظرة الناس إلى الإدارة الاستعمارية عموماً، وتعليمها بشكل خاص، فبعد أربعينيات القرن العشرين أصبح المعطى الاقتصادي - الذي يوفره التعليم الفرنسي - حاضراً في أذهان السكان وذلك بعد تعميم التبادلات النقدية، وإشاعة العمل بالراتب، وظهور التأثير الاجتماعي وسياسي لخريجي المدارس الفرنسية.

رابعاً: تأثيرات الوجود الفرنسي على المجتمع

سعت الإدارة الاستعمارية إلى التحكم في المجتمع، وذلك من خلال إصدار جملة من التنظيمات السياسية، والاقتصادية، والثقافية، استهدفت ربط البلاد وسكانها بالاستعمار الفرنسي، فمن الناحية السياسية تم تحطيم البنى الفوقية للمجتمع التي كانت تمثل السلطة الزمنية، ومركز القرار، ومن الناحية الاقتصادية تم استنزاف الاقتصاد التقليدي الهش في الأساس، وربط البلاد بالسوق والمنتجات الأوروبية، وإشاعة التعامل بالنقد، بالإضافة إلى إثقال الناس بالضرائب المجحفة، أما الناحية الثقافية فإنها لا تقل أهمية من سابقتها، فقد فرضت فرنسا سيطرتها الفكرية والإيديولوجية التي استهدفت القضاء على القيم الثقافية التقليدية المتوارثة منذ قرون، أمور كلها أثرت على بنية المجتمع، وعطلت من مسيرته التنموية، وأربكت الاقتصاد التقليدي المحلي، فضلاً عن تأثيراتها على السلطة السياسية التقليدية.

1. التأثير على المستوى السياسي:

لقد فرضت فرنسا وجودها السياسي "بقوة السلاح"، وبالتالي فإن كل من كان يقف في وجهها من الزعامات التقليدية، كان مصيره التصفية الجسدية (الأمير بكار بن اسويد أحمد، والأمير سيد أحمد بن أحمد عيدة) وعندما نلقي نظرة على التأثير

السياسي الفرنسي قبل سنة 1903، نلاحظ أن فرنسا - كما بينا سابقا - قد استعملت أسلوب العزل، أو الاغتيال، لكل الأمراء الذين لا يبادلونها الود، ولا يرونها سيده المنطقة، وقد اتخذ أسلوب العزل والاغتيال (التصفية الجسدية)، شكل دعم لأحد الأطراف، أو إثارة فتنة وقلق داخل الإمارة، وخير مثال على ذلك التنازع الحاصل بين أبناء العمومة (الأمير أحمد سالم، والأمير محمد فال بن سيدي) على إمارة الترارزة¹، الذي لم يحسم إلا بالتدخل الفرنسي لصالح الأول، بعد أن وقع معاهدة تقضي بوضع إمارته تحت الوصاية الفرنسية².

ونفس الشيء حصل مع الأمير أحمدو بن اعلي³، أما الذين اختاروا خط المواجهة والصدام مع فرنسا، فإن نهايتهم كانت الاغتيال، نلاحظ ذلك مع أمير "تكانت" بكار بن سويد أحمد، الذي وقف في وجه الاستعمار الفرنسي، وخاض ضده معارك كان آخرها "بوكادوم" التي استشهد فيها، ولم يكن حظ أمير آدرار بأحسن من سابقه، فقد تم استبداله سنة 1917 بجماعة محلية تتكون من تسعة أعضاء، تدير الإمارة بدلا منه، بعد أن خضع للإقالة الجبرية في سان لويس⁴، ثم بعد ذلك تم إعادته إلى موطنه، وبما أنه لم يكن على اتفاق دائم مع السلطة الاستعمارية، وكان كثيرا ما يحن إلى سنوات النضال والمقاومة، فقد تم اغتياله سنة 1932 في سياق تعرضنا له سابقا.

إن ما أردنا أن نتوصل إليه مما سبق هو أن التأثير الفرنسي في المجال السياسي اتسم بطابع العنف، وكان يتخذ من أسلوب "إما أن تكون معي، وإلا فأنت ضدي" منهجا وطريقا، وبالتالي فإن فرنسا قامت بتركييع خصومها بقوة السلاح،

¹ - سبق الحديث عن هذه النقطة في الفصل الأول.

² - وقعت المعاهدة في ديسمبر 1902.

³ - أمير إمارة لبراكنة وسبق الحديث عنه وعن هذا الموضوع في الفصل الأول.

⁴ - فرانسيس دي شاسيه، مصدر سبق ذكره، ص: 56.

وأبدت لحلفائها – قبل خصومها – أنها قادرة على تتبع وتأييد كل من تسول له نفسه الوقوف في وجهها، أو معارضتها، أو حتى التردد في عدم قبول أوامرها.

أدت السياسات الفرنسية – التي تحدثنا عنها سابقا – إلى خلخلة البنية السياسية للمجتمع، فعند قدوم فرنسا إلى البلد، استعملت "سياسة الأجناس" لتقوية الضعيف، وإضعاف القوي، وهو ما أدى إلى فقد بعض القبائل لمراكزهم الاجتماعية، الريادية في السلم الاجتماعي، وصعود أخرى على حسابها، ونتيجة خوف الإدارة الفرنسية، من تعاضم قوة الطرف الضعيف في السابق، فإنها عدلت عنها إلى "سياسة الإدماج" وما دامت هذه الأخيرة لم تجد نفعاً، ولم تمكن المستعمر من بلوغ أهدافه الكامنة في التغلغل داخل البنية الاجتماعية والتحكم فيها، فقد انتهج سياسة "الإشراك" الهادفة إلى الاحتفاظ بالبنى السياسية التقليدية، لكن بطريقة لا تكون فاعلة، وإنما مفعولاً بها، بحيث يقتصر وجودها فقط، على تبليغ أوامر السلطة الفرنسية، وتنفيذها إذا اقتضى الأمر ذلك، وبالتالي فإنها في هذا الشكل تكون رمزية، وصورية، ولا دخل "للسلطة" بمفهومها العادي في تصرفات أفرادها، إلا إذا كانت تخدم التوجهات والمصالح الفرنسية، وموازية مع الطبقة السياسية التقليدية القديمة، أنشأت الإدارة الاستعمارية وظائف بروقراطية عن طريق تكوين واكتتاب (محصلين ماليين، ومحاسبين، ومساعدى إدارة، ومترجمين)، وعملت على تكوينهم تكويناً إيديولوجياً ينسجم مع الأطروحات الفرنسية، وكانوا في الغالب من أبناء الأسر النبيلة، التي لها تأثير سياسي أو روحي على السكان.

2. التأثير على المستوى الاجتماعي:

إبان دخول الاستعمار البلاد خلال السنوات الأولى من القرن الماضي، أفتى عدد غير يسير من العلماء بوجود مقاومته¹، أو الهجرة إلى ديار الإسلام الأخرى، حفاظاً على الدين وصوناً للأعراض، وبالتالي فإن عائلات كثيرة، هاجرت من البلاد

¹ - راجع الفصل الثاني من الباب الثاني.

في اتجاه المشرق العربي، تحت تأثير التصرفات التعسفية التي مارستها الإدارة الفرنسية اتجاه السكان¹.

ولم يقتصر التأثير الاجتماعي للوجود الفرنسي على الرعب والخوف النفسي الذين أرغما مجموعة من السكان على الهجرة، بل إن الإدارة الفرنسية عند دخولها واحتلالها البلاد تذرعت بحماية المستضعفين، وبأنها إنما جاءت لهذه البلاد من أجل حماية الطبقات الضعيفة من بطش الطبقات القوية، وحماية السود من البيض، وكان ذلك استهداف مباشر للتماسك الاجتماعي للبلاد الذي استمر قبل ذلك بعدة قرون.

حاولت فرنسا إذن من خلال هذا المعطى - "حماية الضعفاء" - إحداث شرخ داخل النسيج الاجتماعي، مستغلة بساطة المجتمع، واختلاف إثنياته، وبالتالي عزفت على وتر حساس للغاية، وهو الوتر الطائفي، وغذت وعمقت خلافاته البينية من أجل إضعاف القوي، وزيادة ضعف الضعيف، وهي سياسة ساهمت في تفكيك البنية الاجتماعية وقضت على تماسكها ووحدتها.

أدخل المستعمر "العملة النقدية"، ثم أصبحت مع مرور الوقت وسيلة للتعامل الاقتصادي والحصول على المواد المستهلكة والمستوردة أساسا من أوروبا، ووسيلة كذلك لأداء الضرائب، وهذا ما فرض على السكان الدخول في علاقات غير متكافئة مع المستعمر الفرنسي وإدارته، وشركاته التجارية، ففي حين كان السكان يعتمدون على ما تنتجه البئة المحلية، أصبحوا يفتنون كماليات، صارت من صلب حياتهم اليومية.

وبالتالي فإن المنمي والمزارع أصبحا مرغمين على بيع جزء من إنتاجهما للحصول على هذه المواد، وإذا تعذر ذلك فسيضطرا لبيع قوتيهما العضلية، في شكل

¹ - هاجرت قرابة 600 عائلة البلاد خصوصا من "القلقيين" و"البوصاديين" في اتجاه الحجاز، وقد توقفوا فترة في ليبيا، ثم بعدها قصدوا أرض الحرمين، ثم بعد ذلك انقسموا حيث ذهبت جماعة إلى الأردن واستقروا بها ودخلوا في جهاز المملكة، وصار لهم تأثير كبير خصوصا في مجال القضاء، والجماعة الباقية شددت الرحال إلى تركيا.

عمل يومي أو شهري مع أطراف أخرى (سخرة، أعمال استخبارية، عمل داخل قوافل تجارية...).

لقد وفرت الإدارة الاستعمارية للسكان وسيلتين للثراء، تتمثل الأولى في خدمة الإدارة، والتعاون معها، وتقديم المعلومات الاستخبارية لها، أما الوسيلة الثانية فهي التجارة مع المراكز الفرنسية على النهر أو في المدن السنغالية، وبما أن غالبية السكان لا تستطيع الوصول إلى هذه المراكز لبيع منتوجاتها، أو لشراء حاجياتها من المواد الغذائية، والمواد الصناعية الأوروبية، فقد وجدت فئة من الوسطاء التجاريين استفادوا من هذه الوضعية، فكانوا يشترون المواد المصدرة من طرف السكان، ثم يبيعونها في السنغال، وأثناء عودتهم يأتون بالمواد المستوردة (شاي، سكر، تبغ، آلات منزلية، حبوب...) ويبيعونها بأثمان مضاغفة في السوق المحلية، وهذا ما أدى إلى وجود طبقة غنية وقليلة، في مقابل طبقة فقيرة تمثل غالبية المجتمع ظلت تنخبط في الأزمات الاقتصادية.

3. التأثير على المستوى الاقتصادي:

إن انضمام موريتانيا القسري إلى مجموعة غرب إفريقيا الفرنسية، جعلها ترتبط اقتصاديا بهذه المجموعة، وبما أن معظم المبادلات التجارية كانت تحصل خارج المجال الموريتاني، فإن ذلك قد انعكس بشكل كبير على الوضعية الاقتصادية للسكان، لأن المناطق الأخرى خصوصا السنغال ظلت تتحكم في أسعار المواد المصدرة والمستوردة إلى البلد.

ويمكننا أن نفسر ذلك بكون السنغال ظل مركزا للغرف التجارية الفرنسية، التي كانت تشرف على عملية البيع والشراء، إضافة إلى كونه مصدر إنتاج مهم لبعض المواد ذات القيمة في السوق الفرنسية (الفول السوداني، الأرز...)، في حين بقيت موريتانيا مركزا ثانويا لم يكلف الاستعمار نفسه عناء تطوير وضعه الاقتصادي، وظلت البلاد على الدوام على هامش الاهتمامات الاقتصادية الفرنسية، على الأقل خلال المرحلة المدروسة.

ولم تؤد سياسة تنظيم سوق الماشية المصدرة إلى الأسواق الفرنسية إلى نتائج إيجابية على المجتمع، بل إنها أدت إلى إفراغ المنطقة من مخزونها الحيواني، الذي يمثل العمود الفقري للاقتصاد المحلي، إضافة إلى استنزاف الإدارة الفرنسية للحيوانات، عن طريق إجبار السكان على تقديم حيوانات لنقل البضائع، ونقل الجنود العسكريين، وتأدية المهام الإدارية.

من جهة أخرى أدت ضريبة "العشر"¹ المفروضة على المزارعين، إلى هجر الكثير منهم لهذا القطاع عندما أصبح لا يؤمن لهم قوتهم اليومي، في مقابل ضريبة باهظة الثمن، ونفس الشيء ينطبق على تجارة الملح في مملحة "كدية الجل"، وتجارة العلك "الصمغ"، قبل فقدانها لقيمتها الاقتصادية في الأسواق الفرنسية، دون أن ننسى لفت الانتباه إلى الجذب الفرنسي القوي والعنيف للسكان، إلى التجارة النهرية في الجنوب، على حساب التجارة الأطلسية، والصحراوية، اللتان استمرتتا قبل ذلك لعدة قرون، ومثلتا مصدر اقتصاد، ومنبع دخل لأهل البلد.

4. التأثير على المستوى الثقافي:

سبق وأن أشرنا إلى أن الإدارة الفرنسية، كان لها اهتمام متزايد بالبلد، قبل أن تحتله مطلع القرن الماضي، من ذلك بعث مستكشفين، يجوبون البلاد ويقدمون معلومات حول عادات السكان وثقافتهم وظروف عيشهم، ثم بعد ذلك تم إنشاء مصلحة للشؤون الإسلامية، بهدف دراسة المجتمع، وطرقه الصوفية، وعلمائه، وتأثيرهم الروحية، وعندما باشر الاستعمار احتلال موريتانيا، كان من أوائل المتصددين له علماء، ومشايخ، قدّموا فتاوى بوجوب إخراجهم، فلا غرو أن يعمل الفرنسيون على محاربتهم، وإغلاق مؤسساتهم التعليمية التقليدية.

عمل الاستعمار خلال سنواته الأولى على فتح مدارس تعطي إلى جانب التعليم الفرنسي تعليماً عربياً دينياً، ورغم هزائمه وقلّة الساعات الممنوحة له، وتقليصها تدريجياً، إلا أنه شوش على التعليم الأصلي الأهلّي، وأخمد شيئاً فشيئاً نار

¹ - راجع الفصل السابق.

كراهية التعليم والاستعمار بشكل عام، وقد لا نبالغ إذا ما قلنا إن التعليم الفرنسي أحدث خلا في المفاهيم الاجتماعية، حيث حل الثراء والنفوذ السياسي – اللذان يقدمهما التعليم الفرنسي – محل الرغبة في تحصيل العلم الذي لم يعد وسيلة لابتناء المجد، وأدرك الناس كما يقول أحد الإداريين الفرنسيين "أن الثقافة العربية لا تطعم"¹.

ومن المعلوم أن "المحظرة" وقفت في وجه الاستعمار الثقافي والسياسي للبلاد، إلا أن عوامل الهدم التي مارستها فرنسا وضدها، كانت كبيرة ممنهجة، وذات تأثير بالغ، ويكفينا للتدليل على ذلك إيراد الأرقام التالية الدالة على تردي الحالة الثقافية من خلال الإقبال على مؤسسات التعليم التقليدي، فقد بلغ عدد طلاب المحاضر² سنة 1934 ما يقارب 800 طالبا، وفي سنة 1950 تم تقديرهم ب 500 طالب³، أي أن العدد تناقص بكثير في مدة أقل من عشرين سنة، وكان لذلك عدة أسباب لعل أهمها السياسة التي اتبعتها الإدارة الفرنسية في محاربة هذا التعليم الأصلي، والخصوصيات التي حفت بها مريدي وخريجي المدرسة الاستعمارية.

وعموما فإن تأثيرات الاستعمار الفرنسي على المجتمع اتخذت أشكالا وأبعادا مختلفة، ومست حياة الناس السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، غير أن ذلك لا يعني أن المجتمع استسلم للأمر الواقع وركن إلى الخمول، بل قاوم ودافع بقوة، كل الممارسات والسياسات الاستعمارية الهادفة استعباده، وسطر بذلك صفحات مشرقة من النضال – كان الفرنسيون أول المعترفين بها – جدير بأبناء البلد وغيرهم من الباحثين عن الحقيقة أن يعيدوا قراءتها ليستخرجوا ما بين سطورها من فوائد

¹ - الخليل النحوي: مرجع سبق ذكره، ص: 426 نقلًا عن وثائق الأرشيف السنغال الملف 9G78.

² - المقصود هنا عدد المحاضر الكبرى التي تدرس جميع فنون اللغة والشريعة والتاريخ....، ولا يدخل في ذلك الكتابات.

³ - النحوي: مرجع سبق ذكره، ص: 425.

وحقائق، بعيدا عن المبالغة في التمجيد والتطويل كما فعل المحبون، وبعيدا كذلك عن استنقاص واستسغار الأعداء والحاسدين¹.

¹ - كنا قد أشرنا إلى هذه النقطة في المقدمة، وهي أن الكتابة في هذا الميدان فقدت جزء من مصداقيتها بين بعض الكتاب الفرنسيون الذين لديهم أحكام مسبقة حول المجتمع، وتحكمت في كتاباتهم المركزية الأوروبية واستنقاص الآخر، وبين بعض الدارسين المحليين الذين امتلئت قلوبهم حقدا على الاستعمار وأهله.

الخاتمة:

حاولت هذه الدراسة في خطوطها العريضة تسليط الضوء على "العلاقات الموريتانية الفرنسية وتأثيرها على المجتمع من 1899 إلى غاية 1946" وما اكتنفها من ردود فعل محلية، وما كان لها من نتائج وآثار على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للسكان، وقد استدعى منا ذلك البحث في مرحلة ما قبل الإستعمار المباشر بداية القرن العشرين والحفر في مصادرها - الشحيحة أحيانا - لكي نفهم مدى التأثير الذي أوقعته الظاهرة الاستعمارية على جميع البنى الاجتماعية. ويمكننا من خلال هذه الدراسة تلمس ثلاث مراحل مرت بها العلاقات الموريتانية الفرنسية خلال القرن التاسع عشر وقبل الاحتلال المباشر مطلع القرن العشرين، لكل منها مميزات وخصائصها.

- مرحلة الحضور الفرنسي الضعيف (1817-1857):

تبدأ هذه المرحلة من عودة فرنسا إلى السنغال واسترجاعها مركز سان لوي التجاري، وتنتهي عند تولي الفرنسي "فيدرب" على السنغال، وقد كان الوجود الفرنسي في ذلك الوقت داخل السنغال ضعيفا نسبيا، وفي معظمه تجاريا لم تتطرق إليه بعد صبغة النفوذ الاستعماري، مما انعكس على طبيعة العلاقة مع الأطراف المحلية.

وخلال هذه المرحلة حافظت فرنسا على وجود علاقة طيبة مع الجانب البيضاني يدفعها نحو ذلك الخوف على مصاحلها التجارية وخاصة تجارة الصمغ الرائجة حينها وقد عزز من موقف الإمارات البيضانية وجود أطراف أوروبية أخرى على حلبة الصراع التجاري في المنطقة، خصوصا بريطانيا وهولندا على سواحل الأطلسي.

- مرحلة تغير الموازين (1854-1890):

شكلت هذه المرحلة البداية الفعلية للوجود الفرنسي في المنطقة، والمبني على القوة العسكرية والنفوذ السياسي في مقابل سلطة أميرية بدأ ينخر الضعف في قواها وزاد من تعميق ذلك الضعف الصراع المتجدد على الإمارة وظهور فرنسا كطرف يتم الاعتماد عليه في فض النزاعات والظفر بكرسي الإمارة.

- مرحلة التدخل في الشؤون الداخلية (1890-1899):

أدى عدم وجود قوانين لانتقال السلطة داخل الإمارات إلى ظهور انشقاقات في الجهاز الأميري بعد وفاة الأمير أو اغتياله وهو ما عملت الإدارة الفرنسية في السنغال على استغلاله، لإضعاف المتخاصمين وضرب القوي بالضعيف لإضعافهما جميعاً، وقد أتاح ذلك لفرنسا عقد عدة اتفاقيات ومعاهدات ألمحنا لبعضها كرست النفوذ الاستعماري وأرغمت الأطراف المحلية على التخلي عن حقوقهم في السيادة والتسيير ومهدت لاتفاقية الحماية مطلع القرن العشرين.

ولا نذيع سرا إذا ما قلنا إن هذه الصراعات التي غذتها وعمقتها فرنسا، هي من صميم الأزمة البنيوية الكامنة في هيكل النظام الأميري نفسه، حيث تقوم السلطة على القوة العسكرية فقط وتفتقد إلى ركيزة اقتصادية صلبة بالإضافة إلى غياب أي تقنين عرفي يضبط انتقال السلطة، مما أفسح المجال أمام النزاعات الانقسامية الداخلية التي اشعلت فتيلها عوامل خارجية وجدت فيها ضالتها لتبرير مخططاتها الاستعمارية.

وعموماً فإن الصلات التي أقامها الفرنسيون مع أهل البلاد كانت أوسع في المكان وأطول في الزمان مقارنة مع غيرهم من الدول الأوروبية الأخرى فقد سعى الفرنسيون إلى الاستحواذ على المنطقة فارضين نفوذهم السياسي والتجاري منذ القرن التاسع عشر والعسكري مع بداية القرن العشرين.

وقد لا نخطأ كبد الحقيقة إذا ما اعتبرنا أن العلاقات الموريتانية- الأوروبية بشكل عام خلال مراحلها الأولى - المرحلة التجارية وقبل تبلور المشروع الاستعماري - عبارة عن صراع مستمر بين الأطراف الأوروبية للسيطرة على المراكز التجارية وحماية الإحتكار وتأمين التجارة ومنع المنافسين دون أن يكون السعي إلى السيطرة على الإنسان والمكان حضور في سياستهم على الأقل إلى غاية القرن التاسع عشر.

خلال نهاية القرن التاسع عشر بدأت تظهر في الأفق سياسة فرنسية جديدة ونزعة توسعية طاغية تغذيها الرغبة في الحصول على المواد الخام وفتح أسواق جديدة لمنتجاتها الصناعية وفوق هذا كله الربط بين مستعمراتها في الشمال والجنوب الإفريقي وقد تطلب ذلك - قبل الشروع في عملية الاحتلال - إرسال مستكشفين وجواسيس يجمعون المعلومات حول طبيعة السكان وتضاريس البلاد وعادات وتقاليد وثقافة القوم.

إلا أن المنعطف الأهم في تاريخ العلاقات الموريتانية- الفرنسية سيتمثل في الرحلة التي قام بها الإداري الفرنسي "كبولاني" إلى السودان الغربي وقادته إلى مناطق من موريتانيا الحالية سنة 1898 باقتراح من الحاكم العام للسودان الغربي من أجل الدخول في علاقات مع القبائل البيضانية وقبائل الطوارق وإقناعهم بالخضوع للسيطرة الفرنسية.

بناء على هذه الرحلة بدأ كبولاني مشروعه "موريتانيا الغربية" الذي وضع أسسه ومعالمه ودافع عنه بقوة أمام منتقديه ومعارضيه ومع أن المشروع السالف الذكر لقي معارضة قوية من داخل السنغال وخارجه (فرنسا)، فإن حنكة كبولاني وخبرته بالمجتمع البيضاني بددت مخاوف الجميع وأظهرت بعد ذلك أنه كان على حق عندما استطاع أن يجعل من موريتانيا إقليميا مدنيا ويعين نفسه مفوضا ساميا

للحكومة الفرنسية على الإقليم الجديد ويضع الترازرة ولبراكنة تحت الحماية دون أن يكلف الخزينة الفرنسية أكثر من 25 ألف فرنك¹.

ظلت المقاومة طيلة الفترة السابقة على السنة 1934 تتبادل النصر والهزيمة مع المستعمر وتكبدته خسائر مادية وبشرية، ولم تسفر الحملات العسكرية ولا الخطط السياسية عن أمن واستقرار البلد كما وعدت وروجت الإدارة الاستعمارية بداية دخولها (1903)، بل إن تقديراتها لم تكن سليمة عندما توقعت أن احتلال البلاد لن يكون مكلفا خصوصا إذا ما علمنا أن الفرنسيين فقدوا بين ديسمبر 1931 وديسمبر 1932 فقط ما يقارب 25% من ضباطهم و35% من ضباط الصف 20% من الرماة السنغاليين و12% من الحرس الموريتاني²، وهذا ما يحيل إلى طول نفس المقاومة وجدوائية هجماتها فلو أتيح لها أن تتوحد في حركة واحدة وتحت قيادة واحدة لتغير الموقف.

وعموما فإن العلاقات الموريتانية- الفرنسية أثناء الفترة المدروسة مرت بأربع محطات رئيسية:

- الأولى: من 1899-1905 وكان طابع الوجود الفرنسي خلالها طابعا سلميا، اعتمد على السيطرة غير المباشرة في إدارة شؤون البلاد.
- الثانية: 1905-1914 تميز الوجود الفرنسي فيها بطابع العنف العسكري بقيادة "مونتاني" ثم "غورو"، وكانت أكثر دموية مما قبلها ومما بعدها.
- الثالثة: 1914-1934 شكلت مرحلة تأمين مكاسب الاحتلال والقضاء على جيوب المقاومة.

¹ - مجموعة باحثين: الجمهورية الإسلامية الموريتانية، مرجع سبق ذكره، ص:44.
² - الطالب أخبار: مرجع سبق ذكره، ج 2 ص:632.

- الرابعة: 1934-1946 عهد استكمال التنظيمات الإدارية والاقتصادية

والاجتماعية والثقافية الفرنسية.

لقد تأكد لنا من خلال هذا العمل، أن الإحتلال الفرنسي تمكن من تحطيم البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمجتمع محل الدراسة، فعلى المستوى السياسي: أدت مركزية السلطة الاستعمارية إلى القضاء على نفوذ الأمراء وتقويض سلطتهم وإلغاء ما ترتب على هذه الأخيرة من مزايا (ضرائب الحماية، الإتاوات..)، وتم استبدالها بسلطة الإدارة الفرنسية مع الاحتفاظ بالجهاز الأميري في فترة لاحقة، لكن بشكل صوري خال من استقلالية القرار، وإنما اختزلت مهمته في توصيل أوامر الإدارة إلى القاعدة الشعبية، دون أن يكون له دخل في إصدار القرارات، أو حَلحلة المشاكل.

وعلى المستوى الاقتصادي: تم إدماج المجتمع – بطريقة عنيفة وخالية من التدرج – في صلب الرأسمالية العالمية عن طريق الأسواق الفرنسية والمواد الأوروبية المستوردة فضلا على فرض التعامل بالنقود - بدل المقايضة التي عهدها القوم منذ قرون - وإثقال كاهل السكان بالضرائب.

وإذا كان النظام الضريبي الذي فرضته الإدارة الفرنسية على السكان قد وفر قاعدة اقتصادية للمستعمرة فإنه قد أدى إلى تعميم المبادلات النقدية وإدخال المجتمع في علاقات تجارية غير متكافئة مع مجتمعات غرب إفريقيا الفرنسية تراوحت بين الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر.

ويمكننا إجمالاً أن نعتبر أنه حيثما استوطنت الإدارة الفرنسية وغرست أنيابها داخل النسيج الاجتماعي وحيثما انتشر القطاع النقدي في منطقة من البلاد إلا وانخفضت القدرة الشرائية للسكان واتسع نطاق التفجير وازدادت الفوارق الاقتصادية وظهرت طبقة من الأغنياء جديدة مثلت الامتيازات الممنوحة لها من طرف

المستعمر الأرضية المناسبة لازديادها ثراء، مقابل طبقة فقيرة ظلت تعيش على وقع التقلبات المناخية والتجاذبات الاقتصادية بين أصحاب "الدور التجارية" في سان لوي ومجموعة من الوسطاء والإدارة الاستعمارية من جهة ثانية.

من البديهي - والحال هذه - أن الوجود الفرنسي أدى إلى تفكير السكان فعلى امتداد العهد الاستعماري ازداد الفارق بين المصادر والاحتياجات بين مستوى حياة أقلية موالية للإدارة وجمهور يمثل عامة الناس وكانت هذه الظاهرة نتيجة غير مباشرة للسيطرة السياسية والاقتصادية لمجتمع ذي بنيات إنتاجية رأسمالية، على مجتمع ما قبل الرأسمالية مثل اقتصاد "الكفاف" فيه أقصى منشود وأعظم مطلوب. وتجسيدا لمبدأ "فرق تسد" فإن تأثير العلاقات الفرنسية على الجانب الاجتماعي كان واضح المعالم من خلال إحداث اختلالات في البنيات الاجتماعية عن طريق ضرب الفئات الاجتماعية بعضها ببعض وتصوير الفئات العليا في المجتمع على أنها مستغلة للفئات الأخرى مما ساهم في تفكيك ترابط اللحمة الاجتماعية وتبخر جهود التقارب والتعاقد.

ويمكننا أن نقول بشيء من الجزم إن أهم سمات الوجود الفرنسي في موريتانيا هي عنف سلطته التي فرضها بالحديد والنار فالسلطة الفرنسية تم فرضها بقوة السلاح وكل من خالفها كان يتعرض لمحن عصبية وليس الخلاف الناشب بين أبناء العمومة في إمارة الترارزة (أحمد سالم، ومحمد فال ولد سيدي) ولجوءهما معا إلى الإدارة الفرنسية في السنغال وقبلهما - مرغمين - للحماية الفرنسية إلا أحد تجليات هيمنة فرنسا وحضورها المكثف في المنطقة خلال السنوات الأولى من القرن العشرين ونفس الشيء ينطبق على أمير لبراكنة "أحمدو بن اعلي" أما الأمراء الذين فضلوا خط المواجهة مع الإدارة الاستعمارية (بكار بن اسويد أحمد، وابن عيدة أمير آدرار) فقد كانت نهاية الأول أن قتل في معركة بوكادوم 1905 والثاني تم وضعه

تحت الإقامة الجبرية في سان لوي 1917 واستبداله بجماعة موالية لفرنسا، ثم قتله بعد ذلك في مطاردة شاقة سنة 1932.

وستشهد سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية هبوب نسائم الانفتاح السياسي الفرنسي على مستعمرات غرب إفريقيا الفرنسية وكانت موريتانيا – باعتبارها إحدى دول هذه المجموعة – من بين المستفيدين منها، فقد دشنت نيابيات نوفمبر 1946 ولوج الموريتانيين إلى الحياة السياسية المعاصرة بعد أن حصلت البلاد على حق التمثيل في الجمعية العامة ومجلس الشيوخ الفرنسيين.

مثلت الانتخابات النيابية لسنة 1946 منعرجا هاما في تاريخ الحياة السياسية الموريتانية وأعطت قيمة معتبرة لطبيعة المشاركة ونوعيتها حيث انتقلت من مشاركة تقليدية بدائية في إدارة البلاد إلى أخرى أكثر عصرنة وفاعلية، رافق ذلك قيام أحزاب سياسية اطلع بعضها بمشاريع تقدمية – بمقاييس المرحلة – من قبيل الوحدة الوطنية والمطالبة بخروج المستعمر، وهو ما أوجد فئة من المثقفين أكثر تسيسا وإن كان ذلك قد شكل في بعض الأحيان تنافسا سياسيا حادا بين النخب السياسية، كان الترحال السياسي والصراع الحزبي أحد تجلياته.

وهذا ما ولد لدينا شعورا نحو التطلع إلى معرفة مسار المشاركة السياسية الموريتانية ومدى إسهامها في خلق وعي لدى النخبة السياسية وتأثيراتها المختلفة على البلاد وساكنتها لعلني أجد أنا أو غيري سعة من الوقت والجهد لسبر أغوار هذه الإشكالات وإشباعها بحثا ودراسة في أعمال قادمة.

وفي الختام نرجو أن يكون هذا العمل قد أَمَط اللثام عن أهم محطات تاريخ العلاقات الموريتانية الفرنسية وأسس ركنا يمكن أن يُركن إليه في قراءة صفحات من ماضي موريتانيا المعاصر وحافزا لآخرين إلى مد حبل الوصل بينهم وبين جزء من تاريخهم طمرته السنين ولم يحظ بالقسط الكافي من مداد الباحثين المحليي

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل صورة الأرض، دار الحياة، بيروت 1978.
- أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر 1857 .
- أحمد الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة (د،ت) ج:1
- أحمد بن أحمد يوره الديماني: "إخبار الأبحار بأخبار الآبار" تحقيق أحمد بن الحسن، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط 1992.
- بول مارتي: القبائل البيضانية في الحوض والساحل الموريتاني، قصة احتلال فرنسا للمنطقة، تعريب محمد محمود بن ودادي، 2004 دون مكان نشر.
- بيير بونت: إمارة أدرار الموريتانية، الحريم التنافس الحماية في مجتمع قبلي صحراوي، ترجمة محمد بن بوعليية، الطبعة الثانية، دار النشر جسور، نواكشوط 2013
- الرائد جيليه: التوغل في موريتانيا اكتشاف استكشاف، تعريب: محمد بن حمينا، دار البيضاء، ط1، الكويت 2007.
- سيدات بن الشيخ المصطفى: ثبوت وصحة انساب بني مغفر إلى جعفر الطيار، مخطوط
- سيدي بابه بن سيدي محمد: تاريخ إمارتي إدوعيش ومشطوف ، مخطوط بحوزتنا
- سيدي بابه بن سيدي محمد: رسالة إلى سيدي محمد بن حبت، مخطوط بحوزتنا نسخة منه.
- سيدي بابه بن سيدي محمد: رسالة موجه إلى جماعة أهل أطار، مخطوط بحوزتنا نسخة منه
- سيدي بابه بن سيدي محمد: فتوى متعلق بالجهاد والهجرة، بحوزتنا نسخة منها.

ماء العينين بن محمد فاضل: هداية من حارا في أمر النصارى، مخطوطة بحوزتنا
نسخة منها

محمد بن صالح بن عبد الوهاب: الحسوة البيسانية في الأنساب الحسانية، تحقيق إزيد
بيه بن محمد محمود وسيدي أحمد بن محمد سالم، المعهد الموريتاني للبحث العلمي،
نواكشوط 1998.

محمد عبد الرؤوف، المناوي، التوفيق على مهمات التعاريف تحقيق محمد رضوان الداية،
دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1990،

محمد مكرم منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت (دت) الطبعة الأولى، ج: 1
المختار الكنتي: الرسالة الغلاوية، تحقيق حماه الله بن السالم، منشورات امربيه ربه،
الرباط 2006.

المختار بن حامد: حياة موريتانيا (الحياة الثقافية) الدار العربية للكتاب، تونس 1990.
المختار بن حامد: موسوعة حياة موريتانيا، جزء التاريخ السياسي، الطبعة الأولى،
دار الغرب الإسلامي، 2000

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، مطبعة دار صادر،
بيروت 1968.

هارون بن الشيخ سيدي: كتاب الأخبار مخطوط بحوزتنا جزؤه الأول والثاني

المراجع:

أحمد توفيق، المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان 1850-1912)،
منشورات كلية الآداب الرباط، الطبعة الثانية 1983

أحمد ولد الحسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة في
وصف الأساليب، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولى 1995 .

إزيد بيه بن محمد محمود، الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي،
المعهد التربوي الوطني، نواكشوط 2001.

إمارة الترابزة وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين (من 1703 إلى 1860)
معهد الدراسات الإفريقية الرباط 2002.

حرب شريبه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني، المعهد الموريتاني
للحبت العلمي نواكشوط 1994.

الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، عرض للحياة العلمية والإشعاع الثقافي
والجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة (المحاضر) المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم تونس 1987.

دراسات حول الإسلام في موريتانيا، ترجمة البكاي بن عبد المالك، تونس 2010.

سيدي أحمد ولد أحمد سالم وآخرون: ديوان الشعر الشعبي، تقديم وتعليق، المطبعة
الجديدة، نواكشوط، 1996.

سيدي محمد بن ملاي أحمد بن جعفر: حروب التوغل الفرنسي، مطبعة الدستور،
المطبعة الأولى، نواكشوط 2009

شوقي الجمل، وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، دار
الزهراء طبعة 2 الرياض 2002.

عبد العزيز الثعالبي العثماني: سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، تحقيق
حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1995.

فيليب مارشزين: القبائل والإثنيات والسلطة في موريتانيا، ترجمة محمد بن بوعلية،
دار جسور، 2013

المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية،
منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 2001

محمد الأمين بن سيد أحمد: السلطة والفقهاء في إمارة الترابزة خلال القرن 19م مطبعة
المنار 2003.

محمد الراضي بن صدفن: السياسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية (1900-1969) المطبعة الوطنية 1992.

محمد المختار بن السعد "حرب شرببه أو أزمة القرن 17 في الجنوب الموريتاني، المعهد الموريتاني للبحث العلمي انواكشوط 1993

محمد المختار بن السعد وآخرون: تاريخ القضاء في موريتانيا من عهد المرابطين إلى الاستقلال، تونس 1997.

محمد المختار سيدي محمد، المجتمع والسلطة في موريتانيا (1961-1978) "الرحيل إلى الدولة"، مرقون

محمد المختار ولد السعد، إمارة الترازو وعلاقتها التجارية والسياسية مع الفرنسيين (1703-1860) معهد الدراسات الإفريقية الرباط 2002

محمد بن محمد وثائق من التاريخ الموريتاني (نصوص فرنسية غير منشورة) المطبعة الجديدة، 2000

محمد بن محمد، المجتمع البيضاني فيم القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 2001.

النقيب سيدي محمد بن حديد: القصة الكاملة مقتل منظر الحملة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا كزافي كبولاني، منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين.. الطبعة الأولى، 2010.

الأطروحات:

تربة بنت عمار: التصوف في بلاد شنقيط، مرجعيته القرآنية ومناهجه التربوية، خلال القرنين 18-19، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة السلطان مولاي إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 2013.

حد أمين بن إسلامو: التعليم في موريتانيا (1960-1990) بحث لنيل شهادة التعمق في البحث، قسم اللغة العربية، جامعة تونس الأولى 1992.

حماء الله بن السالم: الاتصال الثقافي بين موريتانيا والمشرق العربي، أطروحة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، معهد الدراسات والبحوث العربية، القاهرة 1994.

ددود ولد عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي عشر (17-18م) بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1992-1993.

دمبا ياتيرا : السوادان الغربي والتطورات السياسية والاجتماعية بين القرن السابع عشر والنصف الثاني من القرن التاسع عشر بحث لنيل شهادة ماجستير في التاريخ، معهد جامعة الدول العربية، القاهرة، 1991.

الدو بن عبد الله: الشمال الموريتاني في مواجهة الاحتلال الفرنسي، بحث لنيل شهادة الكفاءة، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين، نواكشوط 1982.

سعد بوه بن احمادة: لمحة من تاريخ إمارة لبراكنه في النصف الثاني من القرن 18 بحث التخرج من المدرسة العليا للأساتذة، نواكشوط 1985.

سعد خليل: تكوين موريتانيا الحديثة، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة 1977.

السفيوني عبد النبي: الاستعمار الفرنسي في السنغال 1854-1876 بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1996

سيدي ابراهيم بن محمد أحمد: الحزب الواحد، وتطور الحياة السياسية في موريتانيا، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في العلوم السياسية جامعة محمد الخامس، كلية العلوم القانونية والاقتصادية، الرباط 1989.

الشيخ أحمد بن الشيخ أحمد: الأبعاد الاقتصادية لأزمة الإمارة في لبراكنة خلال النصف الأول من القرن 19، بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط 1996.

جمال غدور: العلاقات الموريتانية – الإفريقية والعربية في عهد الرئيس المختار بن داداه، بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ، جامعة نواكشوط 2006.

جمال غدور: العلاقات الموريتانية – المغاربية (1956-1978) بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ، جامعة ابن طفيل 2008.

محمد الامين بن الشيخ عبد الله: العلاقات التجارية بين إمارة لبراكنة وفرنسا خلال القرن 19 بحث لنيل شهادة المتريز في التاريخ، كلية الآداب، جامعة نواكشوط 1989.

محمد الأمين سيد أحمد: أستقرأطيتا السيف والقلم في موريتانيا خلال القرن 19 بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة 1998 .

محمد الصوفي بن محمد الأمين: المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني، رسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة الملك سعود، 1985.

مجدو بن محمدن، مدخل إلى دراسة أزمة إمارة الترارزة أثناء القرن التاسع عشر، المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين نواكشوط 1985

مريم بنت اعييدن: العلاقات السياسية بين إمارتي آدرار وتكانت في القرن التاسع عشر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط 1986.

الناني بن الحسين: إمارة أولاد امبارك في الحوض (1712-1841)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط 1986.

الدوريات:

أرنست بريني، ملاحظات بشأن النزاعات التي جرت بين مستعمرة السنغال وأعمار بن المختار ملك الترارزة، من 1819-1829، ترجمة محمد المختار بن السعد، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد الخامس.

بيربونت: الغزو الفرنسي لأدرار، مجلة مصادر جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية 2002 العدد 2.

ددود بن عبد الله: الإسلام والمجتمع في إفريقيا الغربية خلال القرنين 17-18،
حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد 2، سنة: 1990.

سالك ولد محمد المصطفى: سدوم ولد انجرتو، مجلة الموكب الثقافي، اللجنة الوطنية
للثقافة والعلوم، نواكشوط، العدد التاسع 1997.

ستيفن هارمن: المقاومة المسلحة وموقف الشيخ ماء العينين إزاء السياسة الفرنسية
في شمال غرب إفريقيا، ترجمة عبد الله بن الأمين، جامعة شعيب الدكالي، مجلة كلية
الآداب الجديدة، العدد: 8-9

عبد الله بن عبد الرحمن: التصوف وطرقه في موريتانيا، حوليات المدرسة العليا
للتعليم، العدد الأول 1992.

عبد الودود ولد الشيخ، القبيلة وتجلياتها المختلفة، مجلة الوسيط، العدد الأول،
نواكشوط، 1987

محمد الراضي بن صدفن: المدرسة الاستعمارية الفرنسية في موريتانيا ومجتمع
البيضان، مجلة مصادر، العدد الثالث، نواكشوط، سنة 2002 .

محمد المختار بن السعد: الإمارات والمجال الأميري البيضاني خلال القرنين 18 و 19
(إمارة الترارزة نموذجاً)، حوليات كلية الآداب جامعة نواكشوط، العدد 2، 1990.

محمد المختار بن السعد، العلاقات الفرنسية التروزية في عهد الاستعمار الزراعي من
خلال رواية "ارنست بريني" حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة
نواكشوط، العدد الخامس، 1996

محمد المختار ولد السعد ويحيى ولد البراء: ميكانيزمات البنى القبيلة بين الثبات
والتغيير من خلال المسألة العاقلة، ضمن مصادر دراسات التاريخ الموريتاني
الكتاب الأول 1993

محمد المختار ولد السعد، ومحمدو ولد محمذن: ملاحظات أولية بشأن السيادة في حوض
نهر السنغال خلال القرنين 18-19، المجلة الجغرافية، العدد رقم 1، المطبعة الوطنية
نواكشوط، 1992

محمد سعيد بن أحمدو: الصمغ العربي وعلاقات البلاد الموريتانية مع مستعمرة السنغال
خلال القرن التاسع عشر، المجلة المغاربية، العدد 120 سنة 2005 .

محمد عبد الرحمن بن عمار: فيدرب وتعزيز النفوذ الفرنسي على الضفة اليمنى لنهر
السنغال، مصادر كراسات التاريخ الموريتاني، العدد الرابع، 2004 .

محمد وبن محمذن : بصدد تسمية موريتانيا "ترجمة وتحقيق وثيقة فرنسية مؤلفة 1843
حوليات كلية الآداب، عدد السادس 1999 .

محمدو بن محمذن: الرحالة الفرنسيون ودورهم في تحريف التاريخ الموريتاني حوليات
كلية الآداب، جامعة نواكشوط العدد الثاني 1990.

محمدو بن محمذن: المحاضرة الموريتانية ودورها في غرب إفريقيا، مجلة البحوث
والدراسات العربية، سنة: 2005

المراجع الفرنسية:

- Vuilleman (desire) contribution a l'histoire de la mauritanie,
1900-1934, edition calairafrique Dakar, 1962
- Delcourt (André) la France et les établissements français au
Sénégal entre 1713 et 1763 mémoires de L, IFAN, n 17, Dakar
1952
- Chekh (Abdel Wadoud) Nomadisme, islam et pouvoir
politique dans la société maure précoloniale, Essai sur quelques
aspects du tribalisme, thèse pour le doctorat en sociologie
université Paris – v, 1985
- Genevieve Desire – vuillemin “la guere de char baba” sahara
occidental fin du XVII siècle Paris le saharien n56-1971
- Diakite Abdoulaye; L'Emirat du trarza de 1800 a 1860,
université de Dakar, 1983

- Amilhat (Pierre) "petite chronique idouaich, héritiers gueurs des almoravides sahariens" Paris revue des études islamiques n 1, 1973.
- Herche "Note sur la langue berbère de Mauritanie" Dakar, BIFAN, série B, t-xx n 2 janvier – avril 1958
- Constant Hames : "la société Maure, ou le système des castes de l'Inde" cahier international de sociologie, vol. XI, XI. 1969,
- Rachid Ould Mohamed, contribution à l'histoire de la Mauritanie statut et condition serviles dans la société Maures précoloniaire mémoire de maîtrise Université de Nouakchott 1988.
- Robert Arnaud Randau, Un corsaire d'Algérie chez les Hommes bleus, Xavier Coppolani, le pacificateur, Alger, A. Imbert Editeur, 1939
- Louis Frèrejean, Mauritanie 1903 – 1911, Mémoires de randonnées et de guerre au pays des Beidanes, Paris, Kartala 1995.

الفهرسة

الصفحة	العنوان
1	المقدمة
22	الباب الأول: الإمارات البيضانية وبدايات الوجود الأوروبي
26	الفصل الأول: السلطة والمجتمع قبل الاستعمار الفرنسي
26	أولاً: البنية السياسية قبل الاستعمار الفرنسي
27	أ) النظام الأميري نشأته وتطوره
32	ب) الجهاز التنظيمي في النظام الأميري
33	ثانياً: الإمارات البيضانية
34	أ) إمارة البراكنة
37	ب) إمارة الترارزة
41	ج) إمارة أولاد يحيى بن عثمان
43	د) إمارة إدوعيش
46	ثالثاً: البنية الاجتماعية قبل الاستعمار الفرنسي
47	أ) أصحاب قمة الهرم الاجتماعي
53	ب) أصحاب قاعدة الهرم الاجتماعي "الفئات التابعة"
56	رابعاً: البنية الاقتصادية
62	الفصل الثاني: الوجود الأوروبي في المنطقة
63	أولاً: الأوروبيون والصراع على المنطقة
68	ثانياً: فرنسا وطريق السيادة على المنطقة
80	ثالثاً: فيدرى وسياسة العصا الغليظة
94	رابعاً: الرحلات الاستكشافية
103	خامساً: موقف الطبقة العاملة من الوجود الفرنسي خلال القرن التاسع عشر

109	الباب الثاني: الوجود الفرنسي في موريتانيا بين إثبات الوجود وإكراهات الاستمرار
112	الفصل الأول: الاحتلال الفرنسي لموريتانيا
116	أولاً: كبولاني وتأسيس الوجود الفرنسي في البلاد
120	ثانياً: مشروع الاحتلال أمام مفترق طرق
122	ثالثاً: مرحلة التوغل الفرنسي
122	أ- إخضاع الترابزة "المعاندة السابقة"
127	ب- إمارة البراكنة المحطة الموالية
133	ج- جبال "تكانت" مفتاح السيطرة الفرنسية
148	د- أدرار آخر القلاع في وجه فرنسا
164	الفصل الثاني: محاولات التصدي للوجود الفرنسي
165	أولاً: الوجود الفرنسي يتحول إلى نازلة فقهية
167	أ) آراء مساندي الاستعمار الفرنسي
181	ب) آراء رافضي الإستعمار الفرنسي
191	ثانياً : محاولات الصمود أمام التوغل الفرنسي
194	أ) تصاعد الهجمات ضد القوات الفرنسية
208	ب) تراجع الهجمات ضد القوات الفرنسية
221	الفصل الثالث: تأثير العلاقات الموريتانية- الفرنسية على بنيات المجتمع
225	أولاً: تثبيت الوجود الفرنسي من خلال التنظيم الإداري
228	أ) السلم الإداري الفرنسي
229	ب) الجهاز الإداري المحلي
232	ثانياً: تثبيت الوجود الفرنسي من خلال النظم الاقتصادية
232	أ) الضرائب الفرنسية على السكان

238	ب) المبادلات التجارية
247	ثالثا: تثبيت الوجود الفرنسي من خلال هيمنة الثقافة الفرنسية
250	أ- أهداف التعليم الفرنسي
255	ب- واقع التعليم الفرنسي
264	ج- المجتمع ومقاومة التعليم الفرنسي
270	د- أسباب فشل التعليم الفرنسي
275	رابعا: تأثيرات الوجود الفرنسي على المجتمع
275	1) التأثير على المستوى السياسي
277	2) التأثير على المستوى الاجتماعي
279	3) التأثير على المستوى الاقتصادي
280	4) التأثير على المستوى الثقافي
283	الخاتمة
290	قائمة المصادر والمراجع
299	الفهرسة

الكتاب في سطور

حاولت هذه الدراسة في خطوطها العريضة تسليط الضوء على العلاقات الموريتانية-الفرنسية وتأثيرها على المجتمع وما اكتنف تلك العلاقة من ردود فعل محلية، وما كان لها من نتائج وآثار على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للسكان، وقد استدعى منا ذلك البحث في مرحلة ما قبل الإستعمار المباشر بداية القرن العشرين والحفر في مصادرها -الشحيحة أحيانا- لفهم مدى التأثير الذي أحدثته الظاهرة الاستعمارية على جميع بُنى المجتمع، في محاولة منا لإعادة ترتيب بعض أوراق التاريخ الموريتاني ونفض غبار النسيان عنها، بعيدا عن توجهات دارسين غربيين طبعت كتاباتهم النظرة الدونية للمجتمع، وبعيدا كذلك عما سطره مؤلفون موريتانيون أعمت أقلامهم كراهية الإرث الاستعماري، فجاءت كتابات هؤلاء جميعا - في أغلبها - متأثرة بالأحكام الجاهزة تجاه الذات وتجاه الآخر

الدكتور جمال غدور حاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ من المملكة المغربية مارس التدريس في جامعة التاسع أيلول في تركيا والمعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية وجامعة نواكشوط له أعمال بحثية منشورة، و مترجم معتمد للغة التركية لدى المحاكم الموريتانية

